

د. زکای نجیب محمود

٤٤

قطب

نفا



دار الشروق

قصص
عبدالله

الطبعة الثانية

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الرابعة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تليكس : SHROK UN 93091

بيروت : ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا : داششروق - تليكس : SHOROK 20175 LE

الدكتور زكي نجيب محمود

فلسفة نفس

دار الشروق

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ

صدرت « قصة نفس » في طبعتها الأولى سنة ١٩٦٥ ، وكان الكاتب قد بناها على مبدأ فني ارتآه لنفسه إذ ذاك ، وهو أن يروى قصة تلك النفس من الباطن لا من الظاهر ، بمعنى أن يكون محور الاهتمام بالخلجات الداخلية قبل أن يكون بالأحداث الخارجية ، فتلك الأحداث الخارجية على مرأى من الناس ومسمع ، وأما التأثيرات الداخلية التي استثارها تلك الأحداث في دخيلة النفس ، فحتاج إلى بصيرة نافذة إلى العمق .

لكن لما كان جزء كبير من خلجات النفس في استجابتها للظروف والعوامل المحيطة بها ، هو مما يود صاحب تلك النفس أن يخفيه عن الناس ، فقد اضطر الكاتب إلى اللجوء إلى الرمز ، فلا الأشخاص يذكرهم على حقائقهم وأسمائهم ، ولا الأحداث نفسها يصورها دائماً كما وقعت بالفعل .

غير أنه - أعنى الكاتب - كان كلما أحس أن الرمز قد تكثف حتى كاد يفقد شفافيته ودلالته ، تعتمد أن يلقى في سياق الحديث اسماً ما أو حادثة معينة بحقيقتها التاريخية الصحيحة ، بغية أن يشد القارئ من عالم الوهم إلى دنيا الواقع . وبعد أن صدرت « قصة نفس » وأصبحت في أيدي القراء ، وتحول كتابها نفسه إلى قارئ لها ، بل إلى قارئ ناقد ، لقيت إعجاباً من جمهور القراء ، ربما لما كان فيها من تفرد في البناء والصياغة ، إلا كتابها فقد لمح فيها أوجه نقص - حين طالعها بعين الناقد - إذ خيل إليه أن الوحدة الفنية فيها لا تخلو من

تفكك ، كما خيل إليه كذلك أن انتقلها من خفاء الرموز إلى صراحة الـ
كثيرا ما جاء انتقالا مفاجئا يحدث ما يشبه الصدمة عند القارئ ، ذلك
عن استرسال القصة في ذكر جوانب من تلك النفس لم يكن ينبغي لها أ
محاسنها لتصبح طليقة في الهواء أمام الأبصار .

من أجل هذا ، تردد الكاتب في أن يعيد طبع الكتاب ، برغم
الأصدقاء ، حتى إذا ما أوشكت عشرون عاما أن تنقضي على نشر
الأولى ، وهى فترة لم يكن الكاتب عندما روى قصة تلك النفس أول
يتصور أنها بقيت أمامها لتحياها ولتعتلى خلالها بخبرات جديدة و
وارتعاشات .

وطلب من الكاتب أن يقدم كتابه للنشر في طبعة ثانية ، صادف الـ
هذه المرة - هوى عنده ، إلا أنه هم بما يوشك أن يكون تأليفا جديدا
حذفت من الطبعة الأولى فصول ، وأضيفت إليها فصول ، وأدخلت على
من فصولها تعديلات كثيرة ، أملا في أن تحيى صورتها الجديدة خلوا
لكاتبها أنه عيوب شامت بها صورتها الأولى .

وكان من أقوى الدوافع التى مالت بالكاتب إلى إخراج قصة تلك النث
صورة جديدة ، أنه كان قد فرغ لتوه من كتابة قصة أخرى يروى به
« عقل ما » كيف سارت وتطورت ، وهو يعلم أن بين تلك « النفس ا
« العقل » شيئا من صلة القرى ، يبرر أن يضعها معاً جنباً إلى جنب بين
القراء .

وبالله التوفيق .

ديسمبر ١٩٨٢ .

نسى نجيب

الفصل الأول

أحذب النفس

١

« الحياة عبثها ثقیل علی من أصابه فی الحياة خذلان ». هکذا قال لی ذلک الرجل العجیب ، الذی رأیته أول ما رأیته فی زحمة الطریق عابساً ، یلتمس لنفسه مسلکاً بین مئات الناس الذین خرجوا لتوهم أفواجاً من دار السینا ، دون أن یمس أحداً منهم بمنکب أو قدم ؛ یتأرجح فی مشیته بعض الشئ ، ولا یدق الأرض بعقبیه ؛ نظراته تنحدر نحو الأرض أكثر مما تلتفت إلى أعلى أو أمام ، كأنما أراد أن یتثبت قبل الخطو من موضع القدم ؛ تبدو علی خطواته السرعة وما هی بسرعة ، وتشع من جبهته ومن فیه جهامة تصرف الناظر إلى وجهه عن رؤية ملامح عند النظرة الأولى ، حتی إذا ما ثبت الناظر فیه عینیه ، وأزال غلالة الجهامة عن صورته ، رأى ملامح ثابتة غلیظة : حاجبان قویان عریضان أسودان ، وأنف طویل ملیء ، وشفطان مزومتان ، ولحیه وشارب کثیفان ، شعرهما سمیک غلیظ اختلط أسوده بأبیضه : ملامح تدل کلها علی المضاء والحدة والبأس الشدید ، لولا أن عینیه تفضحانه فضیحة کبری ، إذ تنطلقان بأجلی بیان أن الرجل هادئ وادع مستسلم مستکین .

رأیته یمضی فی مزدحم الطریق ، وقد حمل علی ظهره ما خیل إلى أنه ربطة کبيرة بیضاء ، شبکها بریاط تحت إبطیه لتظل حركة الذراعین حرة ، فیطوحها

حيناً ، ويضع إحداهما في جيب سرواله حيناً ؛ إنه رجل عجيب يستوقف النظر بين جمع الناس الذين ملأوا الطريق ، يبدو من دونهم جاداً مهموماً صامتاً ، كأنه ينطوى على شيء . . . ثم ما هذا الحمل الذى حمله فوق كتفيه ؟ تعقبته مستطلعاً ، فرأيتُه يَخْلُصُ من قلب المدينة إلى طرف من أطرافها بعيد ؛ وهنالك في مكان تغلب عليه الظلمة إلا من شعاع خافت جاءه من مصباح الطريق خلال أوراق الشجر ، جلس على جدار لم يتم بناؤه ؛ جلس والحمل على كتفيه ، يتململ ويتأرق ، ويرتكز على ذراعه اليمنى مرة وعلى ذراعه اليسرى مرة أخرى ، والحمل ما زال قائماً على كتفيه ، فسعلت سعلة خفيفة لأشعره بوجودى على مقربة منه حتى لا يفرغ إذا ما دنوت منه ؛ ذلك أنى خطوات إليه وحييته :

قلت : هذا مكان هادئ يوحى بالتأمل .

قال ؛ وقد هزته المفاجأة : نعم ، تشعر بهدوئه إذا أويت إليه من قلب المدينة الصاخب .

قلت : إن لأعجب أن أراك ها هنا ، فأكنت أحسب أحداً سواى يفكر في هذا الركن الهادئ البعيد .

قال : بل العجب عجبى أن أراك ؛ فأنا أقضى في هذا الركن المعزول أكثر ساعات المساء ، فما رأيك قبل اليوم وما رأيت أحداً سواك ؛ إننى آوى إلى هذا المكان لأستريح .

قلت : لكنك فيما أرى لا تريد لنفسك الراحة ، فحملك ما يزال فوق كتفك .

قال : ما يزال ؟ ! وهل عرفت أنه من الأحمال التى لا تلتقى عن الكتفين إلا .

إذا فاضت الروح ؟ أنا قائم به وقاعد به ونائم به ومستيقظ به .

قلت : وماذا عسى هذا العبء الثقيل أن يكون ؟

قال : إنه عبء الحياة ؛ أما ترى ؟ هو عبء الحياة وقد انقضى والله كفى ؛ إنه ثقل على من أصابه في الحياة خذلان .

قلت : إذن فهو حمل نفيس .

قال : ليست نفاسة الحمل بمائعة من أن يكون ثقيلاً ؛ فالحمار الذى ينوء تحت أثقاله لا يعبأ أن تكون أثقاله تلك من ذهب أو من حطب .

قلت : ولكنك تستطيع أن تلقيه عن كاهلك إذا أردت .

قال : كيف أستطيع ؟ إنه متصل بالروح مرتبط بالجسد ؛ إن رثى لتعلوان وتهيطان فى صدرى كأنها منفاخ الحديد لا يفر عن النفخ ليظل للنار وهجها واشتعالها ؛ فلا مناص من أن تظل جذوة الحياة مشتعلة بين جنبي - رضيت أم كرهت - وقد أئني لهذه الجذوة المتأججة اللاذعة المحرقة أن تنطفئ فتصبح رماداً تذروه الأعاصير كيف شاءت على يابس أو ماء .

قلت : وما لرثيك ولهذا الحمل الذى على كتفك ؟

قال : العلاقة بينها وطيدة وثيقة ، فهذا الحمل أطرافه فى جوفى ، وهو مشدود هناك إلى أوتاده بما هو - فى الظاهر - أوهى من نسيج العنكبوت ، ذلك أنه مشدود إليها بأنفاسى هذه التى ترددها رثاى شهيقاً وزفيراً ، مشدود إليها بموجات خفية خفيفة من هواء ، ولكن الويل لى من هذه الأنفاس الواهية التى تنسجها رثاى خيوطاً فتشد به هذا الحمل على كتفى لأنوء به ، ووددت لو عرفت أين تكون أطراف هذا المنفاخ الذى ما ينفك يعلو فى صدرى ويهبط كى أمسكه عن النفخ لحظة فتخمد الأنفاس وتنحلّ الروابط وينفك الوثاق ، وبهذا

ينزاح العبء الثقيل عن كاهلى ، إن أطرافه خفية ، أمد البصر فى جميع
أقطارى فلا أراها ، وأرهف السمع فلا يقع لها على حفيف أو رفيف ، وكما
ما أسمع هو هذه النفخات تتوالى من الشهيق والزفير ما ابيضّ لى نهار أو احلولد
ليل ، إني لا أذكر الآن من هو الذى قبل عنه أنه ضاق صدرًا بأنفاسه التى تترد
برغم أنفه ، ثم كره أن تشعل له جذوة الحياة بهذا المنفاخ اللعين وهو راغم
فكتم أنفاسه حتى مات ، لا أذكر اسمه الآن ، لكنى أكبره وأحييه ، وأشبه
إزاءه بالضالّة والصغر ، لأنه رأى رأى ففعل ، وأما أنا فأرى ثم لا أفعل شيئًا
قلت : ما هذا الذى تراه ولا تفعله ؟

قال : أرى الحكمة فى التخفف من هذا العبء الثقيل ، ثم لا أفعل شيئًا .
سبيل الخلاص منه ، الحقّ أنى لا أدرى كيف يظل الإنسان مشدودًا إلى ما ليس
يرضيه ، ثم يظل مشدودًا إليه برغم أنفه ، وهو عالم كل العلم أن الروابط التى
تشده لا تزيد على نفخات من هواء ، لو سدّ عليها الطريق لحظة واحدة لانتهى
كل شيء .

قلت : كلا يا صاحبي ، فالروابط التى تشدك إلى حملك هذا أقوى من هذه
الأنفاس ؛ فليست هى بنفخات من هواء كما ظننت ، إنما هى الشعور
بالواجب ، واجب الحياة ، نعم إنك تستطيع فى أية لحظة شئت أن تتنكر
لواجب الحياة لتظفر براحة الجسد راحة أبدية ، لكنه الجحيم بعينه أن تبث فى
نفسك القلق حين تتخلى عن واجب وجب عليك أداؤه بحكم وجودك .
قال : الواجب كرهه أيًا من كان فارضه أيًا من كان مفروضًا عليه ، لقد
حكمت الآلهة على « أطلس » - فى الأسطورة اليونانية - بأن يحمل السماء على
كتفيه حتى لا ينقضّ بناؤها ، والسماء هى السماء بأنجمها الزواهر اللوامع ؛

فهل رأيت واجباً أسمى وأجعد من أن تُكَلِّفَ حمل السماء على كتفك ؟ وحملها « أطلس » ثم ناء بحملها ، حتى إذا ما جاءه « هرقل » يسأله عن مخبأ التفاحات الذهبية التي كُلِّفَ بالبحث عنها في أركان الكون وبين جنباته ، والتي قيل له عنها إن مخبأها ذاك لا يعرفه إلا « أطلس » حامل السماء ، أقول إنه ما جاء « هرقل » إلى « أطلس » يسأله أين عساه أن يجد بغيته ، حتى وثب « أطلس » إلى هذه الفرصة السانحة ، ليتخلص من عبئه الذى أنقص ظهره ، وقال لهرقل : لستَ بمستطيع أن تجدها بنفسك لأن منالها عسير ؛ فاحمل عنى هذه السماء لحظة حتى أعود إليك بها ؛ ورضى « هرقل » مسروراً بحمل السماء حتى يحقق له « أطلس » بغيته التى لقي العناء فى سبيل تحقيقها ، وانطلق « أطلس » إلى حيث التفاحات الذهبية ، ورآها هناك تلمع فى بريق الشمس يحرسها أفعون جبار ، فتسلل وغافل الأفعون وهو فى غفوة ، وخطف التفاحات ، وعاد مسرعاً إلى حيث ترك « هرقل » فى انتظاره يحمل السماء بدلاً منه .

لكن « أطلس » حين اقترب من موضع « هرقل » تذكر بشاعة الحمل الذى حمله على كتفيه هذه القرون الطوال : تُرى هل ينى بوعده ويعطى « هرقل » تفاحاته الذهبية ثم يعود هو إلى حيث كان تحت عبئه الباهظ ؟ أو ينعم بهذه الحرية التى أتاحها له الظروف فيتخلص من عبئه ذاك إلى الأبد ؟

لا ؛ إنه لن يعود إلى حمله ذاك ، وسيحتفظ بحريته التى ظفر بها بمصادفة قد لا تعود ؛ هكذا اعتزم « أطلس » ودنا من « هرقل » وقال له : ابق حيث أنت حاملاً السماء على كتفك ، وسأخذ أنا هذه التفاحات الذهبية إلى حيث أردتَ أنت أخذها ؛ فظاهر « هرقل » بالقبول والرضى ؛ أليست هى السماء بأنجمها اللوامع الزواهر ؟ إذن فليحملها راضياً على كتفيه ، لكنه طلب من

« أطلس » أن يتفضل عليه بصنيع واحد صغير ، وهو أن يحمل الحمل لحظة قصية ، حتى يضع الوسائد على كتفيه ، لأن ضغط الحمل شديد على كاهله ؛ فأخذت الشهامة من « أطلس » مأخذها ، وفعل ما طلب إليه « هرقل » فعله ، وكيف يتردد في قبول العناء لحظة أخرى قصيرة ، لقاء حرية يظفر بها من هذا العبء الثقيل إلى الأبد ؟

أتى « أطلس » بالتفاحات على الأرض ، وحمل السماء عن « هرقل » حتى يضع « هرقل » على كتفيه الوسائد والحشايا التي تهون عليه أداء هذا الواجب الجديد الذى أتى عليه ؛ لكن « هرقل » لم يكده يزيع عن كاهله حمل السماء ، حتى أخذ التفاحات ومضى تاركًا أطلس في مكانه القديم ، يشقى بأداء واجبه الذى فرض عليه بحكم وجوده .

قلت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى ما قلته ؛ إن عبء الحياة ثقيل ، مهما تكن صورته ، ولا يشدنا إليه أو يشده إلينا إلا هذه الأنفاس نتنفسها ، ولو كتمها حامل العبء لاستراح من أداء هذا الواجب الثقيل .

قلت : يا صاحبي إن الحياة التى تؤرق صاحبها هى الحياة المريضة ؛ فأنت لا تشعر بوجود أى جزء من أجزاء جسمك إلا إذا اعتلّ ؛ إنك لا تشعر بوجود عينيك أو أذنك أو معدتك أو قلبك إلا إذا أصابتها أو أصابته العلة ؛ أما إذا كانت هذه الأجزاء سليمة فلن تشعر بمجرد وجودها ، فضلا عن أن تحسّ الألم من حملها . إن حياتك - فيما أرى - قد مرضت فأحسست بوجودها ثم بحملها وثقلها ، كأنما هى زائدة أضيفت إليك وليست منك ولا أنت منها ، ولست أعجب الآن أن أرى حياتك المريضة هذه قد برزت فوق ظهرك قبة كبيرة .

قال : قل ما شئت فيها ، فهي حياتي التي لا أملك سواها ، وقد ضقتُ ذرعاً بثقلها .

٢

شغلني « أحذب النفس » طول الليل - ذلك الرجل العجيب المكتئب العابس ، الذي يحمل عبء حياته قتباً بارزاً على ظهره - شغلني طول الليل ، ميلاً أحلامي إذا غفوت ، وتمثلُ صورته أمام عيني إذا صحت ، وما زلت طول ليلي بين غفوة وصحو حتى كان الصباح .

ترى لماذا يحمل هذا المسكين حياته كاللؤلؤ الكبير فوق ظهره ؟ أيكون ذلك لأنه ركّز انتباهه فيها فوضحت له علّتها وبرز أمام عينيه سُخْفُها ؟ ولو قد تغافل عنها كما يفعل سائر الناس لسرّت في دمه ، وخفيت عن بصره ؟ يجوز . . . كما تكرر لفظة وتركّز سمعك في جرسها ، فسرعان ما تنفر من صوتها المنكر ، بعد أن لم تكن قد فطنت لئُكره حين استخدمتها غير آبه لها ولا ملتفت إليها ؛ خذ كلمة إمبراطور وكررها عدة مرات : إمبراطور ، إمبراطورميرا ، طورميرا ، طورميرا طور . . صوت عجيب منكر ، ظهر نُكره وشذوذُه حين ألقينا إليها السمع ، وكان يمكن ألا نقف عنده هذه الوقفة الفاحصة ، فيظل له في النفس هبة وجلال .

كذلك صاحبنا « أحذب النفس » ربما كان الفرق بينه وبين سائر الناس أنه قد أنعم النظر في معنى حياته ، فأنتهى به النظر إلى أنها أنفاس فاترة واهية من هواء فاسد ، لا شيء أكثر من ذلك ؛ وهو لهذا يعجب كيف يجوز أن يُشدَّ وثاقه إلى الأرض بخيوط واهية كهذه على كره منه ؟

وأحسست برغبة قوية في نفسى أن ألقى هذا الرجل لقاء آخر ، فقصدت في المساء إلى المكان المهجور الهادئ الذى لقيته فيه أول مرة ، ووقفت طويلاً أرقب من بعيد ، حتى رأيته يسرى في غير صوت بين الظلال كأنه الشبح ، إنك لا تخطئه من بعيد ، فالحمل الذى على كتفيه يميزه ، وله مشية خاصة يتأرجح فيها الجذع وتلتف الساقان .

وقفت في مكانى حتى رأيته يستقر في موضعه من الجدار الذى لم يتم بناؤه ، صعد على كومة وطيئة من هشيم الصخر ، ومسح جبهته بمنديل ، ومال مرتكزاً على ذراعه اليسرى ، فدنوت منه .

قلت : السماء الليلية أكثر غمماً ، والدنيا أشد ظلاماً من ليلة الأمس ؛ برغم وجود القمر .

قال - ولم يرتح لرؤيتى - : وماذا يصنع القمر في الدنيا إذا اسودَّت بظلامها وغمامها ؟ إن من أراد الضوء فضياً رائعاً خالصاً من شوائب الظلمة ، فليرتفع عن الأرض وغلافها حتى يجعل الغمام من دونه ، وعندئذ لا يكون ظلام ، لكن الإنسان مشدود إلى الأرض بأحمال وأثقال ؛ لا ، بل إنه لمشدود إليها بهذه الخيوط الواهية ؛ مشدود إليها بنفخات من هواء ، وإذن فلا رجاء له في ضوء أكثر مما قد يتسرب إليه خلال فتحات السحاب . العجيب في هذه الدنيا أنها بيع وشراء ، فلا بد أن تدفع لكل شيء ثمنه ! أتريد أن تمتد بك الحياة ؟ إذن فخذ من حولك هبةً من الهواء شريطة أن تردَّ مكانها هبةً مثلها ، أتريد أن تخلص من ظلام الأرض ليصفو لك الضوء ؟ إذن فاصعد إلى قمة هذا الجبل العالى حتى تتجاوز السحاب ، عندئذ تجد الضوء وقد صفا من الشوائب ، لكنك ستجد كذلك برودة الثلج .

قلت : وماذا يشقك من غمام السماء وظلمة الليل ؟ انظر إلى الدنيا بعين الفنان تر السماء الغائمة في مثل جبال السماء القمرية ، أليس ظلام الليل أحياناً أشد فتنة من ضوء النهار ؟ سل العاشقين يحييوك أيها أفعل في نفوسهم سحرًا ، الليل الوسنان في ستره ، أم النهار اليقظان في نشاطه وصحوه ؟ سل العابدين متى تصفوا لهم قلوبهم للعبادة ؟ سل المفكرين متى تهدأ لهم عقولهم للتأمل ؟ سل المُجَنّ متى يطيب المجون ؟ سل المتآمرين لماذا يدبّرون الأمر بينهم بليل ؟ . . فلماذا لا تلتمس بأخفى في كل شيء وجهه الجميل ؟ إن الذي ينقصك هو الخيال .

قال : الخيال الذي أهرب به من الواقع ؟ قلت : ليكون ذلك ، ولماذا تستعبد نفسك للواقع إذا أمكن العيش الهانئ في جو من الخيال ؟ أتدرى ماذا تكون المرأة الجميلة في « الواقع » ؟ إنها تكون كيسًا من الجلد محشوًا بالقدر والبلغم ومختلف السوائل والغضاريف ! أتدرى ماذا تكون الصورة الجميلة في « الواقع » ! إنها تكون خرقه من قماش صُبَّ عليها خليط من الأحمر والأصفر والأخضر أو ما شاء الله من صباغ ، واهضُر الوردة الجميلة بين أصابعك لترى ماذا عساها في « الواقع » أن تكون ؟ . . إن الذي ينقصك - كما قلت - هو الخيال ، الخيال الذي يجعل لك من المرأة شيئًا جميلًا ، ومن الصورة شيئًا جميلًا ، ومن الوردة شيئًا جميلًا ، ومن غمام السماء شيئًا جميلًا ، ومن ظلمة الليل شيئًا جميلًا ! لماذا تنظر إلى الأرض كما تفعل الديدان ، ولا تشخص ببصرك إلى السماء كما تصنع الآلهة ؟ لست أدري لماذا أخذنى الاهتمام بهذا « الأحذب » فامتلأت حرارة وأنا أبادله الحديث ؛ لقد أوحى إليّ عندئذ أن هذا « الأحذب » عليل النفس ،

مريض القلب ، كليل الحياة ، وأن قوة خفية تقتضيني أن أقوم فيه ما اعوج إذا استطعت إلى تقويمه من سبيل ، إنه عابس ولا بد أن يتسم ، يائس ولا بد أن ينبسط أمامه الأمل ، متشكك ولا بد له أن يؤمن ، أعماه « الواقع » ولا بد له أن يحاوز حدود الواقع بعين الخيال .

لكن « الأحذب » قد صاق - فيما يظهر - صدرًا بحديثي ، وأخذ يعتدل في جلسته مرة ، ويميل على هذه الذراع مرة وعلى تلك مرة . ويشيح بوجهه عني ، كأنه يريد أن يصرف الأذن عما أقول ، بيد أني لم أعد أنظر إلى موقفى منه نظرة التسلية والعبث ، فلا أقل من أن أستطلع بعض سره ، وأستخرج شيئًا من مكنون نفسه ، وسادت فترة قصيرة من سكون ، ونزل عن مكانه من الجدار ، وقال في صوت فيه تكلف وافتعال :

- أنا مضطر أن أعود وسينقطع بعودتى هذا الحديث الجميل .

قلت : الأرجح أن طريقنا واحد ولو إلى حين .

ولعله لم يطب نفسًا لهذه الصحبة الثقيلة في طريق عودته ، لكنى تجاهلت ما يريده لنفسه من عزلة الطريق ، وسرت إلى جانبه ، سرنا بخطوات بطيئة خفيفة ، لكن وقع أقدامنا على حصباء الرمل ومنثور الحجر ، كان له رنين في ذلك الركن الهادئ البعيد .

قلت مستأنفًا الحديث : نعم ، إن الذى ينقصك هو الخيال ، ينقصك مثل أعلى تعمل من أجله فينسيك الهدف مشاق الطريق .

قال - وقد ازداد ثاقلاً في خطاه - : أصابنى مرض الخيال وعلة المثل الأعلى منذ خمسة وعشرين عامًا ، ولبثت آثار المرض تتراكم ، حتى كان هذا التواء الذى تراه شائهاً فوق كاهلى . . . فى ذلك الماضى البعيد قلت لنفسى :

دع عنك الواقع وخشوته وغلظته وجلافته ، والعس لنفسك سُلماً في دنيا الخيال تصعد على درجاته إلى أجواز السماء ؛ إن صحبة الأصدقاء في لهوهم « واقع » فلا تأبه لها ، والمرأة « واقع » فلا تُلقِ بالك إليها ، والطعام والشراب « واقع » فلا تحفل بطعام أو شراب ، هذا الذى حولك كله « واقع » فاخرج من نطاقه ؛ وهناك في صومعة وقعتُ عليها في جوف الجبل ، أثرت العيش في كنف الخيال

ولبثت أعمر الصومعة بخيالٍ عاماً في إثر عام ، وعقدًا من السنين بعد عقد من السنين ، لم تكن الصومعة خالية في بصرى وسمعى ، كنت أرى فيها الخيال مجسماً حتى لأنسى أنه من خلق أوهامى ، أحدثه وأسمع لحديثه ، وأتملقه ويتسم في وجهى ، وظللت في صومعتى أعبد آلهة خيالى ، لا أشهد نور الشمس ، ولا أريد أن أشهده ، ولا أرتد إلى دنيا الناس والعمران ولا أريد أن أرتد إليها ، ولا أستنشق الهواء الطلق النقي ولا أريد أن أستنشقه . . . كنت على نقىض فاوست :

فقد اتفق الشيطان مع فاوست أن يمهل ردها من الزمن ، يعمل فيه فاوست ما يشاء ، شريطة أن يأتيه الشيطان بعد ذلك فيتقاضى أجر إمهاله ، وليس أجره بأقل من روح فاوست ؛ وكان فاوست عند أول اتفاقه مع الشيطان يظن أنه الكاسب في هذه الصفقة ، فإذا به من نفسه إذا ما تُرك له الحبل على الغارب عشرين سنة أو ثلاثين ؟ لكن السنين انقضت ، وصبر الشيطان جميل لا ينفد ، وجاء الشيطان ليستل من فاوست حياته ، وعندئذ فقط أدرك فاوست أنه خسر في اتفاقه مع الشيطان خسراناً مبيئاً ، إذ كيف يبيع روحه بعشرين عاماً أو ثلاثين ، مهما يكن ما يملأ هذه الأعوام ؟

وأما موقفى من شيطانى فعلى نقيض ذلك ؛ عقدتُ معه اتفاقاً أن أبيعهُ حياتى ردحاً من الزمن ، على أن يردّها إلىّ بعد ذلك خصبةً مليئةً قويةً ؛ وذهبتُ إلى صومعتى تلك ، لا أعرف فيها الحياة ولا أخالط الأحياء ؛ أعلل النفس طوال السنين بأن حياتى السلبية مردودة إلىّ بعد حين ، بعد أن تكون كل حبة فيها قد أنبتت مائة سنبله ، وفى كل سنبله مائة حبة ، فلما انقضى على غربى عهد طويل ، طلبت من الشيطان أن يني بوعده كما وفيت له بعهدى ؛ وفعل ، فإذا ما يعطينيه نفخات من هواء ، هى هذه الأنفاس أرددها فى صدرى ، ثم لا شيء غير ذلك ؛ وضحك منى الشيطان ضحكة قوية حسبتُ الأرض ترتجّ لها تحت قدمى ؛ وهاهنا ابتسمتُ ابتسامة من زالت عنه غشاوة الخيال لأول مرة ، وأبصَرَ حقيقة الواقع لأول مرة ، وقلت لنفسى : إذن أستريح بعد هذا العناء الطويل ، إن الصومعة التى عمّرها لى الخيال قد باتت خاوية إلا من أصداء أنفاسى .

لكن مضجعى لم يستقم تحت ظهري حين أردت الراحة ؛ لأن عهد الصومعة كان قد خلّف لى هذا الورم الأليم الذى تراه بارزاً عند كفى ، إنه ورم نسجته لى الأعوام طبقة فوق طبقة ، كما يفعل مَرّ الأعوام فى جذوع الشجر حين يرسم عليها حلقة وراء حلقة .

وكنا قد بلغنا العمران ، وأراد « الأحذب » أن ينصرف إلى سبيله ، فقلت له مودعاً ، إن لى معك حديثاً آخر .

٣٠

حسب صاحبي « الأحذب » حين افترقنا أنى أدبرت عنه كما أدبر عني ،

لكنى تعقبته لأرقبه وهو يلتمس لنفسه الطريق في زحمة الناس التماس الحبيى الذى يخشى أن تلتقى بعينه عينان ، إنه على وعى شديد بنفسه ؛ إن ذراعيه تحيرانه وتربكانه ، فأين يضعهما ؟ وذلك وحده دليل على حيرة نفسه وارتباكها ، ألا إن الدراعين لتخبرانك بمكنون النفس كما تخبرك العيون والشفاه ، إنه لا يمشى فى ضوء المصباح إذا وجد الظلام ، ولا يقصد إلى مزدحم الطريق إذا رأى الفضاء المهجور ، عيناه مصوبتان نحو الأرض دائماً ، وقدماه تحفان الأرض حقاً خفيفاً .

عبر الطريق فى موضع كثرفيه العابرون ، إنه فى العابرين بارز واضح ، فهو لا يفنى فى الزحام ، ولا يذوب فى الناس ، إنه فيهم كملقعة من الزيت صُبَّتْ فى قدح من الماء تحركها إلى أعلى وأسفل ، وإلى يمين وشمال ، فاتزال شيئاً متميزاً من الماء الذى حولها ، إنه فى أمواج الناس على طول الشارع لم يفقد معالمة ؛ أخذ يعلو على تلك الأمواج البشرية شيئاً ، أعنى أنه كان يظهر لى حيناً ويختفى حيناً آخر ، حتى انتهى إلى شارع هادئ متباعد المصاييح .

كان ظله مروعاً خفيفاً ، يقصر ويطول ، ثم يقصر ويطول ؛ هو الآن مطروح أمامه ، وهو الآن إلى جانب ، وهو الآن ممدود وراءه يتابعه ويلاحقه ، وهو فى كل أوضاعه أبعد ما يكون الظل عن صورة البشر ؛ وما هو إلا أن دخل « الأحذب » داراً ، بخطوات سريعة ، كأنه الأرنب المذعور يأوى إلى جحره ليستكن فيه آمناً من طراد الصائدين .

فوقفت بغتة ، ثم سرت مسرعاً نحو الباب الذى قذف « الأحذب » بنفسه فيه ، لم أر شيئاً هناك إلا مصباحاً كهربائياً خافت الضوء فى الركن الأعلى من بهو السلم ؛ إنه بناء عالٍ من ستة طوابق أو سبعة ، وحين صعدت بصرى فى لحظة

سريعة إلى أعلاه ، لم أر إلا نوافذ وشرفات ، أكثرها معتم وأقلها مضىء .
من عسى هذا « الأحذب » أن يكون ؟ أينطوى جنباه على سر دفين ، أم
أنه لا سر في الأمر ، وأن كل ما في جوفه قد برز وربما على ظهره ؟ لكنه شاذ
غريب بغير شك ، إنه قطعة مثورة وحدها ، والويل كل الويل ، ثم الخير كل
الخير ، من هذه القطع التي تنثرها عجلة الحياة بعيداً عن مركزها وإطارها ،
فتظل دائرة في فلك وحدها ؛ فمن هؤلاء يكون الثائرون الساخطون ، ومنهم
يكون العظماء المصلحون ، ويكون الأنبياء والأولياء ، ويكون المجرمون النوابغ
في إجرامهم ، ويكون الفنانون المبدعون في فنههم ؛ فما أقرب الشبه بين هؤلاء
جميعاً على بعد ما بينهم من تفاوت واختلاف ، كسيل الماء العرم ، هو الذي
يصلح الزرع ، وهو الذي يفسده ، على حسب ما يحيط به من ظروف .

و « الأحذب » - فيما يظهر لي - قطعة بشرية مثورة وحدها ، تدور في
فلك وحدها ، تُرى من ذا يكون وماذا يكون ؟ لقد بتُّ ليلتي أفكر فيه وأفرض
في أمره الفروض ، وعادني الشعور الخفي أن أصلح ما فسد ، فأقيم في هذا
المسكين ما التوى ، وأقوم ما مال وأعوج ؛ أو قلُّ إن حبي لاستطلاع أمره قد
غلبني ، فسترتُ نفسي وراء هذا الشعور الخفي ، وتذرعت بهذا السلاح ،
ومضيت عصر اليوم التالي إلى الدار التي دخلها « الأحذب » ليلة الأمس ،
مضيت لألوي على شيء ، وأخذت أسرع الخطو حتى لا يصرفني التردد عن غايي .
لم أجد عند الباب أحداً ، وتلفتُ هاهنا وهاهنا ، وتحركت خطوتين هنا
وخطوتين هناك ، ثم دخلت وصعدت الدرج مبطناً غاية الإبطاء ، شاخصاً
ببصرى إلى أعلى : الأبواب كلها مغلقة ؛ صعدت الدرج حتى نهايته ؛ ونهايته
سطح نظيف ؛ وقفت قليلاً وقلبي ينبض نبضاً شديداً من الصعود ومن الخوف

معًا ، الخوف من هذا البناء المهجور الذى لا يعمره إنس ولا جن ، لكنى رأيت الضوء منبعثا من نوافذه ليلة الأمس ، وهممتُ بالتزول ، لولا أنى بلفتة غريزية لويتُ عنقى ونظرت إلى نافذة مغلقة الزجاج فى ركن السطح ؛ إن وجهًا يطل من خلف الزجاج ، إنه هو « الأحذب » .

لم يعد بينى وبين كشف الغطاء إلا خطوات خطواتها نحو غرفة « الأحذب » ؛ وفتح لى الباب قبل أن أقرعه . . . إن روعى ليبدأ قليلا قليلا ؛ إن الخوف ليتزاح عنى إزاء هذا الوجه الباسم الذى فتح لى الباب ليتقبلنى مسرورا مُرحبا ، ليس الوجه العابس فى الطريق عابسا هنا ، والصدر الضيق على الجدار الذى لم يتم بناؤه رحيب واسع هنا ؛ ولولا نتوء الورم فوق ظهره لقلت إنه إنسان آخر ؛ لقد استدرّ وهو فى الطريق إشفاقى ، لكنه فى داره استثار حبنى ؛ إنه هاهنا يمزج فى حديثه الجذبة بالفكاهة ، ويقول النكتة فى إثر النكتة ، ويضحك من كل قلبه ؛ ألا سبحانك اللهم ، تضع الرجلين - بل تضع جمهورا من الرجال - فى إهاب واحد .

إن مشكلة « الهوية » التى تحير الفلاسفة لم تعد تحيرنى ، فالفلاسفة يصدعون رءوسهم تصديعا فى محاولة الجواب عن هذا السؤال ، كيف يحتفظ الشخص الواحد بهوية واحدة مع اختلاف ظروفه ؟ إنه يكون صحيحا ويكون مريضا ، ويكون طفلا ويكون رجلا ، ويكون شعبان ويكون جاثعا ، ويكون غضبان ويكون راضيا ، ويكون يقظان ويكون نائما ؛ ومع هذا الاختلاف الشديد الذى يطرأ على حالاته يظل إنسانا واحدا ؛ فما الذى فيه يخلع عليه تلك الوجدانية مع تعدد حالاته وأوضاعه ؟ كلا ، لم تعد تحيرنى المشكلة التى تحير الفلاسفة ، بعد أن رأيت « الأحذب » فى الطريق وفى داره ، فلا ووجدانية

هناك ؛ ليس الرجل رجلا واحدا ، ولكنه عدة رجال ، هو فى كل حالة رجل غير الرجل الذى يكونه فى الحالة الأخرى ؛ فمحال أن يكون « الأحذب » العابس الجاد المهموم الحزين الذى رأيته وتحدثت إليه وهو جالس على الجدار الذى لم يتم بناؤه ، هو نفسه « الأحذب » الضاحك المرح المرحّب بى وهو فى داره .

أدخلنى « الأحذب » ، فعبر بى ردهة لاحظت خلاءها من الأثاث تقريبا ، وانتهينا إلى غرفة هى مأواه ، فيها كل شىء : فيها السرير وصوان الملابس ومكتب ومكتبة ومنضدة ومقاعد ومراة ؛ أثاثها هزيل لكنه نظيف ، وتسدل على النافذة ستارة رقيقة فيها خروق ممزقة ؛ لكنك تشعر فى غرفته بالطمأنينة وراحة النفس ؛ وليست ديار الناس فى ذلك سواء ، فقد أزور الدار وأحس أثناء زيارتى أنى أتقلب على الشوك دون أن يكون بينى وبين صاحب الدار ما يدعوا إلى النفور ، ثم قد أزور الدار فينبسط صدرى وتطيب نفسى ، وأتمنى لو بقيت فيه اليوم كله ؛ وقد قلت ذلك لصاحبى « الأحذب » فور جلوسى على مقعده المريح ، الذى كان - فيما يظهر - جالسا عليه لتوّه ، لأن الحشية كانت ما تزال دافئة بحرارته .

قلت : إن النفس لتحس الطمأنينة فى غرفتك هذه ، والمنظر الذى يطالعك من نافذتك رائع جذاب .

قال : إذن لا أحسب الفجوة بين نفسينا عميقة كما يبدو للوهلة الأولى ؛ فقد أعجبك مأوى هاهنا ، كما أعجبك ملاذى الهادئ الذى ألوذ به خارج المدينة من صخب الحياة ؛ إن النفوس الإنسانية لتشعر بالتقارب والتداني فى حالات هدوئها ، حتى إذا ما عجز بها عجيبيج الحياة ألفتها متنافرة متعاركة ؛ لا عجب أن

يكون الناس جميعا سواء وهم نيام ، ثم يأتي الموت - وهو نوم طويل بغير آخر - فيسوي بينهم إلى الأبد .

وخشيت أن ينتقل صاحبي بذكر الموت إلى حالة من حالاته الكثيرة السوداء ، فغيرت موضوع الحديث . وجعلت موضوعه أقرب ما وقعت عليه يدي فوق المنضدة الصغيرة الوطيفة التي كانت أمام مقعدي .

قلت : ما هذه المكعبات الخشبية الملونة المصورة ؟

قال - وكان ورائي مشتغلا بإخراج الفناجين والأكواب من خزانة خشبية صغيرة في ركن غرفته - : تلك لعبة من لعب الأطفال اشتريتها لأهوها ؛ إنها مكعبات تُرَصُّ فتكوّن صوراً لنهاية لعددتها .

ودنا مني « الأحذب » وأشار بإصبعه إلى اللعبة وقد رص ما يقرب من نصفها ، فإذا هي صورة حصان عليه راكبه ، ولم يبق من الصورة إلا أرجل الحصان .

قلت : أحسبك كنت في سبيل إتمام الحصان بأرجله ؟

قال : هذا ما حُرِّثُ فيه ؛ حاولت عبثا منذ ساعة الغداء . فلم تستقم للحصان أرجل . حتى لقد مللت فوقفْتُ أنظرَ من نافذتي حين رأيتك قادما .

قلت : وما فائدة الحصان بغير أرجله ؟ إن راكبه المسكين سيظل مشلول الحركة حتى تتم لخصانه الأرجل فيسير .

هنا وضع « الأحذب » قدحين كانا في يده . وضعهما على ظهر مكتبه . وجلس ؛ إنه ساعتهذ هو نفسه « الأحذب » الذي رأيته هناك على الجدار ، وهو نفسه « الأحذب » الذي رأيته في الطريق . وليس هو « الأحذب » الذي تلقاني بالبشر والترحاب ؛ لقد عبس وجهه وتجهم ، ثم استرخى استرخاء مَن

فَقَدَّ القدرة على الوقوف والحركة ، وابتسم لكنها ابتسامة غير التي لقيني بها ،
فهى ابتسامة صاحب النفس المريضة المعبأة بالهموم ، ألا ما أسرع التغير في سماء
هذا الرجل : صفو في لحظة وغمام كثيف في اللحظة التي تليها .

قال : لعل ذلك بعينه هو ما أعجزني عن إقامة الحصان على قوائمه ؛ وإذن
فما أشبه جدَّ حياتي بلعبها ! كأنى بك يا صديقي قد أتيتني لتستطلع شيئاً من
أمرى ، فهذا هو أمرى قد انكشف لك في لحظة واحدة ؛ ففي هذا الحصان
المقعد تلخص قصة حياتي ؛ ولكل امرئ جواده ، ومن الجياد ما يستقيم على
قوائمه فيسرع الجرى ، ومنها ما تعوزه الأرجل فيقع ، وجوادى كسيح ،
فجسمه هنا وأرجله هناك ، لكن بصرى يقصر دون أن يلمس للأرجل مكانها
من البدن ، وليس النقص في الأجزاء ولكن النقص في المهارة التي تقيم
بناءها ؛ إن الذى يرى أحرف الهجاء أمامه ولا يستطيع أن ينشئ منها قصة أو
قصيدة يكون العجز فيه ولا يكون العيب في الأحرف .

قلت : دع عنك الآن هذا الحصان ولعبته ، وانظر ماذا أردت أن تضع في
هذين القلحين من شراب .

لكننى صممت أن أستطلع قصة « الأحذب » لعلى أردَّ هذا الحذب الذى
تورَّم به ظهره إلى عناصره .

الفصل الثاني

حصان من الحلوى

١

أخذت أحفر تحت هذه التُّبَّة الملتوية لأتبعها إلى جذورها العميقة الدفينة في تربة الأرض ، لعل بذلك أصيل الخيوط بين الأول والآخر ، بين البداية والنهاية ، بين البذرة والثمرة ، بين الجرثومة والمرض ، بين ظروف النشأة الأولى وهذا القتب فوق كتفي صديقنا الأحذب المسكين .

فربطت أواصر الصداقة بيني وبينه ، أزوره كلما واتنى الظروف ، ويأنس لزيارتي ولصحبي ، ولم تكن الصحبة إلا إلى ذلك الملاذ الهادئ ، خارج المدينة بعد الغروب ، وتركت الحديث بيني وبينه يجرى مجراه الطبيعي ليخرج لي بعض المعالم التي كنت أستند إليها في متابعة بحثي بعيداً عنه : فأين كان مولده ، وأين نشأ وترى ، ومن هما والداه ، ومن هم الذين أحاطوا به في مراحل حياته ؟ وكنت خلال ذلك كله أتلمس اللحظات التي ظننتها تكوّن من حياته معالمها . فليست اللحظات في حياة الإنسان كلّها سواء من حيث فعلها في توجيه الأحداث ، فتها ما قد يمضي ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بُعد الأثر وعمقه ما يظل يؤثر في مجرى الحياة إلى ختامها . وإن النظر إلى حياة إنسان بمجموعة أحداثها ، لكان النظر إلى مشهد طبيعي أو إلى صورة فنية ، فالعين لا تبدأ النظر من حافة الإطار اليمنى ثم تسير في خط أفقي مستقيم حتى تنتهي إلى حافة الإطار

اليسرى ، بل إنها لتقع أولاً على نقطة بارزة هنا أو هناك ، كشجرة على يمين الصورة أو جبل على يسارها أو قر ساطع في وسطها ، ثم من هذه النقطة ينساب البصر في مختلف الاتجاهات : فكأنما هذه النقطة البارزة ينبوع تفجرت منه بقية الأجزاء ، وهكذا يكون النظر إلى حياة إنسان بمجموعة أحداثها ، فعندئذ أيضاً يتجه الانتباه إلى لحظات بارزات ، كانت حاسمة في توجيهها ، ومن تلك اللحظات ينساب البصر إلى سهول تلك الحياة ووديانها .

ولم تكن لحظة الميلاد - بالنسبة لصاحبنا الأحذب - واحدة من لحظاته الحواسم ، فكأنما هي جزء من حياة غيره أكثر منها جزءاً من حياته ، إنه يحددها بشهادة الميلاد ، مفترضا الصدق فيمن كتبها ومن أملاها ، لأنه لا يملك في دخيلة نفسه دليلاً على صدقها أو على كذبها ، ولو احتكم إلى حياته الباطنية لما وجد فرقاً بين أن يكون قد عاش على ظهر الأرض خمسين عاماً أو خمسة آلاف عام ، فكل الشواهد التي يُستدلُّ بها على مدى ما قد عاشه من سنين ، شواهد خارجية ليس فيها شاهد باطنى واحد ، إن ذاكرته لا تقفل راجعة إلى ساعة ميلاده .

وإذن فالأمر كله مرهون بشهادة غيره ، فهكذا يقول الوالدان ، وهكذا تثبت دفاتر الحكومة .

٣

إن ساعة الميلاد الحقيقية هي أول ما تستطيع الذاكرة أن ترتد إليه ، ولقد جعلتُ « الأحذب » يكدُّ الذاكرة كدًّا راجعاً القهقري ، لعله يظفر بأولى لحظات خبرته الحية ، فوفقتُ به عند ليلة مظلمة شديدة الظلمة ، حين عاد به

أبوه من القاهرة إلى بلده في الريف ، وهو بلد يقع في شبال الدلتا بالقرب من البحر ، وكان المسافر إليه يركب القطار إلى أقرب محطة في البر الغربي من فرع دمياط ، ثم يستقل مركبا يعبره النيل إلى ضفته الشرقية منحرفا بعض الشيء إلى جنوب ، حتى إذا مارسا أمام القرية المطلة على النيل ، صعد جسرا ، وفي صعود صديقنا الأحذب ذلك الجسر مع أبيه في تلك الساعة المعتمة من جوف الليل ، كان الطفل - وهو عندئذ في الرابعة من عمره - يحمل ربطة فيها حصان من حلوى المولد النبوى ، اشتراه له أبوه أثناء الطريق ، صعد الصبي الجسر مع أبيه ، حلوا في يسراه وأبوه يجذبه من يمينه ، وكلاهما يتعثرون في الصعود وتنغرس قدماه في الحصى والتراب ، فقال له أبوه - وهما في طريق الصعود يتعثران ويلهثان - كأنما أراد بقوله أن يخفف من حدة الصمت ومن شدة المجهود : « أريد أن أراك رجلا عظيما » ، ولم يكذب ينطق بحرف الميم في آخر عبارته ، حتى سقط الصبي على وجهه ، فانفلتت يده اليمنى من قبضة أبيه ، وانفلتت ربطة الحلوى من يده اليسرى ، وتهشم ما فيها ، فأنهضه أبوه ، والتقط له الحلوى المهشمة التي كان غلافها الورقي قد تمزق من بعض جوانبه ، فتسرب شيء من التراب والحصى إلى داخل ، وتسرب شيء من الحلوى إلى خارج .

قصّ على « الأحذب » هذه القصة ، وأردف يقول : « لست أدري ما الذى دار في رأسى عندئذ ، لكننى حتى هذه الساعة لا أقرن الكثير الذى رجوته لنفسى أيام الصبا ، بالقليل الذى حققته منه في الواقع ، إلا وأذكر على الفور تلك الحادثة ، ترى هل كان هذا هو الحاطر الذى طرأ لى عندئذ - ولو بصورة مهمة غامضة - أعنى هذه المفارقة المؤسفة بين الأمل الذى عبر عنه والذى ، وهو رغبته في أن يرانى رجلا عظيما ، والخيبة العاجلة التى جاءت

كالإجابة الهازئة من قدر ساخر ، أقول : ترى هل كانت هذه المفارقة الحادة بين الرجاء المأمول والخيبة الواقعة هي البذرة الأولى التي منها انبثقت على مدى حياتي هذه الرغبة الملحة في الوصول ثم هذا الشعور القوي بأنني لم أصل ؟ »

قلت للأحدب : ليست هذه حالة خاصة بك أنت وحدك ، برغم هذه القصة التي قصصتها ، فن خصائص الطبيعة الإنسانية كلها هذا التطلع الذي يتشوّف وراء الكائن الفعلي المحصّل إلى ما هو غائب مجهول مرتقب ، نعم إن من خصائص الطبيعة الإنسانية كلها هذا القفز من المتحقق بالفعل إلى ما يجب أن يتحقق ، هذا القفز من الواقع إلى الممكن ، من المكسوب إلى المأمول ، فهذا التطلع من الإنسان ، تطلعا يجاوز به دائماً حدود الواقع إلى عالم الممكن ، هو الذي يدفع به من حالة النقص إلى حالة الكمال .

قال : لكنني مازلت أتساءل : لماذا كلما رأيت الفرق شاسعا بين ما رجوته لنفسى وبين ما حققته ، وثبت إلى ذاكرتي عبارة أبي في تلك الليلة التي طمست بظلامها معالم الأشياء على مرتقى الجسر ، مصحوبه بعثرتي التي عقرت وجهي وهشمت حلواي ؟

كنت عندئذ في زيارة « الأحدب » عصر يوم من أيام الجمعة ، ولما كانت نافذة غرفته مطلة تجاه الغرب ، فإن أشعة الشمس قد سبقتني إلى غرفته ، وفرشت له الأرض بمستطيل من ضوءها ، دخلها خلال الستارة الرقيقة فكان رمادى اللون إلا عند بقع صغيرة تقابل خروق الستارة ، وكان الشهر في أوائل الصيف ، فلم تكن حرارة الشمس من الضعف بحيث تحتمل الجلوس في مستطيل الضوء ، كما لم يكن في الغرفة إلا تلك النافذة الغربية فكان لا بد من تركها مفتوحة ، ولذلك فقد جلسنا على كرسيين متباعدين بعض الشيء ، يقع

مستطيل الضوء بينها ، فكان وهو يقصر على قصة الحصان المهشم ، يميل على كرسيه أحياناً ويشير بذراعيه ، فيحدث ظلاً على مستطيل الضوء كثيراً ما كان يتخذ أشكالاً غريبة ، حتى لقد جعلت أنصت إليه بنصف انتباهي ، وأتبع تلك الأشكال الغريبة بالنصف الآخر ، فالظل أحياناً على شكل بجمعة تمط عنقها الطويل ، وأحياناً أخرى على شكل أرنب مُقَمَّعٍ ، وأحياناً ثلاثة يصبح كالطائر الذي نشر جناحيه

ولعلّي قد تعمدت أن ألو بهذا الظل وأشكاله حتى لا أربكه بتركيز انتباهي كله فيما يقول ، فينطلق مرّ العبارة ، ناضحاً ذكرياته البعيدة من أعماق نفسه ، ولقد اعتقدت أنّي بهذه القصة الصغيرة التي رواها ، ووقعتُ على مفتاح شخصيته التي أردت فتح مغاليقها والكشف عن أسرارها .

كان عند « الأحذب » جهاز صغير يصنع فيه الشاي وهو في غرفته ، وهو إناء ذو قابس كهربائي ، يضع فيه الماء فلا يلبث أن يغلي بجمرة الكهرباء ، ولم يكده ينتهي من قصة الحصان ، حتى نهض فلأ الإناء من صنبور في البهو ، ووضع القابس في مقبسه من الحائط ، وراح يخرج فنجان الشاي من خزانتهما الصغيرة ، ومعها سائر الأدوات ، حتى إذا ما أعدّ كل شيء وجلس على مقعده ، نظر إلى فكأنما راعه صمتي وتصويب نظري إلى مستطيل الضوء لا أتحوّل عنه ، لأنني كنت لا أزل أراقب ظل الأحذب وهو يعبر الغرفة ، لأستخرج منه بنجالي كل ما استطعت من صنوف الحيوان .

ناولني فنجاناً ، وراح يقول استئنافاً لحديثه السابق : إني لأذكر الآن موقفاً آخر في طفولتي ، وكنت عندئذ في الخامسة من عمري ..
قلت في هدوء : وكيف عرفت أنك كنت في الخامسة ؟

قال وهو يتسم : إننى أعتمد فى تحديد مراحل عمرى بالنسبة إلى إلحداث الباكرة فى حياتى على المساكن التى سكناها ، فالحداث الفلانى قد حدث ونحن فى المنزل الفلانى ، والحداث الآخر قد حدث ونحن فى المنزل الفلانى . وهكذا ، تم أحدد تواريخ سكنانا فى هذا المنزل أو ذاك مستعينا بشواهد معينة من تاريخ أسرنا .

فقد كنا - وأنا فى نحو الخامسة - نسكن منزلا فى حى المنيرة بالقاهرة ، أذكره الآن جيدا ، وأذكر « خالتي أم محمد » - صاحبة المنزل وصديقة الأسرة - وهى تسكن منزلا على السطح ، وأمام منزلها مسطح كبير مفتوح إلى السماء ، فيه يُنشر الغسيل وفيه دكة خشبية كبيرة مشققة الألواح من لفحة الشمس ، ونحنها تربض سلحفاة كبيرة ، ولكم دخلت تحت هذه الدكة أمد ذراعى بين إقدام وإحجام حتى ألس ظهر السلحفاة لمسة خفيفه ثم أسرع خارجا وأنا أقهقه قهقهة الغازى المنتصر

وفى شقة من ذلك البناء كانت تسكن الأسرة وقد حدث ذات يوم أن زارنا رجلان من الأهل أو من الأصدقاء لا أدرى ، لكن أحدهما ما تزال صورة شاربيه عالقة بذاكرتى ، لا لكبر فيهما ، ولكن لاهتزاز فى أطرافها غريب كلما حرك الرجل شفتيه بالكلام أو بالضحك ، ودعانى أبى من الداخلى لأحى ، وكان قد حفظنى عن ظهر قلب ماذا أقول عند التحية وبماذا أرد التحية ، وكثيرا ما كنت أخطئ فألقى اللوم إما ساعتها أو على انفراد ، كما حدث يوما حين ناولنى أحدا أصدقائه شيئا قائلا : تفضل ، فأجبت بكلمة « العفو » وأعاد الرجل قوله « تفضل » وهو يضحك ، فأعدت جوابى بكلمة « العفو » ، فأمهلى أبى حتى انفرادى وأخذ يقرعنى على هذا الخلط المعيب الذى خلطت به كلمة « العفو »

بكلمة «متشكر» .

دعاني أتي يومئذ من داخل البيت لأحيي ذينك الرجلين ، وحييتهما بما حفظت من عبارات التحية .

فقال صاحب الشارب الراقص : هل تذهب إلى المدرسة ؟

قلت : نعم .

قال : انتهج اسمك .

قلت : رى اض : رياض .

قال : ما شاء الله

فأراد أتي أن يزيد الصورة جلاء ، وسألني سؤالاً في الحساب ، لكنني لم أسرع له بالجواب ، فضربنى بكتاب ضخم على رأسي ، فقال صاحب الشارب الراقص وهو يضحك : « أهكذا تضربه بالدنيا كلها على رأسه ؟ » ولم أفهم لهذه العبارة معنى ساعتئذ ، لكنني أذكر كيف عز على نفسي أن أضرب بالدنيا كلها على رأسي ، فانفجرت باكياً ، كما يحدث كثيراً للطفل أن يبكي مؤخرًا ، فقد يصاب ويحرج وهو لا يدري ، حتى إذا ما نبهوه أن دمائه تسيل ، أخذ في البكاء .. ودارت الأيام ، وجاء يوم كنت فيه تلميذاً بالمدرسة الابتدائية ، وتسلمت الأطلس الجغرافي بين ما تسلمته من الكتب أول العام الدراسي ، وأخذت أقلب صفحاته وأدير فيها البصر معجباً بألوانها ، فإذا جاري يهمس لي : « هذه هي الدنيا كلها في هذا الكتاب بين يديك » ، فعندئذ فقط فهمت الجملة التي قالها صاحب الشارب الراقص ، انفجرت باكياً لتلك الجملة ولم أفهمها ، فطلب مني والدي أن أكف عن البكاء ، ولما عجزت عن طاعته ، صفعني وأعاد لي أمره بأن أكف عن البكاء . ولست أدري الآن كيف استطعت

أن أقف البكاء، لكنى فعلت ، وأعاد والدى سؤاله الحسالى من جديد وأراد الجواب السريع ، لكنى كنت فى هذه المرة أعجز عن الجواب منى فى المرة الأولى ، فحملنى بين ذراعيه حملا ، وقذف بى خارج الغرفة كما يقذف اللاعب بالكرة ، وقال متجها نحو صاحب الشارب الراقص فى نفمة هادئة : لن يعيش لى ولد خائب ، فإما أن يفلح أو يموت .

كنت والأحذب يقص على هذه القصة الثانية ، أشخص له ببصرى ، وأتبع انفعالاته على وجهه ، والابتسامة الخفيفة لم تزل على شفتيه ، لكنه كان يروى ويمثل الأحداث بيديه وذراعيه ولفئات وجهه ، وفنجان الشاى فى يدى ، وفنجان الشاى فى يده ، فلا شربت ولا شرب ، حتى فرغ ، وضحكنا معاً ، وأخذنا نشرب لا أتكلم ولا يتكلم ، وأبصارنا مرسله خلال النافذة ، ووجهانا مبتسمان ، وكان مستطيل الضوء قد امتد حتى أخذ طرفه الداخلى يصعد على الجدار المقابل ، وزحزحنا كرسيينا قليلا لنكون فى الظل ، فبعدت المسافة بينى وبينه ، لا أدرى ماذا كان فى رأسه عندئذ ، وأما أنا فقد ازدددت يقينا أننى وقعت على المفتاح ، فها هو ذا رجل قد شدَّ بصره منذ الطفولة نحو الممكن لآنحو الواقع ، فكلما حدث واقع وتحقق ، توقع ماوراءه وهو يائس ، وكلما قصرت قدرته مرة دون بلوغ الممكن - ولا بد أن تقصر إذ « الممكن » - ماينفك يتراجع أفقه خطوة فخطوة إلى الوراء - تكونت على ظهره طبقة رقيقة من الهم ، ولبث الطبقات تتراكم على مر السنين ، فإذا هذا القتب الذى يحمله فوق ظهره مشحونا بهجوم حياته كلها لا يخفف منه مايصيبه من نجاح ، لأن عينيه لا تنظران أبداً إلى ما قد تحقق ، إنما تمتدان إلى ما لم يتحقق والذى كان من الممكن أن يكون .

كانت الشمس قد دنت من الغروب ، وزيارتى قد طالت عند الأحذب
أكثر مما قد عودته وتعودت ، لكنى وجدتها فرصة سانحة أن يستطرد فى ذكريات
طفولته ، فتذرعت بذريعة الشمس الغاربة ورغبى فى أن أرى الشفق من
سطحه ذاك الذى تقع فيه غرفته ، فسألته هلاً أذن لى فى أن أقف معه قليلاً
خارج الغرفة حتى نشهد غياب الشمس وراء الأفق ؟ وخرجنا معا من غرفته ،
فحانت منى التفاتة إلى جلدة كتاب ملقاة كما اتفق ، كتب عليها « رياض عطا »
فعرفت بذلك اسمه كاملاً ، إذ لم يتبرع هو قبل ذاك أن يذكر لى اسمه ولا طلب
منى أن يعرف اسمى ، كأنما نحن فكرتان مجردتان التقتا فى ذهن إنسان ، أو كأننا
شبحان من الأشباح التى تُذكر بنوعها لا بأفرادها التى تعينها الأسماء ، وحتى
تلك الساعة لم أكن قد عرفت ماذا يعمل هذا الأحذب ، وم يكسب قوته
وأين يقضى بياض نهاره .

وماكدنا نقف على السطح المكشوف متكئين على حافته التى تعلو إلى نصف
إنسان واقف ، حتى أثرت حديث طفولته من جديد ، حافزاً له أن ينطلق فى
ذكرياته ، بأن أخذت أمدح فيه هذه الذاكرة التى مازالت تعى حوادث كهذه
قد طال عليها الأمد ، مع أننى مهما كددتُ الذاكرة إلى ذلك العهد البعيد فما
تعود إلىّ بشيء ذى بال .

فأحس بشيء من الزهو بنفسه ، واستطرد يقول : إن من الأحداث التى
وقعت لى وأنا فى نحو الخامسة - وأستطيع تحديد هذه السن بتاريخ سكنائنا عند
مدخل درب الجاميز من ناحية قسم بوليس السيدة زينب - حادث سرقة ،
اشتركت فيه معى ابنة عمى - وكانت فى مثل سنى - فقد كان أبى وعمى

وأسرتهاها يسكنان شقة واحدة ، ولبناء حريصين على هذه المشاركة في السكن الواحد أعواماً طويلة ، وساعدتها ظروف الحياة على أن يتقلا معاً كلما لتقلا ، وأن يستقرا في بلد واحد كلما استقرت أحوالهم ، فبعد أن كان على ناصية الشارع والميدان يقال يرض ألكياس والجلوى على أن ينفذ رخامى سميك يتمد ما امتدت فتحة الدكان إلا بمنقذ بصغيراً على يمين المدخل ، ولو وقف للصغير ذوالأعوام الخمسة ملصقاً بجسده بالنضد الرخامى من جنبه الخارجى في الطريق ، لما رآه صاحب الدكان من داخل ، ثم لما رفع مثل هذا الضئى ذراعه ، ومد أصابعه وشيله على أطراف قديمه ، استطاع أن يمسك بكيسا لمن ألكياس الجلوى المخصوصة عند حافة النضد ، فيجذبه ولا يزال صاحب الدكان مخصصاً إذ لا أحسن الصغرى لاختيار اللحظة الملائمة ، فليس أدري كم مرة وقع مثل هذا الاختلاف ، ولكن المرة الواحدة التى أذكرها دكراً ناصعا ، قد كانت ذات صباح - ولابد أن قد كان الوقت صيفاً ، لأن خلفية الصورة التى أذكرها الآن مليئة برجال الشرطة وقاديسوا بهم لانهم البضلاء ، وقوا أو شائرين في حركة بطيئة عند مدخل قنم البوليس القويى من ذلك الدكان ، فها كلاباً فى تلك المرة تجذب الكيسين بأصابعها كلها ، كنا نفعلى حتى نزلت عليها ، لأن كل يد منها تمسك بواحد منا ، وقبضتاً على أنصاف قبضنا وأخذنا ترجأنا رجاً ، ونصعد بوجهينا إلى أعلى لنرى ما الخبر وكيف يحم ، هذا القضاء ، فلذا عينا تلفظان الشرير وشاربان يتران على شفة رطيفة من شدة الغضب ، وفى أحرف متقطعة من شدة الانفعال ، قال الرجل ، وهو صاحب الدكان ، إنه لبث أياماً طويلة يعجب بأى اليد خفية تخفى ألكياس جلواه ، حتى قبض علينا ملتبسين ، فأخذنا نستعطف للرجل ونعبد بالتمن ، فزاعمين أنه لم

يُشْبِقُ بِيْ تِلْكَ الْمَرْقَةِ مَرَاتٍ لِّمَا ضَيَّقَتْهُ ، وَأَنَا كَمَا نَأْخُذُ بِمَا نَأْخُذُهُ عَدَدُ تَدْرِيءِ
تِلْكَ سَرَقَةٍ ، فَأُطْلِقُ سِرَاسِخَةً مَتَوَعِّلَةً أَنْ يَلْبِغَ الْأَمْرُ بِلِيْ وَالْقَبِيْلَةِ وَقَدْ كَانَ يَتَنَا بِحُلُورِ
لِلْبَكَاةِ تَامٍ فَكَانَتْ الْبُرْقُ الْوَالِدِيَّةُ وَهِيَ الْخَرَجَانُ مِنَ الْبَيْتِ وَيَدْخُلَانِ فِيهِ .
رَبِّهِ . لَقَدْ قَصَى الْأَمْرَ حِزْلَتِ الصِّيَاقَةِ ! فَمَا لِفَرْقِ الْبَيْنِ أَنْ يَعْلَمَ أُنَى بِالْأَمْرِ وَبَيْنِ
الْمَوْتِ ؟ تَسَلَّطَتْ بِلِيْ الْبَيْتِ خَفِيَّةٌ كَأَنَّ الْقُلُوبَ وَزَحَفَتْ تَحْتَ السِّبْزِ بِحَيْثُ
قَبِعَتْ هُنَاكَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى سَاعَةٍ مَتَأَخَّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، كَلَفَتْ الشَّقَّةُ الَّتِي مَسَكْنَهَا
الْمُظْلَمَةُ ، وَكَانَتْ عُرْفَةُ الْخَرِيرِ لَأَشَدَّ ظِلَامًا ، ثُمَّ كَانَ مَا تَحْتَ السَّرِيرِ كَأَنَّ اللَّيْلِ
الْمُتَدَاوِلَ ، وَأَوْحَشَتْ بِلِيْ أَنْ قَدْ أَصْبَحْتُ مِنَ الْخَطَرِ بِلِيْ مَا مِنْ ، سَوَاءٌ كُنْتُ أَدْرِكُ
الْجِدَاءِ ، ثَابِتِيْ أَدْرِكُ الْبَيْنَ فِي مِثْقَلِ ذَلِكَ لَمْ أَتَعْرِ بِخَوْفٍ ، كَأَنَّمَا الطَّامَةُ قَدْ بَلَعَتْ هُنَا
بِالْمَلَاةِ بِخَتَامِهَا ، لَكِنِّي لَمْ أَلْمِضْ طَوِيلًا وَقَبْتُ خَفِيَّةً مَعْتُ أَصْوَاتِ الْمُتَحَدِّثِينَ فِي
غُرْفَتِ الدَّيْرِ وَفِي بَيْتِهِمَا مِنْ أَيْتِ وَأُمِّ ، إِلَى عَمِّ وَأَعُوذَةُ أَعْلَمُ ، يَسْأَلُونِي : أَيْنَ
رِيَاضِي ؟ ثُمَّ يَتَوَجَّهُونَ بِالسُّؤَالِ إِلَى أَيْتِ عَمِّي . مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ بَعْدَ مَرَّةٍ ، كَأَنَّمَا الْمَرَّةُ
الْوَحْدَةُ لَوِ الْمَرَّتَانِ لَا لَوِ كَيْفِيَّةٍ يَسْتَوْفِي الْإِلَهَ الْقَلْبُ كَانَ رِيَاضِي مَجْكَ فِي الصَّنَاحِ غَايِنِ
ذَهَبٍ ، فَتَجِيبُ أَيْتِ عَمِّي بِمُتَأَكَّلَةٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهَا السُّؤَالُ : تَرَكْتَهُ أَمَامَ
الْبَابِ فِي الشَّارِعِ بِيْ وَلَا أَدْرِي أَيْتِ ذَلِكَ شَيْئًا .
لَا يَتَنَالُ أَرَأَيْتَ أَذْكَرُ حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ ، أَذْكَرُ كَيْفَ أَخَذَ الْفَرْعُ يَزَادُ مِنْهُمْ شَيْئًا
فَشَيْئًا ، فَتَارَةً تَسْكُتُ الْأَصْوَاتُ كُلُّهَا وَتَحُلُو الدَّارَ مِنْ سَاكِنِيهَا جَمِيعًا ، الْأَنْهَى
مُخْرَجُونَ يَلْبَحُونَ عَمِّي فِي مِثْقَلِ كُلِّ يَذْهَبُ فِي طَرِيقٍ ، وَتَارَةً تَعُودُ الدَّوَارُ فَتَعُودُ
بِأَصْوَاتِهِمْ يَتَسَاءَلُونَ فِي الْفَرْعِ جَارِعِينَ ، وَجَاءَ اللَّيْلِ وَاشْتَدَّتْ عِزَّتُهُ وَاشْتَدَّتْ مَعَهَا
لِخَوْفِهِمْ شَيْئًا حَتَّى لَشَاءَ اللَّهُ الذَّرَاعُ أَنْ تَمْتَدَّ تَحْتَ السَّرِيرِ لِيَتَجَرَّ قَفْصَةً صَغِيرًا لِحُزُونًا
بِخَاتَمِهَا ، وَرَأَيْتُ الذَّرَاجَ الْمُبْدُودَةَ تَتَحَسَّسُ حَتَّى أَجَمَّتْ رَحْوَكَةً خَفِيَّةً ، هِيَ

حركة جسمى يزحزح نفسه قليلا إلى ناحية الجدار ، فرفعت الذراع ملاءة السرير المدلاة ، وإذا بالشارد الضال محتبىء هناك فى كهف ! فصرخت صاحبة الذراع - ولا أذكر من هى - صرخة امتزجت فيها الفرحة بالدهشة بالترحيب بالوعيد بكل العواطف الإنسانية حين تتمزج فى خليط واحد ، وأخرجت من مكنى جرأ إلى البهو ، يسألوننى ولا أجيب ، وأخيرا جاء أبى من دورة بمخه عنى ، فإذا هو يلقانى فيدهش فيسأل ، ولا جواب إلى هذه الساعة .

وضحك الأحذب ضحكة صافية من كل شوائب السخرية التى كثيرا ما يمزج بها ضحكاته ، وقال : أحسب أن صاحب الدكان لم يقل شيئا لوالدينا ، وأن ابنة العم كتمت أمرها وأمرى ، فلم يزد أهلى عندئذ على أن أضافوا هذا الفصل « إلى فصول أخرى كانوا يحصونها على ولم أكن أدرى من أمرها شيئا ، مما كانوا يتخذونه دليلا على زعمهم عنى ثبت عندهم ورسخ ، وهو أنى « عبط » . وهاهو ذا شاهد على « عبطى » جديد ، فكان مما يتندرون به دائما أنى وأنا صغير - الظاهر أن سن الخامسة عندهم كانت سنا كبيرة - كنت آخذ منهم خمسة القروش أو عشرة القروش ، لأشتري لهم شيئا من الطريق ، فأغيب عنهم قليلا ثم أعود لأقول : لقد أكل الحمار قطعة النقود ، فيذهب منهم ذاهب ليجد قطعة النقود موضوعة فى فجوة كانت بين أحجار الحائط عند مدخل البيت .

فرغ رياض عطا من ذكرياته ، وهو منبسط النفس ، منشرج الصدر ، معتدل القامة ، حتى كدت لا أرى على ظهره قنبا ، وكأنما النشوة التى شاعت فى أساريه قد قلت من عمره فجأة عشرة أعوام كاملة ، وكانت الشمس قد غابت وبقايا الشفق القرمزى منتثرة فى الأفق ، حين حييته وانصرفت إلى مدخل

الدرج ، ونزلت أنحسس الطريق بقدمى درجة درجة حتى كنت فى الطريق ، أسير الهوينا من عمق انشغالى بالأحذب وقصته .

أى مفتاح تريد لشخصيته أجلى وأوضح من هذا الذى ذكره الآن ؟ إن اختفاه فى الظلام اتقاء لشر مرتقب ، ثم إرهاف الحس ليتتبع مجرى الحوادث من حوله دون أن يغادر مخبأه ، فيها محور حياته كلها : انطواء من ناحية ، وتسلل بالسمع وبالبصر فى الخفاء إلى ما يدور فى العالم من وقائع وأحداث من ناحية أخرى ، إنه كمن يريد أن ينظر إلى العالم من ثقب الباب ، يريد أن يرى ولا يرى ، إنه ليخيل إلى أن شخصيته نسيج من ثلاثة خيوط ، يأس أكثر من الرجاء ، وانطواء أكثر من الظهور ، ورغبة فى إقامة البرهان على قدراته لمحو بها تهمة « العبط » التى اتهموه بها وهو صغير ، أما اليأس فقد كانت بداية خيطه حادثة الحصان المهشم ، وهى الحادثة التى تلاحق فيها الأمل والخيبة تلاحقا مباشرا ، وأما الانطواء فقد كانت بداية خيطه حادثة كيس الحلوى حين أحس الطمأنينة فى مخبئه تحت السرير ، وأما تهمة « العبط » فقد بدأت قبل أن تعى ذاكرته أولى الحوادث التى كانت تسوغها .

وبالإضافة إلى هذه الأضواء التى بدأت تكشف لى عن سره الدفين ، فكأنما انفتحت لى فى السماء طاقة ليلة القدر حين نظر إلى بعين فيها النفاذ وفيها طيبة القلب ، وقال مبتسما :

كأنى بك تريد عنى مزيدا من علم ١٩ ونهض بحركة سريعة واستخرج لى من خزانة ملابسه كراسه ممزقة وقال : هاك مذكرات كنت كتبتها من سنين وهممت بتعزيقها . ثم عدت فأبقيت على ما بقى منها ، فلعلها تشفى منك غليلاً .

الفصل الثالث

أطلال دوارس

أجدت كراسة المذكرات في هبة شديدة ، لأنني اعتقدت أنني واقع فيها على كبر تمن . في صفحاتها سأشاهد الأحديب : وجهها لوجه ، فيعيني المشقة البحث والتفتيت ، ولكني وجدت بها ممزقة منقوصة الصفحات مطموسة الفقرات ، مما أشك في أن كاتبها ربما أحسن بعبث الجهد في الكتابة عن نفسه ، فكتب ما يكتب ثم هم بتمزيقه ، كما يفعل كثير من الأدباء والشعراء حينما يقرؤون حيواتهم الفانية بالأبدية فيروها . أقل شأنًا من أن تشغل الوقت بالكتابة عنها .
ومهما تكن الحال فقد أسرع العود إلى منزلي في تلك الليلة ، فأخذ الصبر متوقًا إلى استطلاع المشرقات التي بقيت مما كتبه الأحديب ، ولم أتم إحقى أثبت عليها . تمحيصًا لوصفًا لما يمكن ضيمه في أجرائها ، وهأنذا أثبت ما يظفرت به من فقرات مرتبة . بحسب ترقيم الصفحات
ليست لحظات الزمن في حياة الإنسان سواسية كلها من حيث قوتها في توجيه الأحداث ، وأثرها في تكوين الشخصية وتشكيلها ، فهنا ما قد رمى ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بعد الأثر وعمقه . ما يظل يؤثر في مجرى الحياة إلى ختامها ، ولا أعجب أن نجى حيوات الأفراد متفاوتة الوزن والقيمة ، متباينة الحصوة والتمر . فهنا ما تتنازع فيه اللحظات على وتيرة واحدة . حتى

لكنها في نهاية الأمر لحظة واحدة مكررة لمعادة ، فضلاً عما تتصف به هذه اللحظة الواحدة من خواها . ولذلك فهي حياة تمضي وكأنها لم تكن شيئاً ، ولكن منها كذلك حياة تحي لحظاتها ثقلاً بأحلامها ، فتمضي تاركة وراءها أثراً يبقى على وجه الدهر أمداً طويلاً ، وبأمثال هذه اللحظات الحبالى تصعب الحصارايت وتبى .

ولئن نظرنا إلى حياة مجموعة أحداثها . لكالمنظر إلى صورة فنية لا يسير عليها البصر في لحظة مستقيم بالثامن إحافة الإطار هنا إلى حافة الإطار هناك ، بل إنها ليقع أول ما يقع على نقطة مركزية فيها ، كشجرة قارعة على يمينها ، أو قبة شاذجة على يسارها ، أو بقعة لونية في أى موضع منها تلفت النظر إليها لتكون له نقطة ابتداء . ثم يتلأبها المنظر في مختلف الاتجاهات ، عائداً آناً بعد آت إلى نقطة البدء ، وهكذا هذه النقطة المركزية ينبوع تفجرت منه سيل من البقايا . وكذلك قل عند النظر إلى حياة فرد من الأفراد بمجموعه أحداثها . فهناك كذلك يتجه الانتباه إلى لحظات أمهات كالمحاسبة التي توجه صاحب تلك الحياة .

فأما تلك اللحظات الأمهات في حياتي ؟
ليس منها ساعة الميلاد ، لأن تلك اللحظة جزء من حياة سواى أكثر منها جزءاً من حياتي . فقد فاضت على ولم أرد لها . ولم يكن لي خيلة في إلغائها أو في إرجائها أو في تعزيزها ، إلى أحدها بشهادة الميلاد . مفترضا صدق أولئك الذين أملوها والذين كتبوها لأنني لا أملك في دخيلة نفسي شاهداً على صدقها أو على كذبها ، إذ لو احتججت إلى حياتي من باطل لما وجدت فرقاً بين أن تكون قد عشت على ظهر الدنيا خمسين عاماً أو خمسة آلاف عام ، بكل الدلائل التي يستدل بها على مدى ماعشته من بسين ، دلائل خارجية بمعنى ما .

وليس فيها شاهد باطنى واحد ، لأننى إذا ركنْتُ فى الشهادة على ما تسجله الذاكرة ، ألفت الذاكرة لا تقفل راجعة إلى ساعة الميلاد ، وقصاراها أن ترتد إلى السنوات الأولى بعد الميلاد ثم يكتنف الضباب كل شيء فيطمسه ، وإذن فالأمر كله - بالنسبة إلى ساعة ميلادى - مرهون بشهادة غيرى ، فهكذا يقول الوالدان ، وهكذا تسجل دفاتر الحكومة ، أليس عجيبا بعد هذا كله أن يمتنى إنسان لو استطاع أن يمدَّ له فى الأجل مائة أو مائتين أو ألفا من السنين ؟ إنه لا يحمل فى جوفه دليلا على أنه لم يعيش هذا الأمد الذى يتمناه لنفسه ، لو كان متوحداً معزولاً فلم يجد أحداً من حوله يروى له نبأ مولده ونشأته الأولى ، لما كان فى وسعه أن يعلم متى ولد وكم عاش .

لا ، ليست لحظة ميلادى من اللحظات الأمهات التى أعنيها ، لأننى لا أعلم عنها شيئا من باطن نفسى ، وكل علمى بها آت من سواى ، فهى إذن أقرب إلى أن تكون جزءا من حياتى ، فى أول صفحة مقروءة ، بعد عدة صفحات ممحوة لاتبين ، قرأت العبارة الآتية :

من بين ما يروونه لى أنى ولدت فى منزل من قرية ، زرتة فوجدته بيتا نصفه الأسفل من حجر ونصفه الأعلى من قش وطين ، لكنهم إذ يحكون لى أنى فى هذه الغرفة التحتانية المعتمة ولدت ، وفى تلك الغرفة الفوقانية المضيئة ، خُتنت ، أحس كما لو كانوا يحكون لى تاريخ طفل لا شأن لى به الآن ، فليس فى جسدى اليوم خلية واحدة من خلاياه التى ولد بها ، ولم تكن فى رأسه عند ولادته فكرة واحدة مما هو فى رأسى اليوم .

إنه لوهم غريب هذا الوهم الذى يوهم الإنسان باتصال شخصه من لحظة الميلاد إلى لحظته الراهنة ، نعم إنها وسيلة نافعة لغيرى من الناس أن يعلمونى فردا

واحدًا متصل الحياة ، بدأ في اللحظة الفلانية ولبث ينتقل هنا وهناك حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن ، أقول إنها وسيلة نافعة للناس لكي يسهل عليهم عدُّ الأفراد عند الإحصاء ، ولكن ما لي أنا وما ينفع الناس عند العدِّ والحساب ؟ المرجع عندي هو خبرتي كما أحيها وإعياها ، وليس ذلك الطفل الذي يروون لي عن زمان مولده ومكانه جزءًا من تلك الخبرة الحية الواعية ثم استقامت معي صفحات الكرامة ، فقرأت فيها ما يلي :

٢

العجيب أني حينما أعود بالذاكرة إلى سنى الطفولة الأولى ، فسرعان ما أصطدم بشخصية أبي تملأ مسرح الحوادث ، ولكني مها حاولت فلا أعثُر على صورة أُمي عندئذ ، فأين كانت ؟ هل كانت من الخفاء والانطواء بحيث تتمحى من صفحة الذاكرة فلا يسمع لها صوت ولا يظهر لها أثر ؟ والحق أن اختلاف الخصال كان بعيدًا بين أبي وأُمي ، فهو منبسط لا يكاد يخفى من نفسه شيئًا ، وهي منطوية لا تكاد تظهر من نفسها شيئًا ، هو لا يخشى الناس ولا يفر منهم ، وهي تخشاهم وتفر ، هو حريص على إثبات وجوده وهي أحرص على إنكار وجودها ، هو لا يضحى بنفسه إلا قليلًا ، وهي تضحى بنفسها بحيث لا تُبقي لنفسها إلا قليلًا ، يغلب عليه المرح الصاخب إلا في ساعات قليلة تراه قد سكن وكأنما هو غارق في فكر عميق ، ويغلب عليها الهدوء الصامت في غير جهامة وعبوس ، إلا في ساعات قليلة تراها قد أخذت تصبح زاعقة في هذا أو في هذه ، كأنما تُنفس عن طاقة مكبوتة ، كلاهما يتعبد ويؤدى الشعائر كلها ، لكنني طالما أحسست أن تعبده موجات على السطح ،

وأما تعبدُها فخفقات من القلب ، يثورُ على الناس فتدته ملتصبة لهم الأعداء ،
 حتى أطلق عليها أبى اسم « الهلباوى » -مبشراً بهذا إلى نهوضها للدفاع دائماً- وأما
 هي فإذا ثارت على أحد من الناس فإنه يُلْفَخ لها في النار لتزاده اشتعالاً . نعم
 قد كان اختلاف الخصال فيها بعيد المدى ، ولكن أهل بلخ ما بينهما من وحدة
 التاب أن حفظت ذاكرتي كثيراً عن أبى وأوشكت ألا تحفظ شيئاً عن أمى ؟ إنه
 مهما تكن حقيقة الأمر ، فيقيني هو لى عن أبى . أخذت الذكاء وعن أمى أخذت
 الخلق ، عه أخذت النفس القلقة الطامعة في عجز ، وعنها أخذت الرغبة في
 الحفى عن قاعة ورضى ، ومن مزج النقيضين وقع الصراع .

.....

..... التشاؤم والانطواء صفتان في حياتي بباررتان ، فمن شأن المتشاؤم
 اعتقاده بأن نتائج الأشياء وأواخر الأحداث عبث كلها في عبث ، اعتقاده بأن
 الحياة عملية معقدة من جمع وطرح وضرب وقسمة ، فيها أعداد ضخمة وفيها
 كسور ، وفيها ربح وفيها خسارة ، لكن الناتج النهائي صفر دائماً ، لأن الناتج
 النهائي عدم محتوم ، إنه سيجى اليوم الذى تبرد فيه الشمس . وعندئذ يتعادل
 حرارة الكون شمساً وأرضياً ، وعندئذ تكف الأرض عن دورانها ويسكن كل
 شيء في مكانه ، فلا ثماء ولا دثور ، ولا حياة ولا موت ، ولا ليل ولا نهار ،
 ولا صيف ولا شتاء ، ولا سريح ولا مطر ، فأين عندئذ يكون أفراد من الناس
 بكل ما قد بذل من جهود وما قد سحقت من عجاج ؟
 وهكذا تزانى أنظر إلى الأشياء وإلى الأحياء وإلى المواقف وإلى الحوادث ،
 ولكنها نظرة لا تتمتع عندى جهاد الحياة ولا تحول دون السعى نحو التقدم ،
 بنفسى وبغيرى عن الناس ، برغم كونى أحسن إلى أعماق نفسى أنه جهاد وأنه

سعى تعليمها ضرورة الحياة. ما داريت الحياة قائمة ، وأما الحياة نفسها فهي كما قال المعري : عبت ، لكنني لا أعجبها ، كما يعجبها المعري من راجب في أرباد من ذلك العت « لا لأنني رأيت أن « الملعونات » شأنها شأن للعقل في كونها من صميم الحياة ، ولها ، فليس من حق العقل أن تكون لها وجوب الكلمة فيها . يعمل وما لا يعمل ، لأن « للرعبة » اللا عقلية مجالا ، وها هو ذا المعري قد أملى عليه بمقلد أية الحياة عتيد كلها . وأني إنما يعجب من راجب في أرباد من ذلك العت ، فهل كيف المعري نفسه عن « الرعية » في « الرقاد » ؟
على أن النظر في التشابه ههنا أكثر مما يقتضيه أن أسير إلى استحضار المبدأ الأسود أمام ذهني كلما ملو مخاطر نفسيه الانقيص ، فأمور أخرى . أنظر إلى المواق الجميلة فأقول : ولكن الجوفها يحمل العتق ، وأنظر إلى الطير الصاعدة فأقول : إنه لا بد بعد صغور هابط . واختصاراً : فإني أنظر إلى الكلى الماء ملي ، إلى بصفه فأقول : لكنه كذلك فارغ . بصفه الآخر ، وهي ريتين شوك نظرة معوقة لصاحبتها في ركوب الحياة ، لكنها هي نظرة ،
وأما لفظ الوالي فهي ثابت . أن يرى منه الوالي بمقدار ما أخيه في باطن . لأن فيما يراه مني الرائي تكليفا وتصنعا قد تخفى إن إلا على الخنزير بطائع الناس ، إنني كليل عديت إلى دارى بعد عمل اليوم . أجسست . وإلا أغلق الباب من دوني . بنشوة العائلة إلى مسكنه . بعد أن تعرض لأحوال الغاية . ولست أعرف كيف يحس الأرنب المطارد حين يلوذ بمحطه ، لكنني كلما عديت إلى ادارى بعد عمل اليوم . ارتسمت في ذهني صورة الأرنب راجف ، عادت إليه الطبلية بعد أن لاخ بتأواه ، إنني لأخاف الخروج من مكاني كما يخاف العليل برثبه أن تعرض نفسه للفتحة البرد
البريد

وقد أتشجع فأواجه الناس ، لكننى وحدى أعلمُ الناس بما يرتجف من نفسى عندئذ ، فمثل هذه الشجاعة الظاهرة كثيراً ما تكون خجلاً معكوساً ، قل إنه ضعف ، وقل إنه مرض ، لكن هو الواقع على حقيقته - ومرة أخرى أقول إنها طبيعة معوقة لصاحبها عن السير السريع فى ركب الحياة ، لكنها هى طبيعتى .

ماذا تظننى أسرح إليه حين أسترسل فى أحلام يقظتى ، لا أقول مرة فى الشهر ، ولا مرة فى الأسبوع ، بل أقول مرة أو عدة مرات كل يوم ؟ إننى فى أحلام يقظتى أسرح باحثاً عن مكان ملائم ألوذ به لأعيش هناك فى عزلة الرهبان : هل أختبئ فى غرفة من مكان مجهول على شاطئ البحر - لأنى أضيق بالحر ضيقاً شديداً - ؟ أو هل يكون مخبئى فى موضع من الصحراء ؟ ولكن أين ؟ أأكون فى دير من أديرة الرهبان النصارى ، وهل يجوز يأتى للمسلم أن يعيش مع رهبان المسيحية فى أديرتهم دون أن يشأب إسلامه بشائبة ؟ ... صور من هذا القبيل تتلاحق ، وأظل فى كل صورة منها أعيش مع الخيال برهة لأحسن حسناتها وعيوبها قبل أن أنتقل إلى الصورة التى تليها - لكنها أحلام يقظة لا ألبث بعدها أن أمارس عملى كأننى مقبل على الحياة مع المقبلين .

إنه لا تناقض بين أن يميل المرء بوجدانه إلى شىء ، وأن يخضعه بعد ذلك لتحليل العقل فلا يجد على ما كان الوجدان قد صورته ، وعلى ذلك فلا تناقض بين أن أختار لنفسى - بالوجدان - أن أعيش منطقياً على ذاتى ، غاضاً نظرى عن الدنيا التى حولى ، وبين أن أرى بعقل بعدئذ أن دفعة الحياة تقتضى أن نخرج من ذواتنا إلى حيث الأشياء المادية المحسوسة ، فكأنما أريد الحالة الوجدانية الأولى لنفسى ، وأريد الحياة العقلية الثانية للناس .

هأنذا أشهد الله والناس أنى ما قرأت مرة عن المتصوفة فى صدورهم عن عرض الحياة الدنيا ، وفى ازدهارهم لشهوات الجسد وإشباعها ، إلا ووجدت لهم فى أغوار نفسى صدى عميقا ، كأن هذه النفس قد أعدت وهيت لمثل هذه الحياة العزوف ، ومع ذلك فانى أتمنى أى شىء لقومى إلا أن يسود فيهم العزوف عن تيار الحياة الحسية المادية العملية العقلية العلمية ، التى تعنى كل العناية بتطبيقات العلوم على الزراعة والصناعة وباصطناع القوة المادية فى شتى مظاهرها - وهكذا ترى وجدانى على هوى وعقلى على هوى آخر ، ولا تناقض بينهما ما داما يحيثان على تعاقب .

٤

... .. إننى حتى الخامسة من عمرى لم أكن - فيما تعيه الذاكرة - قد شعرت بأنى عضو من أسرة ، تربطنى بأفرادها علاقات تختلف باختلاف موافقى من أفرادها ، فكلما تذكرت نفسى فى الخامسة أو قبلها ، تذكرت كيانا مستقلا بذاته ، يرتبط بغيره من الأفراد ارتباطا خارجيا لا ارتباطا باطنيا .

أما حين أنتقل بالذاكرة إلى عامى السادس وعامى السابع ، فإننى أتذكر على الفور أننى جزء من جماعة ، فقد كان أبى قبل ذلك هو الشخص « الآخر » الوحيد الذى يكون مع وجودى محورا أدور حوله أو أسير بإزائه عن خوف أو عن رضى ، أما الآن - فى العام السادس وما بعده - فأمى قد أخذت تظهر بوضوح ، وكذلك أخى ، وكذلك عمى وامرأة عمى وأبناء عمى ، وكذلك نفر من ذوى القرى كانوا يعاودون زيارة بيتنا زيارة تقصر حيننا ، وتدوم عدة أيام حيناً آخر .

١٠٠ وما يعجز الفرد المحركة على التحاقها هذا بين المخلّفين الملتصقين به في حلقة الكائنات
 المفردة ، وكل حلقة الكائن الاجتماعي ، اشتغالها اللائق عنده من بليت إلى بليت ،
 لقد انتقلت الأثرية إلى الأثرية ، والأثرية إلى الأثرية ، ذلك الحين مصلها إلى وعيني ومن أيتبعها
 انتقلت إلى المستكن الآخر ، في حارة الساجرة ، أنزلنا كين يسمى بهذا الاسم حينئذ
 بالقرية من مسجد السيد رقيب ، لأن القاهرة أقدم بلد في يومها من
 أسسها ، فالتفت أشوار مع السيل لنا كان يغلب في الحواري ، لنت
 الأثرية إلى مستكن آخر وفي هذا المستكن العتيق تحدثت الروابط بيني وبين
 أبي - وقد كانت لها بدايات سابقة - وبين وبين أبي ، وبين وبين أبي ، وبين وبين أبي
 خاصة ، فأول مرة أشعر بوحود أبي معي ، تحميني دون أن تقتضي مقابل
 هذه الحياة خوفاً ، فلم أكن أبدا لأعشى ناسها معها يكن ما اقترفته جسما ،
 فذلك شرعاً صراخها في معاملتي ضريحاً مقروناً بالمشاور جولة ، لكن هذا كله
 فيها كان كالجو الذي يطعم في السيل ، على حياتها بدورها إلى شاطئ الأمان
 ولا ينداء بالقرية ، ولقد لبثت هذا هو المقادير الواضحة بيني ، علاقتي بأبي
 وعلاقتي بأبي - كلامي يخجل ، فكلية له صوتها على الوقوع مقابل حياتها فرغاً منه
 وخشعة لأبيه ربما كان يستعيد أوتار له في الحال لفتاة له

الأمر ، فإذا سئل أى منا عن الخطأ وقع : من فعل هذا ؟ أجاب : لا أعرف ،
وتكون النتيجة دائما أن يُضربَ كلانا ، فقد كان أخى معرماً بكتشط قطع
الأثاث بالمبراة ، لا يزدعه عن فعل ذلك توعده ولا وعيد ، لكنه كلما كتط ،
وسئلت : من ؟ أجبت : لا أعرف ، وكذلك يحدث مرة أن اشتروا له معطفا
جديدا ولم يشتروا له نظيره لجهة معطى ، فقصصت معطى بالمقصين شرائط
شرائط ، حتى أرغمتهم على شراء معطف آخر ، وسئلت : من ؟ وكان
الجواب من كليهما : لا أعرف . فقال العقاص كلاما من على السواء . على الرغم من
أنهم يعلمون أنهم العلم أنه هو كاشط الأثاث ، وأنى أنا الذى قصص المعطف .
« هكذا تآرذنا على الخير وعلى الشر منذ تلك السن البعيدة ، كما يتآزر
المعرضون لخطر مشترك » . وتلازمنا قياما وقعودا ومشيا وجريا وخروجا وزجوعا
ولعبا وجدا ، حتى تلازم اسمائنا على الأفوام ، فلا ينطق أحد باسم أحدنا غير
مقرون باسم الآخر ، يقال « رياض وعماذ » - لا يفصل شق فيه عن شق
: إلا إذا انودى أحدنا بحرقة النداء .

... ولعل حارة السنانجرة التى يسكنها عندئذ أن تكون الحارة الوحيدة فى حياتنا
التي نزلنا بها للعب مع أطفال الجيران ، وحتى عندئذ فقليل ما فعلنا ، ومن
طريف ما أدكوه فى هذا الضيق أن أفراد الأسرة يجتمعون قد ذهبوا البعض بشئهم
ذات عصر ، وتركوا معنا مفتاح البيت ، على أن لعب فى الحارة مع الأولاد إلى
أن يعودوا ، ولست أدري أى فكرة مجنونة اظافت برأسنا عندئذ ، أن نقيس
مقدار شجاعتنا بأن نعزى جسدنا ونسيره هكذا إلى مواجهة الأولاد لرى ماذا فى
وسعهم . أن يصنعوا ، لكننا وجدنا من سيخض بلهم عالم مختلله ، فقصصنا أن
نلازم العدد الملائنا ، ونسخت عن المفاخر فلما المفاخر تفقود ، فوقعنا

بين نارين : حملة السخرية التى أخذت تشتد كلما ازددنا أمامها ضعفا ، والقلق الشديد المهموم المغموم على هذا المفتاح الضائع ، وربما كان ذلك من أول الدروس التى لقتنا إياها الحياة الاجتماعية فيما ينبغى أن تكون عليه علاقة الفرد بالمجتمع ، فإما أن تكون متجانسا مع الآخرين إذا أعوزتك قوة المقاومة ، وإما أن تتصف بالجرأة المتبوعة بصفاقة الوجه إذا أردت أن تتفرد وحدك بسلوك خاص ، أما أن تتحدى المجتمع بالعصيان الذى يأبى التجانس دون أن تكون مزودا بما يلزم هذا من سلاح المقاومة ، فذلك إنما يؤدي بك حتما إلى اختلال فى اتزان عناصر النفس ، ومن ثم إلى صراع داخلى فانطواء ، وما هى إلا أن عادت طلائع الأسرة الغائبة لتُصدم بهذا الموقف الغريب ، وراحت عيونهم تلفظ أوار الغيظ الكظيم ، تمهيدا لما هو لاحق بنا حتما إذا ما انفتح الباب ودخلنا ، وجىء بنجار ، وكسر الباب ، ودخلنا ، وكان ما كان من عصي تهوى على جسدنا العاريين .

وفى تلك الفترة من عمرى دخلت المدرسة الأولية ، وكان اسمها مدرسة السلطان مصطفى ، عند مدخل حارة الكاشف يحوار المدرسة السنية للبنات ، وهى دار أثرية قديمة ، ولا أذكر منها شيئا إلا سلالها التى كانت تبدأ من الباب الخارجى مباشرة - فليس للمدرسة فناء ، وكان التلاميذ الصغار يتجمعون فى حارة الكاشف ، المحفوظ منهم يأكل البليلة وغير المحفوظ تأخذ العزة فيبتعد ، أولا تأخذ فيقترب سائلا - وكانت السلام عالية الدرجات على من كان فى مثل عمرنا ، وكذلك أذكر شعاعا من الشمس ساعة العصر ينفلد من جهة الغرب خلال النافذة ذات الزجاج الملون ، كنت أرتقب سقوط هذا الشعاع على درجى كل عصر فارغ الصبر ، ولا أدري هل كان ذلك بسبب الألوان

الجميلة التي كان يلقيها ذلك الشعاع أمامي ، أو كان ذلك علامة على دنو ساعة الانصراف .

وعلى أي حال فقد كان ارتفاعي في درجة الوعي عندئذ بما يشبه القفز والطيران ، ففي عام واحد أو عامين ، انتقلت انتقالا كالمفاجئ من طفل لا يعي إلى صبي تفتحت جواسه ، ولا أدلّ على ذلك من متابعتي لما كان يقوله ابن عم لي وابن عمه يكراني بخمسة أعوام ، وكانا عندئذ تلميذين في مدرسة محمد علي الابتدائية ، فكانا يفخران أمامي بما يعلمانه مما لست أعلم : كلمات الإنجليزية وعبارات ، فكنت أسارع إلى حفظها عنهما لأسايرهما فيما يعلمان .

لكن الذي لم أستطع قط أن أسايرهما فيه ، هو ما كان يسميانه « مطارحة » بالشعر ، فيقول أحدهما بيتا من الشعر ، ليردّ عليه الآخر بيت يبدأ بالحرف الذي انتهى به البيت السابق ، فن أبن لهما بهذا الكلام ؟ أين يجدهانه وكيف يحفظانه ؟ وقد مضت الآن منذ ذلك العهد عشرون عاما . ومازلت أذكر بيتا قاله أحدهما في المطارحة وأعجبنى لفظه فحفظته عنه لساعته ، فرسخ في الذاكرة - وذاكرتي يغلب عليها الضعف - لسبب لا أدريه ، وهو :

نونان نونان لم تكتبها قلم وفي كل نون من النونين عيتان
حفظته ولم أعلم ماذا عساه يعني ، بل لا أظن أن قائله كان يعلم .
كذلك تحدت في تلك الفترة من العمر علاقتي بالجنس الآخر ، بمعنى أنني أدركت إدراكا واضحا ماذا يكون بين الجنسين في تستر وخفاء ، فلست أنسى ذات مساء والبيت يعج بزواره ، كيف اتفقت مع طفلة من الأسرة الزائرة أن نلعب زوجا وزوجة ، واثنيينا إلى غرفة بعيدة عن الأعين ، وأغلقتنا من دوننا بابها ، ولم أكن أعلم الطفلة من قواعد اللعبة أكثر مما علمتني ، ولم تكن تعلمني

أكثر مما علمتها ، فالطفل والطفلة كلاهما - وهما في السابعة أو نحوها - كانا يعلمان ما يكفي ، كما حدث في هذه السن نفسها أن سافرتُ مع أهلى إلى القرية لنقضى إجازتنا بها ، وكنت في الضحى ذات يوم ألعب على سطح الدار مع طفلة ريفية من الجيران ، فما هو إلا أن تفاهمنا ، وكان إلى جوارنا « سحارة » كبيرة عميقة ، بابها مربع خشبي صغير يغطى فتحة على وجهها الأعلى ، فقفزنا إلى سطح السحارة ، ورفعنا بابها وهبطنا واثبين إلى جوفها ، ولكن كيف الخروج والسحارة عميقة كأنها البئر؟ وعبنا حاولنا ، فكان لابد للسر أن يفتضح ، فأخذنا ندق جوانب السحارة بقبضات أيدينا ، ونركلها بأقدامنا ، ونصيح في بكاء الفزع ، حتى سمعنا من سمعنا ، وانتشلنا ، وما كادت القصة تسرى ، حتى كانت الضحكات من هذه « الشقاوة » ، ولكن هل أدرك الراشدون مدى ماقد ذهب إليه هو الطفلين ؟ لا أظن ذلك - وهذه هى براءة الأطفال ، وهذه هى طهارة الريف ، وتلك هى سذاجة الراشدين .

هكذا كملت جوانب الشخصية الاجتماعية بين السادسة والسابعة وتحددت لها طرائف مختلفة فى ردود الأفعال لمختلف البواعث ، أو قل هكذا نشأت مجموعة الأشخاص التى تكوّن جوانب نفسى « الواحدة » ، وما كان على الأيام بعد ذلك إلا أن تطور هذا الذى بدأ : فوفقى إزاء أبى هو هو نفسه موقفى إزاء كل سلطان متحكم ، أثور عليه فى داخل تارة ، وأنفجر بالثورة العلنية تارة ، وأكتب لأهدم ما أراه طغيانا - سواء فى ذلك الأشخاص أو النظم - فتجىء الكلمات كأنها شواظ وشرر ، وكثيرا مادّش من لم يكن يعرفنى ثم رآنى ، فرأى شخصا تغلب عليه الوداعة والهدوء ، فكيف يمكن أن تجىء تلك الثورة من هذا المستكين ؟ وموقفى إزاء أمى هو موقفى من الصديق أحبه حبا خالصا غير ممزوج

بالحذر والخوف ، وهو الموقف الذى أقفه من تربطى بهم علاقة الود وأصطفهم دون سائر المعارف ، وموقفى من أخى هو نفسه موقفى من نفسى ، أسرُّ إليه بما لم أكن أسرُّ به إلى أب أو أم أو صديق ، أطلب منه النصح جاداً ، وأعتصم به آمناً ، وموقفى من أقربائى الذين كانوا يكبروننى ويسبقوننى فى مراحل التعليم ، هو موقفى من كل سابق فى طريق العلم ، أجد السير لألحق به ، وأما موقفى من الجنس الآخر ، فبرغم العبث الطفلى الذى عبث به مع الطفلين إلا أنه سيتحدد بفعل شيطانة من الجن فى سنِّ المراهقة .

إنهم يصدقون حين يقولون عن الأسرة إنها نواة المجتمع ، لأنها هى المجتمع الصغير الذى يتعامل الطفل مع أفرادهِ ، فيعامل كلا منهم بما يحقق له صالحه كما يتصوره ، يحب هذا ويخشى ذاك ، ويخلص الود هنا ويمكر بالحذر هناك ، حتى إذا ما خرج إلى المجتمع الكبير ، جسَّد فى مواقفه وفى ناسه ما كان قد لقيه فى المجتمع الأسرى الصغير ، فكم ناثراً على الدنيا حتى غيَّر وجهها ، تراه - إذا ما رددت ثورته هذه إلى أصولها - إنما يثور فى الحقيقة على أب طغى به وهو صغير ، فانتقم منه فى سواه حين استطاع ، وقد يحىء هذا الانتقام المقنَّع خيراً فيكون صاحبه من الأبطال المصلحين ، أو قد يحىء شراً فيكون من المفسدين ، وكم ملحد أنكر وجود الله إذا ما رددت إلحاده هذا وإنكاره إلى أصولها ، تبين كذلك أنه فى الحقيقة يريد أن يكفر بالوالد أو بالمعلم الذى أغلظ له القسوة وهو ضعيف ، وهكذا حلَّ حب المحبين وكراهية الكارهين وعبادة العابدين وزهد الزاهدين ، وحلَّ نشاط العالم فى معمله ، والرحالة فى ارتياده للمجهول ، تجد كل ذلك امتداداً لأصول نشأت فى النفس وهى ناشئة بين رعاتها ولداتها ، فكان ما كان بعدئذ من خسة هنا ومجد هناك .. أتقول لى : لكن هذه نظرة

متشائم إلى القيم الإنسانية العليا ؟ لكن كانت كذلك ، فلا حيلة لي في نظرك
المتشائمة ، لأنها وليدة حياقي التي عشتها حتى بلغت السابعة أو نحوها .

٥

انتقلت الأسرة إلى السودان والصبي في تاسعته ، كان له ماكان من أحداث
الحياة ، لكنه ذهب والأحداث مكنونة في جوفه لم يظهر بعد منها شيء على
ظهره ، ذهب والظهر معتدل وعاد والظهر مقوس معوج ، لقد طفح الداخل
إلى خارج وتكور .

الشمس فوق رأسى كأنها عين فتحت في جهنم ! ذلك هو أول انطباع تلقينه
في الطريق من المحطة إلى المنزل ، إذ جلست فوق الحقائق المحملة على عربة
لأحرسها ، ولست أذكر بعد ذلك شيئا سوى أننى أرقد مصابا بضربة الشمس
تحرسنى عناية الأبوين نهارا وليلا لبضعة أيام ، صحوت بعدها وجلت قليلا ،
فتبينت أننا قد انتقلنا من الظل إلى الوهج ، ومن رطب إلى يابس ، ومن حركة
إلى سكون ، ومن غزارة حياة وصلات إلى تخلخل وتفرق ، فالمسافة بين بيت
وبيت هنا أبعد ، وبين دكان ودكان أطول ، والناس قليلون والأفراد متناثرون ،
والشارع ميدان والميدان فلاة ، والمشى كأنه وقوف والجلوس كأنه رقاد ، وشدة
الحر تزيد الناس بعثرة بعضهم عن بعض ، لأنهم لائذون بالسقائف ، حتى
ليتعذر على الخيال أن يتصورهم « جمهورا » بمعنى الحشد المتجمع في مكان ،
كما يتعذر على العقل أن يتصور قيام رأى عام ينتقل بين الأفراد بطريق العدوى ،
وفي ظنى أن ظروفنا للعيش كهذه من شأنها أن تزيد من اعتداد الفرد بنفسه
وبفرديته ، لقلة صلته الطبيعية القريبة بسائر الأفراد ، وبالتالي فهم يقلل من
استعداده للتفاهم السهل مع سواه ، فعوامل تكوين « الرأى » الواحد هنا مفرقة

مبعثرة ، وحواضر التفكير واهنة ، لأنه لا تفكير بغير مشكلات ، وإذا قريت الحياة من البساطة فلا مشكلات .

أنا لا أتحدث عن السودان الآن ، لكنني أتحدث عن موقف الصبي الذي ذهب إليه وهو في التاسعة ، وكان ذلك منذ أمد بعيد ، ذهب إليه وإحدى قدميه ماتزال مغروسة في أرض الطفولة ، والأخرى أخذت تخطو نحو نضج الشباب الباكر ، وقد بدأت خبرات الصبي هناك بموقفين متضادين في آن واحد ، كان في أحدهما طفلا لاهيا وكان في الآخر إنسانا مسثلا .

فأما أولهما ففي الكتاب الذي أرسلنا إليه لنقضى بعض أشهر حتى يبدأ العام الدراسي في كلية غوردون ، وفي الكتاب عرفت ما « الفلقة » وعذاها ، فالكتاب كله غرفة واحدة لا أذكر أن لها نوافذ ، يفتح بابها على سقيفة مفروشة بالحصر ، ولذلك فهي - أعنى السقيفة - مضيئة وللواء فيها حركة ، إذا قيست إلى الغرفة في ظلمتها وسكون هوائها ، وتحت السقيفة كان يجلس الشيخ الدرديري - صاحب الكتاب والقائم فيه بالتعليم كله - وإلى جانب مقعده منضدة وطبقة عليها قُلتان ، وحدث ذات صباح أن وجدت المقعد خاليا من شيخه ، ورأيت القُلتين تلمعان بما يبلل سطحيهما من ماء ، فأخرجت من جيبي قلما من أقلام « الكويا » وطفقت أخطّ به على القلتين ، ولم أكن أتوقع أن أجد هذه المتعة كلها في التخطيط بالقلم « الكويا » على سطح مبتل ، فانطلقت أرسم الأشكال وأكتب الأحرف ، فتسبح الخطوط وتشابك في زخرف جميل ، وهنة « طَبَّ » الشيخ فجأة ، فأخذته صاعقة لما رأى ، وأمر فمُدَّت « الفلقة » وربطت فيها قدمي ، وطرحت على الأرض ظهرًا ، ورفعت القدمان مزمومتين في شَقَى الفلقة ، والفلقة يحملها ولدان أمسكها كل منهما بطرف ، والشيخ

الدردري يهوى على بالسوط في غير رحمة كأنما نسي أنها متصلتان بكائن
حي ، وعدت إلى البيت مورم القدمين ... وغير هذا الحادث لا أذكر من هذا
الكتاب شيئا ، إلا أن زائرين كثيرين كانوا يزورونه ، فإذا دخل الزائر انتفضنا
واقفين واضعين أكفنا الصغيرة على جباهنا « تعظيم سلام » ، مرددين في صوت
عال يتين حفظناهما لهذه المناسبات ، أظنهما يجران هكذا :

من نال العلم وذاكره حسنت دنياه وآخرته
فحياة العلم مذاكرة وحياة العلم مذاكرته
نقط الهاء في آخر الشطر الأول مطأ منغا موصولا بالشطر الثاني ، وكذلك
تقف قليلا عند التنوين في آخر الشطر الثالث وأخيرا نجعل الوقف على الهاء
الأخيرة كضربة الطبل معلنة ختام التحية ، وعندئذ نؤمر بالجلوس .

وأما الموقف الثاني الذي وقفت فيه موقف رجل مستول ، فهو أن لصوص
المنازل قد كثروا خلال ذلك العام كثرة قيل إنها لم تعهد من قبل ، وكان مردّ
الأمر إلى قلة في المطر وقحط في المحصول ، وما يتبع ذلك من عوز وجوع ، وقد
رأى الموظفون - ومنهم أي - أن يساعدوا رجال الشرطة بأن يكونوا من أنفسهم
دوريات تجوب الشوارع أثناء الليل ، لتفزع اللصوص كما تُفزعُ العصافير من فوق
الغصون بقرعات خفيفة على الصفيح ، فلصوص ذلك العام لم يكونوا لصوصا
محترفين لهم جرأة وتدبير ، بل كانوا لصوصا تدفعهم الحاجة الماسة العاجلة إلى
أى شيء يؤكل أو يلبس أو يباع ، إلى أقل شيء ، إلى رغياف يأكلونه ، إلى
قيص يلبسونه ، إلى إناء يخطفونه لبيعه في السوق برغياف أو قيص ، وإذن
فتخريفهم أمر ميسور تكفى له هذه « الدورية » من الموظفين تجوب شوارع المدينة
ليلا .

لكن كان لابد للبيوت كذلك من حراسة بالليل ، فعل كل أسرة أن يتناوب أفرادها في اليقظة لتكون هنالك العين الساهرة دائما ، والشاخصة نحو الأسطح وحواف الجدران الخارجية ، فاللص إما أن يهبط إلى فناء الدار من سطح الغرفات - والدور كلها من طابق واحد يتوسط غرفه فناء يحيط به السور الخارجى - وإما أن يهبط إليه واثبا فوق السور المحيط به ، وكان يقال لنا إن أقل صوت يصيح به الحارس اليقظان إذا رأى لصا يهيم بالهبوط إلى الفناء ، كاف لتخوفه يفرك أنه الظل يختفى بلا صوت .

ومن ذا في بيتنا تقع عليه هذه الحراسة سوى ؟ إن أخى أصغر من أن يوكل إليه هذا العمل الجرىء ، وأمى وحدها لا تغنى لأنهم يريدون للحراسة « رجلا » ، و « رجل » البيت فى غيبة أبى هو أنا الصبى ذو الأعوام التسعة ، لأننى أنا « رشيد العائلة » كما كان يحلو لأبى دائما أن يقول ، كان علىّ إذن أن أقف فى وسط الفناء ، ممسكا بيدي حطبة من حطب الموقد - وحطب الموقد هناك قطع غليظة من فروع الشجر الجافة - وأظل أتطلع بعينى إلى حافة السطح وإلى حواف الأسوار ، وإننى لأكتب هذه الأسطر الآن وما يزال فى نفسى مزيج المشاعر التى كانت تملؤنى أثناء عملية الحراسة بضع ساعات من كل ليلة : فشجاعة مصطنعة تجعلنى أشدّ بقبضى على الحطبة الخشنة ، وزمّ للشفتين وحبس للأنفاس ، ودفع بالصدر إلى أمام ، وثبيت للقدمين على الأرض ، ووراء كل هذا رجفة الخوف تعترى من الرأس إلى القدم ، وماذا تتوقع من صبى صغير أمر أن يضع فى إهابه رجلا ؟ إنه لا مناص من أن تكون الرجولة البادية الظاهرة مبطنّة بطفولة خافية مستترة ... ألا ما كان أرهبا من لحظة تلك اللحظة من جوف الليل الساكن ، التى نظرت فيها إلى حافة السطح المطلة على

الفناء ، لأشهد ساقين تدلنا وجذعا في سبيله إلى الظهور ، ولم تكن بعدئذ
إلا حركة واحدة من الواثب ليكون معنا في فناء الدار ، فارتعشت ركبتي ،
وزعقت في صوت مكتوم ماتت حروفه في حلقى ، ولكن استطعت أن ألفظ
الكلمتين : « امسك الحرامى » - فيا لعجبي من تلك الزفرة المبحوحة من طفل
راجف ، تكفى لطرده الشبخ إلى حيث لا أدري ، وقل ما شئت عما ملأني من
شعور بالزهو لشجاعتي المزيفة ، فكأن تلك الليلة كانت مولدا لمركب شعورى
أحسبني لا أزال أحمله بين جنبى ، هو مركب الشجاعة الخائفة ، أو الخوف
الشجاع .

٦

كانت النقلة واسعة مما كنت عليه في كتاب الشيخ الدرديرى ، إلى
ما أصبحت فيه بكلية غوردون ، فهي نقلة من طفل يفرض فيه أنه لا يعرف
شيئا ولا يعلم شيئا إلى طفل يفرض فيه أنه يعرف كل شيء ويتعلم أى شيء .
كان المدرسون في المرحلة الابتدائية أكثرهم من المصريين وأقلهم من أبناء
السودان : هذا هو مدرس اللغة العربية الذى تولانا أول من تولى ، أستاذ
أزهري من المصريين ، فيه من الجدة والصرامة ما لو قسم بين عشرين مدرسا ،
لكان من كل واحد فيهم مدرس ناجح ، إنه أوشك ألا يفرق بيننا نحن الصغار
الذين جاءوا إليه لبدأوا حياتهم الدراسية ، وبين متخصص في دراسة اللغة
العربية من علماء الأزهر ، فقد كان يأمرنا أن نسطر له هوامش كتاب النحو
المقرر بخطوط مائلة ، لنكتب عليها ما يمليه من إضافات ، على نحو ما تكتب
الحواشى في الكتب القديمة ، ويعلمنا الإعراب فيما أشكل من آيات الكتاب

الكريم أو من أبيات الشعر الجاهلى ، بعد أن يشرح لنا هذه وتلك شرحا وافيا ، لكننى كنت أحفظ الإعراب عن ظهر قلب دون أن أفهم من مصطلحه شيئا ، فما زلت أحفظ من تلك السنة الأولى أن « إذا ظرف لما يستقبل من الزمان ، خافض لشرطه منصوب بجوابه » ولا بد أن يكون ذلك الأستاذ القدير قد شرح المعنى المقصود بكل هذا ، لكننى كنت أعجز عن استيعابه ، فكلمة « الظرف » عندى لم تكن تعنى إلا الظرف الذى يوضع فيه « الجواب » - خصوصا وكلمة « الجواب » واردة فى آخر العبارة ، و « الاستقبال » عندى لم يكن إلا استقبالا للضيوف ، و « الشرط » لا يكون إلا فرقا فى الثوب ، فما علاقة « اذا » بهذا كله ؟ لم أكن أدرى ، ولكنى أحفظ عن ظهر قلب ، والأستاذ يحدوه فينا أمل يماز قدراتنا .

وهذا هو مدرس اللغة الإنجليزية : شاب مصرى صاحب الوجه حاد الفكّين ، لا فرق - فى الصرامة والجد - بينه وبين مدرس اللغة العربية إلا فى الزّى ، فذلك شيخ وهذا أفندى ، نعم كان بأيدينا كتاب المطالعة الذى يبدأ بدرس عن ثور يركبه صبي فلاح ، لكن هل كان يكفيه هذا ؟ كلا ، فالمادة المضافة لا أول لها ولا آخر ، وأعمدة الأفعال وتصريفها ، وقوائم الكلمات التى نحفظها كل يوم كانت تلاحقنا بلا هوادة ، إلى الحد الذى كنا نخرج معه إلى فناء المدرسة بعد درس الإملاء ، فيسأل بعضنا بعضا (وهذا مثل حقيقى تعيه ذاكرتى منذ ذلك الحين) : كيف كتبت كلمة boy ؟ - كتبتها هكذا ، فيعود السائل ليقول : لا إنها buoy التى معناها « عوامة » وإلا لما كان للجملة معنى ، وكيف كتبت كلمة story ؟ - كتبتها هكذا ، فيعود السائل ليقول : لا ، إنها storey التى معناها الطابق فى البناء ، لأن كلمة « قصة » لا تجرى مع

السياق ... وهكذا عبأنا الأستاذ بمادة اللغة تعبئة لا أكاد الآن أصدق مداها حين أذكرها .

ولما بلغنا السنة الرابعة الابتدائية ، تولى تدريسنا الانجليزية ناظر المدرسة - وكان مصرياً - وهو رجل غاية في الأناقة والنظافة والدقة والنظام ، بدلاته بيض من تيل هزاز ، ويخيل إليك أن له في كل ساعة من ساعات النهار « غيارا » نظيفاً ، وكان لا يمسك الطباشيرة إلا وهي ملفوفة إلى نصفها بالورق ، فهو يعين تلميذاً خاصاً لإعداد هذا الطباشير المكسّ بالورق ، ليده به كلمة طلب ، وكنت أنا في فرقتي صاحب هذه الحرفة ، كان من عادته أن يكلفنا شراء زجاجات من المداد الأحمر ، لأن طريقته في تصحيحنا لأخطاء الهجاء ، هي أن نكتب الجزء المغلوط من الكلمة بالمداد الأحمر .

وأما الحساب فحيّا الله أستاذه وأكرمه إن كان ما يزال حياً ، وأسبغ الله عليه رحمة واسعة إن كان ميتاً ، لأنه موهوب ، ولك أن تضيف إلى موهبته تلك الحماسة التي كانت تسرى فيه وفي زملائه لتعلم أى أستاذ كان .

وقد كانت لنا في الترجمة دروس خاصة ، من الانجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الانجليزية ، ووالله لا أذكر مستواها إلا وأياخذني العجب ، كان يدرسها مدرس سوداني طويل نحيل ، أرسل لحية قصيرة جعداء الشعر في أخريات أيامه ، وما أخريات أيامه تلك إلا تهمة بالسرقة وجهت إليه ، وغاب عنا ، وكانت له في نفوسنا هبة حتى لقد صدقنا من قال إنها تهمة مزورة أريد بها الانتقام منه لأسباب سياسية ، ومضت بعد ذلك شهور ، ثم شاعت المصادفات أن أكون بمحطة السكة الحديدية على استعداد مع بقية الأسرة للسفر إلى مصر ، فن ذا أرى هناك يقف محروساً بمجندي مسلح ، إلا مدرسنا ذاك في

وقاره وهيبته ، فما كان مني إلا أن نظقت باسمه ذاهلا دهشا ، فالتفت الرجل نحوى بجملة لا إرادية فما هو إلا أن نهّره السجان بصوت غليظ أجش : انظر أمامك يامسجون !.. ومسحت عن وجهي دمة سالت .

لكننى كذلك لا أنسى قسوة مدرسينا فى المدرسة الابتدائية - من مصريين وسودانيين - قسوة جاوزت كل حد معقول ، وكانت لهم فيها فنون : كان مدرس الجغرافيا شيخا سودانيا ، وكان يطلب منا أن نحفظ خمسين صفحة من صفحات الكتاب بين ليلة ويوم ، بحيث نتلوها كما تُتلى الفاتحة - على حد عبارته - وإلا فسوطه القصير المحباً فى كم رذائه على استعداد أن يهوى فوق الظهر ، ولم يكن مدرس اللغة الإنجليزية يكفيه أن تمدّد له الأكف ليضربها بالمسطرة - والمسطرة عنده هى أداة العقاب - بل كان يضفر قلما فى أصابع اليد ، ثم يضرب على ظهر الكف لا على بطنها ، وبسنّ المسطرة لا يعرضها ، وكانت العقوبة عند مدرس اللغة العربية جلوسا على الركبتين فوق البلاط ، وقد لا يكتفى بذلك فيجعل حصاة تحت كل ركبة ، ثم قد يضيف إلى هذا وذاك رفع الذراعين إلى أعلى ، وأما ناظر المدرسة فكانت طريقته أن يستعين بمدرس الألعاب الرياضية و « جَلَدته » ، فيجىء فراشان ويشدان المذنب المعاقب على ظهر كرسى من الخيزران ، فيثنى المعاقب فوق ظهر الكرسى ، وكل فراش ممسك بذراع ، ومدرس الألعاب يضرب بالجلدة على مؤخرة الجسم عدد الجلدات الذى يقرره حضرة الناظر ، وكان فى المدرسة مدرسان للألعاب الرياضية ، كانا « صولتين » فى الجيش أكملتا فترة التجنيد ، أحدهما يدعى إبراهيم والآخري يدعى فرنسيس ، وكلاهما مصرى ، أما إبراهيم فشديد السمرة غليظ الكبد لا تعرف الرحمة إلى قلبه سيلا ، وأما فرنسيس فأشقر اللون أصفر الشعر طيب القلب

رحيم ، إذا أمرَ بجلد تلميذ فتراه يُنزل الجلدة خفيفة ، ولذلك كان الناظر حريصا دائما على أن يكون إبراهيم هو أداة في تنفيذ العقاب .

وننتقل إلى المدرسة الثانوية فيتغير المنظر تغيرا جوهريا ، فالتدريس هنا كله بالانجليزية ، والمدرسون أكثرهم انجليز ، ومن أول المدرسة الثانوية يبدأ التخصص المهني ، لينتهي بنهايتها ، لكن هذا التخصص كان يتركز في السنتين الأخيرتين ، ففيها يكون قسم للمهندسين ، وقسم للمدرسين ، وقسم للقضاة الشرعيين وهكذا .

على أن أهم ما يميز الدراسة هو الحياة الاجتماعية والرياضية ، فالتلاميذ مقسمون إلى « بيوت » أربعة - وهو ما نسميه في مدارسنا المصرية بنظام الأسر - يختص كل بيت من البيوت الثلاثة الأولى بالتلاميذ الوافدين من جهة معينة من جهات السودان ، فهؤلاء من الجنوب ، وأولئك من الشرق أو من الغرب ، وأما البيت الرابع فالتلاميذ « الخارجية » ومن هؤلاء كان المصريون جميعا .

وكانت كرة القدم إجبارية على التلاميذ كافة ، فيقسمون أحد عشر درجة بحسب قدراتهم ، وكلما أظهر اللاعب قدرة ارتفع إلى فريق المستوى الأعلى ، حتى يصل إلى الفريق الذى يلعب الفرق الخارجية باسم المدرسة ، وكانت كلية غوردون محاطة بملعب لكرة القدم كثيرة العدد ، حتى لتمتد رقعتها إلى مسافة بعيدة .

ولا أذكر هذه الملاعب إلا وأذكر عقوبة أمر على بها الرئيس الانجليزى الذى يشرف على « البيت » الذى كنت أتمنى إليه ، وذلك لأننى أخرجت ساعتى خلال الدرس ، وكانت العقوبة أن تؤخذ منى الساعة أولا ، وأن أظل

ثلاثة أسابيع ، مدة ساعتين كل يوم ، أجمع الأحجار الصغيرة التي قد تكون مخبوءة في العشب النامي على الملاعب ، على أن يكون ذلك بالطبع بعد نهاية اليوم الدراسى نحو الساعة الرابعة عصرا ، وأشهد أن تمتعت خلال هذه العقوبة أكثر مما تأملت ، لأننى كثيرا ماكنت أنعم بالجلوس مع الزملاء « الداخلية » على العشب - وكانوا يجلسون حلقات حلقات - وأشرب معهم الشاي الجيد بلونه الذهبى فى أكوابه الخاصة ، والذي كنت أعجب له أنهم يجلسون بجلايبيهم البيضاء على العشب فلا تسخ ، وأجلس يبذلنى البيضاء فأقوم وعليها رقعة خضراء (كانت الثياب البيضاء شرطا واجبا ، فالسودانيون يلبسون الجلابيب البيضاء والعائم السوداني البيضاء ، والمصريون يلبسون بدلات بيضاء ، وأربطة عنق سوداء ، على ألا يكون الحذاء إلا بئى اللون) وقد تفتقت حيلتى ذات عصر عن طريقة ظننتها تنجبنى من تلك الرقعة الخضراء إثر الجلوس مع الزملاء على العشب ساعة الشاي ، وهى أنى خلعت حذائى وجلست عليه ، فإذا الرقعة هذه المرة مزيج من البئى والأخضر ، وأسأل نفسى الآن : ولماذا لم أستخدم ورقة أو منديلا فرشاً أجلس عليه ، ولا أستطيع الآن أن أقع على التعليل ، لأنى نسيت .

على أن أهم ما أقلقنى من تلك العقوبة - فضلا عن الرقع الخضراء التى كنت أعود بها كل يوم فتستشيط أسمى غضبا - هو ساعتى وضياعتها ، لأنى أخفيت أمرها عن والدى ، وكنت فى خشية دائمة أن يحىء الوقت الذى أسأل فيه أين الساعة ؟ فلا أجد الجواب ، لكن الله سلم فى آخر لحظة من العام الدراسى فبينما أنا هابط السلم مع طابور التلاميذ ، إذ نادانى العريف (رئيس البيت من الطلاب) وأخذنى إلى غرفته حيث أعطانى ساعتى بعد نصح

وتقريع ، فأخذتها وهرولت أنزل السلام درجتين درجتين ، وأنا أصبح بأعلى صوتي لأسمع أخى الذى سبقنى مع الطابور :

فلعلها ولعلها ولعلها ولعل من عقد الأمور يحلها

٧

لكنى لا أكتب هذه المذكرات لأقص تاريخنا ، بقدر ما أكتبها لأتعقب علّنى إلى جذورها ، فهما يكن لزملاء كلية غوردون على من فضل ، فقد أساءوا إلى - من حيث لا يشعرون - إساءة لا أخطئ كثيراً إذا قلت إنها كانت هى الحد الفاصل بين أن أكتب على فى جوفى وبين أن يفلت منى زمامها فتخرج - خرجت - قنبا على ظهري ، وذلك أنهم غرزوا فى أعماق نفسى عقدة نقص ما زالت تسيطر علىّ إلى يومى هذا ، ثم ما زالت تتفرع فى شعاب النفس أشكالا وألوانا ، كأنها الأخطبوط ، إذا بترت منه خيطا نبتت خيوط .

والبداية بسيطة ككل البدايات ؟ ذلك أن صغار الزملاء قد أدركوا - ونحن بعد فى أول المرحلة الابتدائية - ما فى بصرى من قصر ملحوظ فى زرى لعينى اليمنى كلما أردت النظر إلى شىء ، وأعجب العجب أنى لم أكن أعلم قبل إذ أن بصرى يقصر دون أبصار الناس ، كلا ولم يكن يعلم ذلك أحد من أهلى ، حتى وجدته موضع السخرية من هؤلاء الزملاء الصغار .

كل ما أذكره قبل ذاك حادث عابر جاء وذهب فى لحظة قصيرة ، فقد كنا نعبير النيل عند الخرطوم فى مركب اشترته جماعة من الموظفين الأصدقاء ، الذين يسكنون من النيل فى ضفة ويعملون فى الضفة الأخرى ، ليكون المركب تحت تصرفهم دائما ، على نحو ما يملك المالك اليوم سيارة خاصة ، واصطف

الراكبون صفين متقابلين ، وفي الصف المقابل لى ، كان والدى وكان أحد أصدقائه ، وأحسبى قد زررت عيني اليمنى ، حين قال ذلك الصديق : « أترى عينك منذ الآن يابى ؟ فماذا أنت صانع إذن حين تتقدم بك السنون ؟ » ومع حرف النون الأخير في عبارته وقعت كف والدى على وجهى صافعة ، وهو يزجر : « افتح عينك حين تنظر » .

لم أكن أعلم قبل ذلك - اذن - ولا كان أهلى يعلمون أن بعينى ضعفا ، حتى كشف لى الأمر صغار الزملاء من السودانيين ، حين راحوا يطلقون على أسماء من قبيل « الأعور » و « الأعمش » ، ثم استقروا أخيرا على مصطلح لم أفهمه بادئ ذى بدء ، وهو قولهم « ٧ و ٤ » أحيانا ، « ٥ و ٦ » أحيانا أخرى ، ولطالما عجبت من العلاقة بين هذه الأعداد ويمنى ، لكننى كنت على يقين عندئذ أن الإشارة في هذا كله إلى عيني ، وأخذت أحاول أن أنظر كما ينظر أصحاب النظر السليم ، فالكتابة على السبورة لا أراها لكنى أكتم الخبر ، وقد حدث ذات يوم أن أقبلت على طائفة من الزملاء ، وأحاطت لى ليرى من لم يكن قد رأى كيف أنى أزرر عينا دون عين ، فأردت أن أدحض لهم دعواهم ، وبالغت في فتح عيني حتى أبرهن لهم أن ليس بها عيب يعاب ، فازدادوا ضحكا ، وازددت عجباً وريبة ، ولما عدت إلى الدار ، وقفت أمام المرأة لأفتح عيني كما فتحتها في الصباح ، لأرى كيف ظهرنا للمشاهدين ، وإذا بالزملاء معذرون ، لأنها في الحق حاملة تضحك من قصد إلى السخرية والعبث .

ومنذ ذلك العهد الباكر من حياتى ، وعينائى العليلتان مصدر عجب لكل ضروب العوامل التى تدفع صاحبها إلى الأمام مرة ، وترده إلى الوراء مرة ، فقد

كان مما قيل في أوساط الأسرة - وقد عُرفت حقيقة بصرى - أنه لا جدوى من أن أكمل مراحل التعليم إلى آخر أشواطها ، مادام هذا البصر الكليل عقبة في سبيل التوظف على كل حال ، فالتعليم عندهم وعند الناس أجمعين في ذلك العهد طريق للوظيفة ، فإذا لم يكن الطريق موصلا إلى غايته بطل أن يكون طريقا ، وكان عبثا ومضيعة للجهد والوقت والمال ، وسمعتُ هذا اللغظ يسرى بين من يهمهم أمرى ومن لا يهمهم من أفراد الأسرة الكبار ، فزادنى صلابة وعنادا وإصرارا على المضيّ فيما أرادوا أن يصدوني عنه ، فإذا قال القائل : لا تقرأ حرصا على بصرك ، كان ردّ الفعل عندى أن أقرأ ضعف ما أردت أن أفعل ، ولست أشك في أن أقوى ما دفعنى إلى حياة الدراسة ، هو ذلك العزم الذى بدأ عنادا أول الأمر ، ثم انتهى إلى ميل وعادة .

ولست أنسى يوما - وكنت في السنة الثانية الابتدائية - حين « سرحت » عن الدرس ، وسبحت بنظرى خلال النافذة شاخصا إلى قطع السحاب تتسابق مع الريح ، وتتخذ لنفسها أشكالا عجيبة ، فجعلت أتأمل ماذا عساها أن تكون؟ فهذا جمل ذو سنامين وخمسة أرجل ، وتلك بطة سابحة تلوى عنقها ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة ، وذلك تمساح فتح فكيه ليلتلع سمكة تجرى أمامه ولا يلحقها ، ثم جاءت سحابة ضخمة تشبه وجه الرجل الكهل بلحية طويلة وشاربين كبيرين ، وعلى الوجه جلال وعظمة ، فقد رأيته وكأنه يأمر بقية السحاب فتجبرى بأمره وتقف بأمره ، فن ذا يكون هذا الأمر العظيم ؟ آه لقد عرفت ، إنه « الله » فقد حكوا لى أنه يسكن السماء ، ياسلام . هذا - اذن - هو « ربنا » ؟

هكذا كانت خواطرى تجرى وأنا أنظر إلى قطع السحاب ، حين جاءتنى

ركلة بالقدم فى جنبى ، وضربة يجمع اليد فى كفى ، ومجموعة الأولاد فى الفصل تنفجر ضاحكة ، ونظرت مدعورا إلى الضارب - الذى هو المعلم وإذا به يكشف عن أسنانه اللوامع البيض : فيم زررت عينك يا أعور ؟ وإلى أى شىء فى السماء تنظر ؟

وليت المعلم يعلم الآن أن العين العوراء مازالت تنظر إلى السماء باحثة عن الله - لكنها هذه المرة تبحث عن وراء قطع السحاب - سائلة عن الكون ونشأته وعن الإنسان ومصيره ، وليت المعلم يعلم كذلك كم كانت تلك العين العوراء حافزا وكم كانت مصدر ألم ممرض ، فليدركه بالقدم ، وضربته بجمع اليد ، فى تلك اللحظة الهائلة المتألمة ، قد أصبحت العين العوراء همما مقبها على صدرى ، لا يتزاح ولا يزول ، تبعث فى نفسى كل صنوف المخاوف مما قد تضرب به الأيام فتصيب منى مقتلا ، وإنها هى الشبح الخفيف والظل الكئيب ، الذى أراه مطروحا أمامى فى الطريق أينما سرت ، فيظلم الأفق ويصد عنى شعاع الشمس المضىء .

٨

كان للغلام فيما بين عامه العاشر وعامه الخامس عشر سباحات شاطحات فى أحلام يقظته ، معظمها يدور على محورين : أحدهما هو أن يكسب مالا كثيرا بقم به الدليل على « شطارته » ، والآخر هو أن يفضل فى التيه طريدا شريدا . فما سار يوما من البيت إلى المدرسة - ذلك الطريق الطويل برماله الغزيرة وشمسه الحارة وهوائه المعفر - إلا وقد طأطأ الرأس مثبتا عينيه فى قدميه ، وشاردا بخياله ... إلى أين ؟ إلى غابات الجنوب - وكان قد سمع عنها ماثير

خياله - فيتاجر مع أهلها ، فيكسب المال الكثير ، وأهله أثناء غيبته لا يعلمون أين ذهب . فيبحثون عنه حتى يأخذهم اليأس ، فيقولوا ! مات ، أو فقد لغير رجعة . فإذا به بعد أعوام يعود إليهم ومعه صرر كبيرة ، يسألونه : ماذا تحوى ؟ فيجلس بينهم ويفتحها ، فيتدفق المال ، وتنفر الأفواه من عجب ، فيوزع عليهم أنصبتهم ، ويبقى لنفسه نصيبها ...

وما جلس وحده يوما ، إلا وقد راح يحلم بأنه يخطب في فجاج الأرض طريدا شريدا ، يأكله الجوع فلا يجد اللقمة ، ويقتله العطش فلا يجد جرعة الماء ، وتتمزق ثيابه ، وتنهد قواه ، وربما اضطر إلى التسول ليقم الرمي وهو في عزلة الشريد المجهول .

فأما موضوع المال وكسبه ، فقد همّ الغلام عندئذ بإخراجه من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع بصور شتى ، فيها السذاجة الشديدة التي انتهت به ذات يوم إلى « علقه » ترده إلى صواب العقلاء ، فمن ذلك - مثلا - أنه فكر : لماذا لا يتاجر ليكسب ؟ ومربا بالدار ساعتئذ - وكان أهله في زيارة - بائع الدجاج ، فاشترى منه زوجين ، وعاد الأهل من زيارتهم فظنوه اشتري الدجاج لحسابهم ، وحمدوا له الصنيع لأنه دجاج جيد بسعر رخيص ، لكنه في الحقيقة كان يضممر في نفسه تجارة ، فبعد يومين مربا بائع للدجاج آخر ، معروف للأسرة لكثرة ترده على البيت بائعا ، وهو رجل ضرير اسمه « صيام » ، فلم يجد في الدار غيري ، وما فتحت له الباب حتى بادرنى بقوله : عندي دجاج سمين ، فقلت له : وأنا كذلك عندي دجاج أسمن ، فهل لك في الشراء ؟ فتعجب الرجل لبيتنا يُباع منه الدجاج وكان الظن أن يباع له ، لكنه طلب البضاعة المعروضة ليفحصها ، وأمسكت بدجاجاتي من فناء الدار بعد جرى وراءها وهي مع بقية الدجاج في

الفناء تندفع مذعورة هنا وهناك وتصيح كأنها تطلب الغوث ممن يغيث ، أمسكت بدجاجاتي وعرضتها على « صيام » فراح يتحسسها ، ثم سرَّها بثمن يشتريها به ، وهو ثمن يزيد قرشين عما كنت دفعته لشرائها ، فأسلمته الدجاج وقبضت اللئن فرحا بكسبي ، وعاد شمل الأسرة فأكمل : أبا وعما وأما وامرأة عم . وعلموا بالأمر ، فأخذتهم الدهشة المحيرة التي لم تنفك عنهم أسبابها إلا بالعصا ... ولم تكن حيرتهم في أمرى بأشد من حيرتي في أمرهم ! لماذا تضربونني وقد اشتريت الدجاج لأتاجر فيه ؟ فتزداد العصا أداء لمهمتها في تقويم غلام فسد واعوجَّت به السبيل .

ومن مغامرات الكسب أيضا أن اشتريت من جار لنا في مثل عمري بضع صور من بطاقات البريد المصورة ، باع لي البطاقة بقرش ، وكان مشروعى هو أن أقيم من تلك البطاقات مايشبه السينما فأربح منها الكثير ، وكيف ذلك - بأن أضع الصورة داخل زجاج المصباح ، فينظر إليها الناظرون وهى خلف زجاج ! .. وانتظرت الزبائن من أولاد الجيران وبناتهم ، ولكن لا زبون ، وكلما أغريتهم ازوروا عني واشتدوا نفورا ، ولم أدرك كم أخطأت الظن إلا حينما عرضت على من كنت اشتريت الصور منه ، أن يحىء ليتفرج عليها لقاء مليمين للمرة الواحد ، فدهش وقال : ماذا تريدنى أن أرى ؟ ماالفرق بين رؤيتها أمام الزجاج ورؤيتها خلف الزجاج ؟

ومغامرة ثالثة للكسب المشروع شاركني فيه أخى عماد ، وهو أن اشترينا نعجة قبل فصل المطر - ويسمونه في السودان بفصل الخريف ، وهو في حقيقته فصل الصيف - أملا في أن نطعمها بما ينبت المطر من عشب ، فتكبر ، فتلد ، فنبيعها هى ونبتى على الحملان لتكبر وتلد وهلم جرا ، فما أكثر مما سمعنا عن أغنياء بدأوا

حياتهم مثل هذه البداية البسيطة ، لكن لم يكد ينبت العشب في الأرض
الفضاء الفسيحة خارج البلد ، ولم نكد نأخذها إلى هناك مع الصباح لتغتنى ،
ونعود بها ساعة الظهر ، أقول إننا لم نكد نفعل ذلك أسبوعا أو أسبوعين ، حتى
نفقت النعجة بعد انتفاخ شديد أصابها ، وقال العارفون من جيراننا إنها لا بد
أكلت عشباً ساما كانوا هم يعرفونه ويحبون أغنامهم إياه ، لكن من أين لنا مثل
هذا العلم بالعشب والغنم ؟

وأما أحلام التشرد والتسول والعزلة الضاربة في القفار ، فما تزال هي هي
الأحلام التي تعاودني بعد أن هذبها نصيح الدراسة ، فأصبحت أحلاما تحلم
بعزلة المتصوفة الزاهدين .

ضلال ليس بعده ضلال في فهمنا لأنفسنا وفهمنا للناس ، أن نلتمس
محورا واحدا ندير حوله أحوال النفس جميعا ، فلكل نفس محاور عدة تدور
حولها في تصريفها لشئون حياتها ، فلو قلتُ للناس - مثلا - إنني في أعماق
نفسى زاهد في زخرف الدنيا ، لا أريد ما لها ولذائذها ، قيل لي : لكنك تجدد
ساعيا في كسب المال وادخاره ، وتزيد في حياتك من أسباب الراحة والترف ،
وإن قلت للناس : إنني في أعماق نفسى أحب العزلة ، قيل لي : لكنك تأنس
لحديث الأصدقاء ، وإن قلتُ للناس : إنني أجعل من ذاتي وخبرتها أساسا أولا
وأخيرا في تقويم الأشخاص والأشياء ، قيل لي : إذن فقيم دعواك التي قلبت بها
الأرض وأوجعت بها الدماغ ، في وجوب أن يكون معيار التقويم دائما موضوعيا
مستقلا عن الذات وأهوائها ... وهأنذا أصبح بلاء في : نعم ، نعم ، إنني
هذه الجوانب كلها ، وقولوا ما شئتم أن تقولوا .

... .. إننى إذ أرتد إلى أعوام المراهقة الباكرة ، أجدنى ملتقى أخلاط عجيبة تشابكت أطرافها من دين وجنس وشعر ، فقد أحاطت بنا جماعة من الأصدقاء لا تكاد تنطق بكلمة واحدة فى أحاديثها إلا ولها صلة بأمور الجنس ، وكانوا يكبروننا بأربعة أعوام أو خمسة ، فكان لهم من الخبرات ما لم يكن لنا به علم ، وكنا نستمع إليهم وكأننا نستمع إلى قادم من عالم مسحور يروى عن ضروب من الحياة والأحياء لم ترها عين من قبل ولم تسمعها أذن ، نعم لقد حدث لى قبل ذلك بسنوات أن أخذت أدرك أن بين الجنسين أمرا يحرص الناس على أن يجرى فى خفاء وتستر ، لكننى لم أكن أحس شيئا من هذه الفتنة التى يحدثنا عنها الأصدقاء ، وإذن فلا بد أن تكون أبواب هذا العالم المسحور مغلقة عندي حتى ذلك الحين تنتظر مزيدا من النضج يتميز بعلامات حفظتها عن هؤلاء الأصدقاء حفظا ، وجعلت أرتقبها مشوقا إليها ، وأنعجل حدودها كمن يتعجل قدوم الغائب الحبيب ، لكنها ارتقاب وتعجل لم يخلوا من شعور المرتاع من داهم مجهول .

كان منزلنا يبعد عن النيل مسافة نصف الساعة مشيا ، وعن لى ذات عصر أن أحمل حصيرة صغيرة وأقصد بها إلى شاطئ النيل ، فأترشها لأنظر إلى غروب الشمس على صفحة الماء ، وأظنها كانت أول مرة أقصد فيها إلى شاطئ النيل فى تلك البقعة بذاتها ، إذ لم أكن أعلم أن عشرات السابحين يلهون بالسباحة فى النيل عند ذلك المكان وفى تلك الساعة من النهار ، لقد اخترت المكان عفوا ، لأن الطريق إليه كان يشق حديقة من شجر الليمون ، تؤهم الإنسان بأنه سائر فى ظل الشجر ، والحقيقة أن لم يكن هناك ظل يحميه ، لأن

الأشجار قصيرة ومعرة من الورق والثر ، وعند شاطئ النيل افترشت الحصيرة وجلست وحدى ، لا أجد مأسند ظهري إليه ، فكنت أستند إلى ذراعى من خلقي حيناً ، وأقرفص مشبكاً ذراعى على ركبتي حيناً آخر ، وأستلقي ناظراً إلى السماء حيناً ثالثاً ، فرمما ظهر هذا التغير فى الأوضاع لمن يشاهده كأنه قلق فى النفس ، لا مجرد بحث من الجسم عن وضع يريحه ، فجاءتني فتاتان سودانيتان مازلت أذكر منها لمعة العيون التى تناديك فى إغراء بل فى إغواء صامت دون أن ينطق اللسان بكلمة ، كما أذكر منها صدورا ناهدة تستثير أصابع القديسين أن تمتد لنجمش ، كانتا سمرائين أفتح لونا من اللون السائد بين نساء السودان ، وأغمرق لونا من اللون السائد بين نساء مصر ، جلستا على الحصيرة واتكأتا على الذراعين ، راكعتين على الركبتين ، كأنما دريتا أن تقوما بهذه الحركة معا فى توقيع موسيقى ، وشخصتا إلى بعيون صاحبة وشفاه باسمه كاشفة عن أسنان ناصعة البياض ؟ وقالت إحداها - ورددت الأخرى قولها - « إنك لتتململ قاعدا راقدا ، باسطا ذراعيك قابضا لها ، كأنما فى القلب جمرات نحن نعرفها » فأخذتني رعشة هزّت كيافى هزاً ، من أعلاه إلى أسفله ومن باطنه إلى ظاهره ، فكأننى هذه الساعة أسمع مادق به قلبي دقا عنيفا ، وتذكرت الدنيا المسحورة العجيبة التى طالما حدث عنها الأصدقاء ، والتى طالما ارتقبتها ، وخيل إلى أن تلكا الفتاتين هما اللتان أرسلها الغيب لتفتحا الباب الذى لبث حتى تلك اللحظة مغلقا ، لا أدري ماذا وراءه إلا عن طريق الرواية ، لكننى تذكرت كذلك أن علامات النضج التى هى جواز المرور إلى داخل العالم المسحور لم تظهر بعد ، فقلت لها بأنفاس متقطعة : « لكننى مازلت صغيرا » ، فضحكنا فى دلال لا يعرفه إلا من عرف كيف تدل الفتاة السودانية بأنوثتها ، وقالت إحداها -

ورددت الأخرى قولها - « صغير ؟! هذه هى السن التى جئنا نبحث عنها » ، فلم أشعر عندئذ إلا بالشعريرة الشديدة تلمُّ يبدنى كأنها المرض الداهم ، وجمعت حصيرى وأسرعت عائدا ، تاركا ورأى فتاتين تضحكان ضحكات عالية الرنين .

ذلك كان نوع الارتقاب الذى كنت أرتقب به دخول العالم المسحور ، ارتقابا مشوبًا بالفزع ، وتلك كانت هى نفسها الأيام التى سمعنا فيها عن ألف ليلة وليلة ، لكننا سمعنا عنها من أفواه أولئك الأصدقاء الذين استعرت نيران الجنس بين جوانحهم ، فأقبلنا على قراءتها لا من حيث هى أدب من الأدب القصصى الرفيع ، بل من حيث هى كتاب فيه لمسات من الدعارة المحرمة ، ولذلك وجب أن يقرأ فى خفاء عن أولياء الأمر ، فطفقنا أياما متلاحقة فى إجازة الصيف ، نجتمع الصباح كله والعصر كله فى منزل زميل لنا كانت له فى داره غرفة خاصة لا أثاث فيها إلا حصيرة ممزقة على أرضها ، فنضع الكتاب على الأرض ونكبّ عليه ، أحدها يقرأ فى صوت مسموع ، والآخران يتابعون قراءته بالنظر الصامت ، حتى فرغنا من قراءة أجزائه جميعا .

وكانت تلك هى نفسها الأيام التى أخذ فيها الشعور الدينى يملأ قلوبنا ، فالأمر هنا لم يقتصر على صلاة تؤدى فى أوقاتها ، وعلى صوم نصوم به شهر رمضان فى حرٍّ يحفف الحلوq ويحيلها حطبا يابسا ، بل تجاوز أمر التدين عندنا كل هذه الحدود ، حتى كاد يبلغ بنا حد « الدروسة » أو قل إنه قد بلغها وأوغل فيها ، فكما أرادت لنا أيام المراهقة صحبة من أصدقاء تفتح أعيننا وآذاننا على عالم مسحور هو عالم الجنس ، فقد أرادت لنا كذلك أن نجتمع بمحلة دينية ، يتولى إمامتها شيخ وقور من أهل السودان ، قيل لنا إنه قد تخرج فى الأزهر ،

وكانت الحلقة تمتد ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء .

فى ميدان فسيح بالقرب من دارنا ، مبنى صغير يعلو عن مستوى الأرض درجتين أو ثلاث درجات ، له بوابات بغير أبواب من جهات ثلاث ، كان معدا ليكون مكانا يقف فيه حاكم السودان عند الاحتفال بالمولد النبوى ، لمر أمامه الفرق الصوفية ببيارقها ، وأما بقية العام ، فالمبنى متروك خلافا لمن شاء أن يأوى إليه فى ليل أو فى نهار ، وفى هذا المبنى كانت تعقد الحلقة الدينية كل مساء بين صلاة المغرب وصلاة العشاء .

وكان أعضاء الحلقة يستأجرون ذكانا صغيرا على بعد أمتار قليلة من ذلك البناء ، يخبزون فيه الحصر ، حتى إذا ما قربت ساعة الغروب ذهب منهم متطوع يرش أرض المبنى بالماء رشا خفيفا ، ويكنسه ، ثم يحىء بالحصر من عجزها ذاك فيفرشها ، فإذا ما أذن المغرب يكون الأعضاء قد تكاملوا ، فيقيمون الصلاة ، يؤمهم شيخ الحلقة ورائدها ومعلمها ، وهو الشيخ أبو قرين . حتى إذا ما فرغ المصلون من صلاتهم ، جلس الشيخ النحيل الوقور وحوله الأعضاء ، وأخذ يقرأ الدرس الدينى ويشرح ، إلى أن يحين موعد صلاة العشاء .

تلك كانت هى الحلقة الدينية التى وصلنا أنفسنا بها فى ذلك العهد الذى أتحدث عنه ، ثم ما هى إلا أن أصبحنا نحن .. أنا وأخى ... العضوين اللذين يوكل إليهما - إما معا أو بالتناوب - رش المكان بالماء وكنسه وفرشه وملء القلل بالماء البارد ، إعدادا للصلاة وللدرس الدينى ، ولو كان هذا الدرس اليومى مقتصرا على شرح أصول الدين وقواعده ، لما كان منه فى نفوسنا إلا حصيلة من علم ، قد تلمس طريقها إلى الرؤوس دون أن تمس من القلوب شغافها ، إذ لابد من التفرقة بين من « يعلم » أصول الدين وقواعده ، وبين من يتحول ذلك

« العلم » في قلبه إلى « وجدان » ، فهذان جانبان مستقل أحدهما عن الآخر ، قد يجتمعان في إنسان واحد ، وقد يتوافر أحدهما دون الآخر ، فهناك العالم المتبتل ، وهناك العالم في غير تبتل ، وهناك التبتل عن غير علم ، وهناك من يخلو من العلم والتبتل كليهما : أربعة أنماط من الناس ، لا بد من التفرقة بينها حتى لا نظن أن كل علم بالدين مقرون بالشعور الديني - وإنما قصدت بهذا أن أقول إن ذلك الدرس الديني الذي لبثنا نستمع إليه أشهراً طويلة لا نتخلف عنه يوماً واحداً ، بل يخلو لنا أن نقوم نحن بإعداد العدة له ، في تلك السن الهامجة بمشاعرها ، لم يكن درساً دينياً للعلم وحده ، بل كان يمتد إلى أشياء تهز وجداننا هزاً عنيفاً .

مثال ذلك أن الشيخ أبو قرين يبين لنا أسرار آيات قرآنية معينة ، وأسرار كلمات معينة ، فهذه الآية إذا قرئت كذا ألف مرة في ظلمة الليل ، أو تلك الكلمة إذا نطق بها كذا ألف مرة تعد على المسبحة ، ظهر ملك من ملائكة السماء فيبارك القارئ في دنياء وفي آخرته على السواء ... فهل كنا نسمع هذه الأشياء لمجرد العلم بها ؟ كلا ، بل كنا نسمعها لتنفيذها فوراً ، فإذا ما جئ الليل ونام الأهل ، أوى كل منا إلى ركن مظلم ، وأمسك بمسبحته وراح يهمس الآية أو يتمتم بالكلمة كذا ألف مرة كما أوصى ، وكنا حريصين ألا يتنبه أحد من أفراد الأسرة إلى هذا الذي نصنعه ، حتى لا يحول بيننا وبين أدائه ، ولكن الملائكة المرتقبة لم تظهر أبداً ، فهل كان يطوف ببالنا عندئذ أنها لم تظهر لأن الأمر كله خرافة في خرافة ، كلا ، بل إنها لم تظهر لأنه لا بد أن يكون هنالك نقص فينا - كأن نكون على غير طهر في الجسد ، أو على غير صفاء في النفس بالدرجة التي يتطلبها ظهور الملائكة ، وهكذا نردُّ العيب دائماً إلى شيء في استعدادنا الجسدي

أو النفسى ، ولم نردّه قط إلى تعاليم الدرس وتوجيهات الشيخ .
قيل لنا إن من يؤذن للصلاة يظفر عند الله بثواب أكبر ، فكنا نتسابق إلى
الأذان للصلاة بأصواتنا المتسلّخة ، ولست أدرى كيف كان يؤذن لنا بذلك
برغم ما فى أصواتنا من رداءة الأداء وقصر المدى ، ولعلمهم أحجموا عن منعنا
خشية أن يكون فى هذا المنع غضب يتزل عليهم من السماء .

تلك كانت هى الموجة الدينية الجارفة ونحن فى سن المراهقة ، لكنها برغم
ذلك لم تكن لتعارض فى أعيننا مع حلقات أخرى ، نجتمع فيها مع ثلة
الأصدقاء الذين لم يكونوا يتحدثون قط إلا فى الجنس وما يتصل به ! أياكون
هذان الجانبان من النفس الإنسانية على علاقة وثيقة أحدهما بالآخر ، حتى
ليحدث كثيرا أن تكون النقلة يسيرة بين الإمعان فى الدعاة والإمعان فى الزهد
والعبادة؟ كما حدث للقديس أوغسطين . ولرابعة العدوية ، ولتاييس — نعم قد
يكون الأمر كذلك ، حتى لقد اجتمع المعنيان فى كلمة عربية واحدة ، هى كلمة
« الحرام » بمعنى المقدس وبمعنى الممنوع فعله ، فيقال المسجد الحرام بالمعنى
الأول ، ويقال هذا الفعل حرام عليك بالمعنى الثانى — ومهما يكن من أمر ، فقد
جمعت أعوام المراهقة فى حياتى بين حلقتيْن فى آن واحد : الحلقة الدينية ،
وحلقة الحديث فى شئون الجنس .

لكن التقاء الجانبين فى نفس واحدة تعانى تحول المراهقة ، لم يكن يخلو من
صراع داخلى عنيف ، وكيف أنسى ذلك اليوم من رمضان وقد نال الصوم منى
ما نال ، فتهافت الجسد وانهار ، وانتشى الروح لهذا الضعف نفسه الذى هد
الجسد ، إذ علمونا أن الروح والجسد عدوان مايفكان يتصارعان ، وهزيمة
الإنسان هى فى أن تكون الغلبة للجسد وشهواته ، وسموه إنما يكون فى أن تتغلب

الروح ... إذن فقد كنت يومئذ مهلود الجسد منهوك القوى من وطأة الصيام في ذلك الحر الشديد ، لكننى كنت بروحى فى سماء عالية من الطمأنينة والرضى .

ويومئذ مررت فى بعض طريقى على دار أسرة تربطنا بها وشائج الصلة الوثيقة ، لأقضى فيها ساعة القيلولة قبل أن أستأنف السير ، ودخلت غرفة الضيوف وهى قريبة من الباب الخارجى ، بعيدة عن بقية أجزاء المنزل ، وفى تلك الغرفة وجدت فتاة من الأسرة - فى مثل سنى - قد جلست إلى مكنة الحيازة تهز قاعدتها بقدميها ، وتمسك الثوب المحيط بيديها ، فيكون لجسمها بهذه الحركة شىء من التوقيع والنغم ، أما أنا فقد حييت وجلست إلى منضدة قريبة وفتحت القرآن - وكنت أحمله معى - وأخذت أقرأ فى همس ، لا أحول بصرى نحو الفتاة إلا إذا وجهت إلى شيئاً من عابر الحديث ، فأرد عليها أو أوجه إليها شيئاً فترد ... فلقد كان بيننا وبين أسرة الفتاة من قوة الروابط ومن إلف العشرة ما لم يجعلنى أفكر فى الفتاة على أنها قد تكون من ذلك الجنس العجيب الذى تحدث عنه الأصدقاء فى أسماهم التى لم تنقطع ساعة واحدة من نهار ، ولم يطف برأسى قط - والله يعلم أننى صادق فيما أروى - أن تلك الفتاة التى تجلس على مقربة منى ، قد تكون هى النافذة التى سأطل منها - لأول مرة - على ذلك العالم المسحور ، أبداً لم يطف ببالى شىء من هذا ، وكأن كيانى كله عندئذ كان هو ذلك القرآن الذى أخذت أتلو آياته فى همس ، مدخلا نفسى فى عالمه ، ومازجا معانيه - بقدر إدراكى لها - بشغاف قلبى ، فكم علمنا الشيخ أبو قرين أنه رب صائم لم ينله من صيامه إلا الجوع والعطش ، ولم أرد أن أكون أنا هذا الصائم الذى يصوم عبثاً ، وفجأة دبّرت الأحداث أمراً ، وهو أن دخل عم الفتاة يسألها إن كان لديها شىء يلف فيه ثوباً جديداً كان يحمله على ذراعه ،

فأجابت بالنفي وخرج العم ، وعلقت الفتاة بعبارة تشير بها إلى معنى خفىّ وقرنت العبارة بابتسامة تنادى وبنظرة تدعو .

فإذا كنت قد رأيت شرارة النار ماذا تفعل بكومة من الدريس الجاف ، فقد رأيت ماذا فعلت تلك الشيطانة بجسدى الذى كان الصوم قد جففه ! لقد أشعلت فى أحشائه نارا - على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز - لأننى أحسستُ عندئذ لب النار يأكل جوفى أكلا ، ويعلو إلى وجهى فيشويه ، وتحول كيافى الملتهب إلى عينين ذاهلتين تنظر إلى الشيطان وقد تجسّد فى إنسانة من البشر ! لكن لسافى لم ينطق بحرف ، وسُمر بدنى كله على مقعدى ، وعيناها مازالت تدعو ، وابتسامتها مازالت تنادى ... ومضت ساعة أو ساعتان أو لا أدرى كم ساعة مضت ، حتى دنا وقت الغروب ووجب الرحيل .

خرجتُ أسلّم باللفظ من بعيد ، وذهبت إلى دارنا : مصحف القرآن فى يدى ، وجسد الصائم المنهوك يمشى بخطوات سريعة ، لا أعلم من أين جاءه الوقود ليسرع ، لكنه أسرع ، ووصل إلى الدار لحظة غروب الشمس ، وأفطر الصائم ، وذهب ليستمع إلى الدرس الدينى بين يدى الشيخ - بعد صلاة العشاء والتراويح - منصتاً أضعاف ما كان ينصت كل ليلة ، وخاشعا أضعاف ما كان يخشع ، كأنه أراد بذلك أن يقيم الأسوار الحصينة بينه وبين الغواية ... لكن هيات ، فلقد انفتح الباب المرصد عن العالم المسحور ، لقد كانت روحى يومها من جسدى كأنها يوليسيز من سفينته أثناء تجواله فى البحر ، حين ربط جسده إلى قلعها وشدّ على نفسه الوثاق ، إذ قيل له إن الساحرات فى إحدى الجزر على الطريق ، تُغنّين بصوت خللاب لا يملك دفعه إنسان من البشر ، فيخرج الملاحون بسفائنهم إلى حيث الصوت الساحر ، حتى إذا ما وقعوا فى

فخاخ الساحرات دارت بهم الختوف ، ولم يُرَدْ يوليسيز أن يضعف أمام الإغراء ، فشَدَّ نفسه إلى قلع السفينة شدا ، لكن السفينة اضطربت أيما اضطراب ومالت أيما ميل ، وهكذا كنت يومئذ من ساحرق ، تلك الشيطانة التى رسمت فى نفس الفتى المراهق صورة للمرأة كيف تكون ، فتوالت الأيام وكثرت الأعوام ، لكن الصورة قد رسخت فى نفسه لا تزول .

وها هنا بخطو الفتى خطوة نفسية قصيرة المدى ، فإذا هو مغموّر بحبه لقراءة الشعر ، وما هو أقرب إلى الشعر من نثر الناثرين ، فالزملاء فى المدرسة ما يفتأون يباهى بعضهم بما قرأوا من الشعر وبما حفظوا ، وأخذت تتردد بينهم أسماء سمعتها لأول مرة : الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران ، وليالى سطيح والبؤساء لحافظ إبراهيم ، والعبرات للمنفلوطى ، فاندفع فتانا فى هذا العالم الجديد اندفاعا ، لكنه كلما قرأ قصيدة فى الغزل ، أو وقع على كلام فيه لوعة الحب ، فهمه على ضوء ما كان يحسه إزاء تلك الشيطانة التى رسمت أمام خياله معالم الطريق .

فلطالما عبّرتُ طريق الأعراف بين عالم الجسد وعالم الروح ، فأعرج إلى السماء مرة وأهوى إلى الأرض مرة ، وتجسدت لى العلاقة بين الأرض والسماء ، كم هى قريبة إذا شاء الله ، ذات يوم وكان قد جاء إلى الأسرة وافدتان جديدتان هما أختان ، ثم وافد ثالث هو أخ لم يلبث على وجه الأرض إلا عاما وبعض عام ، وثقلت عليه العلة ، ولم ينقطع له أنين عدة أيام ، وفى ذلك اليوم الذى أعنيه - ساعة الضحى - لم يبق فى الدار - فيا أذكر - إلا أمى وأنا ، ولا أدرى أين ذهب الباقون ، وكان لابد للأُم أن تنظر فى شئون البيت فأجلستنى متربعا على السرير ، ووضعت الطفل العليل على ركبتيّ لئلا

أرفع عن وجهه نظري ، لأنها كانت تخشى فيه أمراً ، ومضت ساعة أو أكثر أو أقل ، والحشجة تزداد في صدر المحتضر ، ثم ما هو إلا أن مال برأسه ، وسكنت الحشجة ، ولم يعد الصدر يعلو ويهبط كما كان يفعل .. لقد مات راقداً على ركبتي ، فصرخت فازعاً ، وجاءت الأم في هلع ، ونظرت إليه ، وحملتة ملهوفة عليه ، وكأنها لم ترد أن تصدق أنه مات ، فصاحت في : اذهب كالبرق وناد خالتك أم محمد لتفحصه ... فلا أطباء ، ولا أحد من أفراد الأهل الأقربين هناك لأدعوه ، ولم يبق أمامها من موئل إلا جارة وقوراً ، هي التي صاحت بي أُمي أن أناديها على عجل .

وكان ذلك أول موت شهدته على مقربة ، حين كانت النفس منى حائرة بين أرضها وسماها ، فعلمت بما قد رأيت أن المسافة قريبة بين الأرض والسما وأراد الله أن يعوضنا أخاً مكان أخ ، فجاء من لقي منا كل إعزاز وتدليل ، وما يزال يلقى .

* * *

بهذا انتهت مذكرات الأحذب . أو ما استطعت أن أستخرجه من مذكراته ، لأن بها أجزاء كثيرة ممزقة أو مطموسة تتعذر قراءتها وهي مذكرات كتبها وهو في الخامسة والعشرين أو نحوها ومضت عليها خمسة وأربعون أخرى ، لأنه اليوم في السبعين .

الفصل الرابع

فاوست في قبضة الشيطان

١

أحسست من الطريقة التي أعطاني بها الأحذب مذكراته القديمة الممزقة ، أنه أراد أن يفض الأمر بينه وبينى فإذا كنت أتعبه لأكشف عن سره ، فهاهو ذا سره مكتوبا - ولم يعد بعد ذلك مايدعو إلى تعقبه في وحدته . لكنه في الحقيقة قد أخطأ الظن ، لأن قراءتى لمذكراته تلك لم تزدنى إلا رغبة في معرفة ما بقى من قصة حياته ، لأن تلك المذكرات إنما وقفت عند سن المراهقة أو بعدها بقليل ، فهاذا كان بعد ذلك حتى بلغ ما بلغه الآن من عمر؟ . لقد ختمت مذكراته بذكر أخ أصعر أضيف إلى أسرته ، وكأنما أضيف إليها تعويضاً عما كانت فقدته قبل ذلك بقليل ، فهاذا لو بدأت البحث بالسؤال عن بقية أفراد أسرته ؟ إننى فى الحقيقة لم أكن أسعى إلى تفصيلات حياته فى حد ذاتها ، لأنه لا تأثير اهتمامى إلا بمقدار ما تكشف لى عن السر الدفين فى أن تكونت له تلك العاهة النفسية التى برزت على ظهره قتما يكبر حيناً ويصغر حيناً ، وهى نفسها العاهة - أو لعلها أن تكون - التى مالت به إلى خشية الناس وإلى الانفراد بنفسه فى مسكن منعزل أو فى ركن من المدينة قصى بعيد .

ولم يطل عنائى فى السؤال عن أفراد أسرته ، والمصادفات فى أمثال هذه

الأمر تسعف الباقين أكثر جدا مما يتصور الناس ، كأن لهذه المصادفات قوانينها التى تشبه قوانين العلوم : فيندر أن يتفياً الإنسان فى حياته غاية يريد بلوغها . إلا وتولد له المصادفات مما يشبه العدم أو المحال ، فتقدم له المعونة وتخلق له الظروف التى تحقق له غايته المنشودة

جلست على مقهى فى ميدان السيدة زينب بالقاهرة . ولم تكن تشغلنى عندئذ مسألة الأحذب وأسرته ، فإ هو إلا أن لحنى من الطريق صديق قديم منذ عهد الدراسة . فضلا عن كونه متميا إلى القرية نفسها التى أنتمى إليها . فجاء مسلماً ، ودعوته للجلوس ، فنظر فى ساعته ليرى إن كان الوقت يسمح له بجلسة قصيرة معى ، ثم جلس ؟ ثم لم تكد أطراف الحديث تتصل بيننا حتى ورد ذكر الأحذب ورودا سريعا فى حديثه ، فاستوقفته فى لفة نهته إلى أهمية الأمر عندى ، مما دهش له :

قلت : من هذا الأحذب الذى ذكرته الآن ؟

قال : هو رجل عرفته منذ سنين ، حين تزامننا فى إحدى مدارس الريف ، وبينى وبينه قرابة بعيدة .

قلت : هلا حدثنى بأى شىء تعرفه عن أفراد أسرته ؟

قال : وما سر اهتمامك به ؟

قلت : لقد عرض لى فى طريق الحياة لفترة وجيزة . أثار فيها استطلاعى . ولم أعلم عنه بما يشيع رغبى . ولو لم يكن على شىء من الغرابة اللافتة للأنظار ، لما عنيت به . وكان واحداً من ألوف الناس الذين يعيشون فى طريق الحياة ويذهبون .

قال : صدقت . إنه على كثير من الغرابة . ولكنى - على كل حال -

لا أعلم عنه إلا أقل من القليل . بسبب انطوائيه الشديدة في معظم الأحيان ، انطوائية لا تشجع أحداً على الاقترام ، ومع ذلك فصلة القرني البعيدة بيني وبينه قد أتاحت لى أن أعلم بأن أباه كان ملحقاً بحكومة السودان ، ولقد اصطحب ابنه هذا إلى هناك وهو غلام . ومضت أعوام لا أعرف عددها ، ثم عادت الأسرة كلها إلى القاهرة . وكانت عند العودة مؤلفة من الوالدين وثلاثة أبناء وبنتين ، وهذا الأحذب هو أكبر الأبناء .

قلت : ومن هما أخواه ؟

قال : أحدهما قريب من سنه . وهو يزامله زمالة لم أشهد مثلها في أخوين ، فلقد كانا على طريق في الدراسة واحد ، وتخرجنا معا ، واشتغل كلاهما بالتدريس أول الأمر ، وأظن شقيقه هذا الآن مديراً للتعليم في منطقة القناة : وأما أخوهما الأصغر فأظنه طبيباً في إحدى عواصم الصعيد . وتركنا سيرة الأحذب بعد هذه العجالة المفيدة . واستأذن صديقي بعد دقائق قليلة ، وتركني على عزيمة بأن أقصد إلى شقيقه مدير التعليم ، لعله أن يكون طريق الوصول إلى ماكنت أبتغى الوصول إليه من تفاصيل تكمل سيرة حياته . ويكون لها عندى دلالتها في تكوينه النفسى .

ولن أطيل في ذكر التفاصيل التي اعترضت طريقى في البحث عن شقيق الأحذب ، وهو الذى قيل لى عنه إنه والأحذب بمثابة التوأمين بالروح . فهما وإن يكن بينهما في العمر ستان ، والأحذب يكبر بها شقيقه ذاك . إلا أنهما بدءا الدراسة معا وتلازما في كل مراحل الحياة بعد ذلك ، حتى لقد تشابها في الفكر وتشاركاً في مجموعة الأصدقاء ، وتزاملا في كل ما قد عرض لهما أثناء الطريق ، ولا يكاد أحدهما يكن سرا لا يطلع عليه توأم روحه ، فهما في الحق - كما قال لى

القائل عنها - قد أوشكا أن يكونا شخصًا واحدًا في جسدين .

وصلت إلى الشقيق خلال إجازة قصيرة كان يقضيها في القاهرة ، ولم أرد أن أُلّف معه وأدور ، بل - كاشفته بكل ما جشته من أجله ، وهو أنى رأيت في أخيه الأحذب ما أثار اهتمامي وأردت أن أتعقب تاريخه ، لاحقًا منى في استطلاع غوامض الناس لمجرد الاستطلاع ، بل لأنى أردت أن أتخذ منه موضوعا للتحليل المفيد ، فهو بغير شك يمثل نموذجًا صالحا للدراسة التى نستبين بها مدى ما تفعله عوامل النشأة في تكوين النفوس ، ولو كان إنسانا على الصورة المألوفة للإناسى ، لما لفت الأنظار ، لكنه هو حبه للعزلة والانطواء على نفسه وخوفه من مخالطة الناس . دون أن يكون ذلك صادرا عن شك في نواياهم بالنسبة إليه ، وإنما هى عزلة وانطواء وخوف قد أصبحت جزءا من كيانه ، لا يطمئن إلا بها ، ولا يكتمل له وجوده إلا إذا تحققت له ، فما الذى ينتهى بانسان إلى مثل هذا ؟ ذلك هو السؤال .

استمع إلى شقيقه برحابة صدر ، ثم سألتنى : أين التقيت به . وكيف ؟ فقصصت عليه ما كان ، وذكرت له شيئا عن مذكراته التى أعطانى إياها عن حياته الأولى ، لكنها مذكرات تنتهى عند أول الشباب .

فروى لى الشقيق فى إيجاز عن أخيه - وهو لا يشير إليه باسم الأحذب كما كنت أشير - بل يسميه باسمه الحقيقى ، وهو رياض - فقال : كان أخى رياض لم يزل فى سن باكرة من شبابه حين أوشكت كلية غوردون الثانوية أن تنحرف به إلى عمل متواضع يؤديه لحكومة السودان ، إذ أن تلك الكلية لم تنشأ أساسا إلا لتغذية الحكومة بمن تريدهم من العاملين على اختلاف الأنواع - من عمل فى أو مهنى إلى عمل كتابى أو غير كتابى ، فأسرعت الأسرة بإرساله إلى القاهرة

ليستأنف دراسته ، ولحققت به أنا بعد قليل . حيث عدنا إلى متابعة السير على طريق واحد

وماهو إلا أن فرغنا من المرحلة الثانوية ، وكان علينا أن نختار من المدارس العليا القائمة عندئذ ما يطيب لنا أن نختار - وتلك المدارس العليا هى التى تحولت بعد قليل إلى كليات الجامعة - وماهنا لعبت الأقدار لعبتها المألوفة ، وهى أن تقذف فى طريق الإنسان عندما يكون فى مفترق الطرق ، ما يميل به إلى هذا الطريق أو ذاك ، فترى الإنسان فى أمثال هذه المواقف الحاسمة قابلا للتأثر بأوهى العوامل .

ولقد شئت المصادفة أن يكون لنا قريب نخرج من مدرسة المعلمين العليا ويعمل بالتدريس فى إحدى المدارس الثانوية ، لكنه كان من ذلك الصنف الذى يجيد حسن المظهر ، وكان الوقت أوائل الصيف ، عندما انعقدت فى القاهرة لجان التصحيح للشهادات العامة ، وجاء صاحبنا من مدرسته التى يعمل بها - وأظنها كانت فى الإسكندرية - ليشارك فى لجان التصحيح ، ورأيناه نحن عندئذ نزيلا فى فندق ممتاز ، ويلفت الأنظار بروعة هندامه وارتفاع المستوى الذى يتحرك فيه كلما قضى سهرة هنا أو جالس بعض أصدقائه هناك ، حتى لقد خيل إلينا أنه النموذج الحى لما نريد لحياتنا أن تكون عليه .

وإذن فقد انحل الإشكال وتحدد أمامنا طريق الاختيار ، وهو أن نسلك الطريق نفسه الذى سلكه صاحبنا ، فإلى مدرسة المعلمين العليا بغير تردد ! ولم نكن فى هذا الاختيار على ضلال ، لأن طريق المعلمين العليا - بالنسبة إلى طلاب الدراسة الأدبية - لم يكن عندئذ ينافسه طريق آخر لمن أراد أن يضمن لنفسه « وظيفة » بعد تخرجه ، ولا غرابة أن كانت « الدفعة » التى شملتنا

من دخلوا مدرسة المعلمين العليا في ذلك العام (١٩٢٦) تحتوى على نسبة كبيرة جداً من أصحاب المجموعات العالية في امتحان « البكالوريا » .

٣

سار شقيق الأحذب بالحديث إلى هذا المدى القصير ، ولأمر ما أخذه القلق وأراد أن يترك الرواية للأحذب نفسه ، لا سيما ومطلب الباحث هو العوامل الداخلية التي عملت على تكوينه ؟ فحتى هذا التوأم الروحي له - أعني شقيقه - قد تخفى عليه الخلجات الباطنية ولا يرى من الأمر إلا ظواهره ، ولقد تعهد لي أن يصلني بأخيه الأحذب على النحو الذي يشق أمامنا الطريق ، وذلك ما حدث .
وابتسم لي الأحذب كأنما أراد أن يسألني : أين كنت ، وفيم اللجوء إلى أخى ؟ ولم يكده أخوه يتركنا وحدنا ، حتى دار بيننا حديث مقتضب في أمور مختلفة ، استطعنا بعدها أن نضع أنفسنا في موقف نستأنف به الرواية عند النقطة التي ختم بها أخوه حديثه ، قال :

أربع سنوات قضيتها في مدرسة المعلمين العليا ، كانت هي التي وضعت لي أساس التحصيل العلمي الغزير ، وهي التي أمدتني بمجموعة الأصدقاء الذين كانوا هم العالم الصغير الذي أحاطني بعوامل الحب والتنافس معا ، وهي التي بذرت في نفسي تذوق الأدب والفن ، وهي التي وضعت أمامي عددا من النماذج البشرية التي أحتذيا ومن النماذج التي أنفر منها وأجتنبها ، وهي التي كانت بمثابة المرحلة التحضيرية الحقيقية لمستقبلي كله قارئا أو كاتباً .

كانت الأسرة - والوالد بصفة خاصة - قبل ذلك هي المحيط المؤثر بكل ما فيه من حوافر تحفز ومحبطات تؤدي إلى الكساح ، وأما بعد ذلك فالحيط المؤثر

هو تلك المدرسة بما ذكرته عنها ؟ ولعل لا أخطئ كثيراً لو أجملت أثر المرحلتين في نفسى فقلت إن عوامل الحفز في المرحلة الأولى كانت على سبيل التحدى ، وأما عوامل الحفز في المرحلة الثانية فقد جاءت عن طريق التنافس والطموح الإيجابي الذى لا يتحدى أحداً بذاته ، ولكنه يريد المزيد ويريد الصعود لذات الزيادة والارتفاع ، وكانت الحلقة الواصلة بين المرحلتين هى أخى توأم الروح - كما قيل لك عنه بحق - فقد كان معى في المرحلة الأولى ونحن نتحدى العوامل التى تحيط بنا معاً ، كما كان معى في المرحلة الثانية ونحن نطمع في مزيد ونطمح إلى صعود ...

سكت الأحذب وانقبضت أسارير وجهه وسرح ببصره إلى السماء ، وفوجئت بهذا التغير الغريب . حتى لقد نظرت أنا الآخر إلى حيث اتجه ببصره لأرى إن كان هناك ما استدعى ذلك التغير ، لكن لا شئ ، إنها طبيعته المتقلبة بين انبساط سهل وانقباض يائس ، ولماذا لا أقول إن هذه الطبيعة نفسها هى طبيعة المصرى ، وكل ما فى الأمر عند الأحذب أن تلك الطبيعة المتأرجحة بين بسط وقبض قد تطرفت فوضحت معالمها ، إنك لا تدري أين الصواب حين تريد وصف الطبيعة المصرية : أتقول عنها إنها سهلة منبسطة ضاحكة في غير تعقيد ؟ أم تقول عنها إنها مأساوية حزينة ؟ أقول إنك لا تدري أين الصواب هنا ، إذ يبدو أن الصواب فيهما معاً ، وحسبك أن تقف أمام التماثيل المصرية القديمة لترى جهامة الجلد قد عبست بها الجباه ، لكن الشفاه مع ذلك تفر عن ابتسام . هو أقرب إلى ابتسام الساخر من الحياة ؟ أم لا أكثر ما يوصف المصرى أو يصف نفسه بالمرح ولذع النكتة ، وما أكثر كذلك ما سألت نفسى : أصحيح ما يوصف به المصرى من مرح ؟ إني لا أراه كذلك ، وإلا فأين جانب

المرح في نتاج أدبائه ؟ وأما النكتة اللاذعة فلا ريب في شيوعها . ولكنها على الأغلب نكات المرارة والإحباط .

وصديقنا الأحذب مصرى صميم . فيه ما في طبيعة مصر التي ربما حددت معالمها خضرة الزرع في الوادى ملاحقة لصفرة الرمل في الصحراء ، فبين اللونين خط فاصل . حاد لا يتدرج في هذه الناحية أو في تلك ، وبذلك تجاوزت في نفس المصرى حالة الأمل الضاحك وحالة اليأس العابس ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى بغير تمهيد وبلا تدرج .

ظلنا صامتين فترة ، ثم استدرجته لمتابعة الحديث ، فقلت له :
- قد أفهم أن تمدك دراسة المعلمين العليا بالعلم الغزير ، ولكن لا أفهم كيف جاءك منها تذوق الأدب والفن ؟

- فأجاب : لعلها مصادفات ، فلقد شامت المصادفة أن يبدأ لنا أستاذ الأدب الانجليزي بشرحه لقصيدة ورد زورث التي نظمها عن الزرجس الأصفر ، والتي يقول في سطرها الأول ما معناه : « تجولت وحدى كالسحابة » ، وأخذ ذلك الأستاذ يحلل هذا السطر وحده في درس كامل ، مما جعلنى أستمع إليه وأنا ذاهل لما يمكن أن يتكشف عنه بيت واحد من الشعر لو وجد الناقد . الدارس الذى يفجر ألفاظه تفجيراً ليخرج مكنونها ، ولم أكن أعهد فيما قرأناه وحفظناه قبل ذلك من الشعر العربى ، لم أكن أعهد مثل هذا التحليل العجيب ، فلو قلت الآن إن هذا الدرس الأول في النقد الأدبى ، الذى تناول به الناقد المعلم الشارح سطرًا واحدًا هو فاتحة القصيدة ، لو قلت الآن ! إن هذا الدرس الأول عن ذلك السطر الأول هو بذرة التحول عندى في قراءة الشعر كله والأدب كله ، لما بعدت عن الصواب .

وربما شاءت مصادفة نكدية أن يحى محاضر الأدب العربى فى إثر ذلك
الدرس الأول العجيب فى الأدب الإنجليزى ، فكان هذا المحاضر العربى شيخا
يضع أمامنا أبياتا من الشعر الجاهلى وكأنه يقدم لنا أحجارا خشنة غلاظا لا تقوى
على هضمها أقوى المعدات ، ولا هو فى وسعه أن يفك تلك الجلاميد لتخرج
مكونها أمام الأبصار ، فبقدر ما كان الدرس الأول طاقة فتحت أمامى الطريق
إلى سماء فى الفهم الأدبى تعلوها سماء ، كان الدرس الثانى - ولو بالمقارنة بما
قبله - صارخا بأن تراثنا الأدبى يحتاج إلى أيدٍ أخرى غير الأيدى التى كانت
تعبت بذلك التراث وهى عجماء

وكذلك كان لنا أستاذ فى الفنون ، لا أقول إنه ذواقه للفن بحيث جاءتنى منه
العدوى ، لأننى - حتى فى تلك السن - كنت أدرك أن تعليقه على أعمال
الفنانين ينقصها شىء من الحساسية ، لكننى برغم ذلك أشهد له بأنه كان بمثابة
من فتح أمامنا بابا وقال هاكم المروج الفسيحة إذا أردتموها فادخلوا إليها من
هذا الباب ، ومن هنا بذرت فى نفسى بذرة ربما كانت ضئيلة ضعيفة مقيسة إلى
بذرة التذوق الأدبى - أقول إنه من هنا قد بذرت فى نفسى بذرة الالتفات إلى
دنيا الفنون .

وقد أظلم نفسى إذا لم أذكر هنا بأن الحاسة الأدبية - متمثلة أول الأمر فى
الحس بالألفاظ وجرسها - قد انغrust عندى منذ الطفولة الباكرة التى قد
لا تصدقنى إذا حددت تلك الطفولة الباكرة بسن التاسعة أو العاشرة ، وإنه لمن
الأحداث المحفورة فى ذاكرتى منذ ذلك الحين البعيد ما حدث لى ذات يوم وقد
دعيت مع بقية أفراد الأسرة إلى حفلة زواج ، وما كان أشد دهشة الحاضرين
جميعا والحاضرات ، وهى دهشة اختلطت معهم بضحكات الهزء والتصغير ،

عندما فاجأت الجميع بأن صعدت على كرسى فى ركن الغرفة وأخرجت ورقة وأخذت أتلى خطبة التهئة التى كنت قد أعددتها سراً.

أذكر ذلك لأستشهد به على ميل مبكر نحو صياغة اللفظ التى قد تكون عتبة الدخول فى رحاب الأدب تذوقاً وإنشاءً ، وربما كان هذا الميل المبكر عندى هو الذى جعلنى ألتقط شعاع النور حين أرسله أستاذ الأدب الإنجليزى وهو يقدم لنا قصيدة وردزورث ، وهو الشعاع الذى أضاء لى طريق الأدب كيف يكون إبداعه وكيف يكون فهمه وتذوقه ، فإذا كان جرس اللفظ هو الذى ملأ سمعى قبل ذلك ، وهو أيضاً ما أراد أن يؤكد فى آذاننا شيخ الأدب العربى يومئذ ، فإننى بعد ذلك الدرس الأول الملهم قد أدركت أن الأدب شىء آخر ، يستخدم قوة اللفظ والعبارة بما فيها من تنعيم ، ليجعلها أداة موصلة لذلك الشىء الآخر - وهذا الذى انغرس فى نفسى عن الأدب ، قد اتسع معى فيما بعد ليكون مبدأً عاماً يشمل جميع الفنون .

ولقد ظهرت معى محاولات أولى منذ ذلك العهد ، أمزج فيها بين النغم والمعنى ، لعل من أوائلها حادثاً عابراً كان أقرب إلى اللهو المازح منه إلى الجد البناء ، وذلك أن مجلة مصورة فى ذلك الحين - أظنها كانت مجلة « اللطائف المصورة » - قد أعلنت عن مسابقة يكتب فيها المتسابقون أسطراً لا يزيد عدد كلماتها عن أربعين كلمة - فيما أذكر - بحيث يصفون فى هذه الأسطر القليلة ماذا عساهم صانعين لو علموا أن نهاية العالم ستكون بعد ساعة واحدة ، فكتبت مع الكاتبين ، وبالطبع لا أذكر ما كتبت ، لكننى أذكر أننى قلت إننى لا أعمل شيئاً ، وماتزال ترن فى أذنى إلى اليوم عبارة وردت فى أسطرى ، قلت فيها إننى وقد « وجدت الدقائق تمر سراعاً ، والقلب يندق تباعاً » مع ما تكاثر فى خاطرى

مما ينبغي عمله في هذه الساعة الواحدة الباقية ، لعجزت عن التنفيذ .
وجاءت نتيجة المسابقة بفوزي بجائزتها الأولى ، وكانت جنيتين !! لا ، إنه
لمن أفدح الخطأ ألا تقيس هذه الأمور بما يصاحبها من مشاعر وبما يحيط بها من
ظروف ، فأنا الآن حين أقول إني كسبت جنيتين ، لا يسعني إلا الضحك كما
أراك أنت الآن ضاحكا مما سمعت ...

- أردت الاعتذار فقاطعتني الأحذب قائلا : لا تعتذر ، فهو أمر طبيعي
لا غرابة فيه ، لكنه هو نفسه الأمر الذي يميل بأبناء الحاضر أن يظلموا أسلافهم
عند الحكم عليهم : فقد يقيسون أعمالهم بمقاييس عصرنا فيجدونها ضئيلة نحيلة
فيهزأون ؟ ما علينا من هذا الآن ، كسبت ذينك الجنيتين من تلك المسابقة ،
فقل ما شئت عن فرحتي التي أحسستها بالفوز في ذاته أولا ، وبالمال نفسه ثانيًا
ماذا تظن عن موقفنا عندئذ من المال ؟ بضعة قروش نتحرك في مجالها !
وجاعني صديقان ممن كانت الصلة قد توطدت بيني وبينهم ، يلحان في نزق
الشباب وخفته أن نذهب جميعاً : أنا وأخي والصديقان ، لننفق هذين الجنيتين
في « فسحة » نخططها لتستوعب كسبي كله : وكانت أول الخطوة أن نذهب الى
مسرح يوسف وهبي .

وذهبنا وكانت المسرحية القائمة تلك الليلة هي « كرسى الاعتراف » - لم
أكن قد شهدت قبل ذلك في حياتي مسرحاً ولا عرفت كيف يكون ! كنت
أسمع عن دنيا المسارح ، لكنني كنت أحسبها بديهة من بديهيات الرياضة أنها لم
تخلق لي ولا خلقت لها ، أما وقد ذهبنا ، وأما وقد رأيت ما رأيت ، فلست
أدرى بأى لغة أستطيع أن أصور لك الهزة العميقة العميقة التي اهترت
بها نفسي لما رأيت ، فكل ما رأيته جديد ، وكل ما سمعته جديد ، وعدت إلى

دارى ذلك المساء لأحلم بما قد رأيت وسمعت ، والحق أنه كان فتحا جديدا في حياتى ، لا لأن المسرحية والتمثيل يستحقان كل هذا الثناء ، فأنا لم أكن ليلتها على أدنى درجة من العلم بدنيا المسرح ، فقد تكون تلك المسرحية جيدة وقد لا تكون ، وقد يكون الممثلون أجادوا أو لم يجيدوا . لم يكن ذلك هو مدار انتباهى ، بل كان المدار هو هذه الدنيا الجديدة نفسها حين انكشف عنها الستار .

٣

نهض الأحذب واقفا بغير تمهيد ، ودون أن تبدو على وجهه معالم الضجر المألوفة عنده حين يضيق صدره ، قال :

— لماذا لا نخرج فى الهواء الطلق ساعة أو ساعتين ، وقد نكمل الحديث هناك ؟

— أنت وماتريد .

وخرجنا معا وكأنى بالأحذب قد استقام ظهره بعض الشيء لكننى لم أمعن النظر حتى لا أعكر عليه الصفو الذى هو فيه ، وسرنا فى الطريق لا يبدو على سيرنا أنه هادف إلى مكان بعينه ، فلم أكن من ناحيتى أريد التدخل ، وتركت له القيادة ، قانعا بأن يكون الحديث بيننا فى أثناء الطريق مسترسلا فى مجراه الطبيعى الهادئ ، على أننى ما لبثت أن تبينت خطة سيره ، إذ أراد لنا الجلوس فى مكان يقع على النيل فى مكان قصى شمالى القاهرة . كثيرا ما مررت به وسألت نفسى : ترى أى مجنون تحدّثه نفسه بالجلوس فى هذا المكان البعيد عن كل عمران . ومع ذلك فلا بد أن يكون له زائرون وإلا لأغلق صاحب المكان أبوابه وانصرف إلى سواه .

جلسنا هناك وكنا وحدنا ، فقد يكون زبائن مكان كهذا من ذوى المزاج الشاذ الذين إذا اختار سائر الناس ساعات النهار اختاروا هم ساعات الليل ، ولم نكد نستوى على مقاعدنا ونطلب شراب الليمون ، حتى حركت فى صديقى شهوة الحديث فيما كان بصددده ونحن فى غرفة مسكنه .

قال : الذكريات حلوة حتى وإن كانت فى حينها مصدراً للمرارة والألم ، وإن حياتنا فى تلك السنوات الأربع التى قضيناها - أختى وأنا - فى مدرسة المعلمين العليا ، لمى فى الحق حياة لم تخل من ضحك وضيق ، لكننا برغم ذلك لم نكن نحس مما نحن فيه إلا بالحيوية الدافقة تدفعنا إلى العبء من ثقافة أيامنا عباً يمتلئ الإباء ! كنا نجمع كل ما كان يخرج أعلام الفكر والأدب من كتب خلال العام الدراسى لنجعله زادنا فى أثناء إجازة الصيف ، على أن كل ما كانت تخرجه المطابع عندئذ خلال العام كله لم يكن ليجاوز أصابع اليدين ، ولم تكن أثمان الكتب بحيث نعجز عن الشراء .

كان أحمد حسن الزيات قبيل ذلك الزمن بقليل ، قد أخرج كتابيه المترجمين : « آلام فيرير » لجيته ، و « رفائيل » للامارتين ، فكم مرة تظننى قد قرأت هذين الكتابين ؟ لو قلت إننى قرأتها على الأقل ثلاث مرات متوالية لما بالغت ، لأن لغة الترجمة سحرتنى إلى حد الفتنة ! وإن لم تكن هى فتنة المسحور ، فماذا تسمى هذا السلوك الآتى : أردت أن أكتب خطاباً إلى أبى ، وكان لم يزل فى منصبه فى حكومة السودان بالخرطوم ، وكنت قد عدت من إجازة قصيرة قضيتها معه هناك ، وكان طريق السفر تتخلله مرحلة بالسفينة البخارية فيما بين أسوان ووادى حلفا ، وفى هذه المرحلة النهرية كان يحدث للسفينة أن تقف بركابها عند أبى سمبل ، ليستطيع من أراد ، أن يزور ذلك المعبد

القديم المنحوت في حجر الجبل ، فلما أردت الكتابة إلى أبي بعد عودتي إلى القاهرة ، أغرنتني صفحات جميلة في « رفائيل » يتحدث فيها الكاتب عن معبد قديم ، فانتحلتها لنفسي وكتبها خطابا مستفيضا لأبي ، دون أن أذكر له شيئا عن حقيقة ما كتبت ، لأوهمه بأنني صاحب هذا الإبداع ، ومن الفتنة نسيت أن أضع في الخطاب - لا في أوله ولا في آخره - التحية المألوفة في الخطابات التي يرسلها ابن إلى أبيه فأرسل إليّ يعاتبني على إهمال تحيته في الخطاب . ولم يذكر لي شيئا عما ورد في الصفحات الطوال التي نسختها وبعثت بها إليه .

فتنت بأسلوب الزيات يومها ، فلا هو الأسلوب الذي يفوح بالقدم لما يرد فيه من لفظ غريب وسجع أغرب ، ولا هو الأسلوب الذي يخلو من العناية باختيار اللفظ ويصقل العبارة صقلا يعطيك شيئا من التوازن بين أجزائها ؟ نعم كانت كتب المنفلوطي هي الأخرى أمرا يشبه أن يكون واجب الأداء ، فليس قارئا بين الشباب من لم يقرأ « العبرات » و « النظرات » للمنفلوطي ، ولكن كان شائعا بين هؤلاء الشباب من الكاتبين أن يستخدموا كثيرا من « لوازم » المنفلوطي في التعبير ، ولست أقول إنني نجوت من هذه العدوى ، لكنني أقول إنني أضفت إلى ذلك ما لم يصفه كثيرون غيري ، وهو الإعجاب بأسلوب الزيات إعجابا تمنيت أن يكون له أثر عندي وصدى .

وكانت « للمطالعات » و « المراجعات » وغيرها مما أخرجه العقاد في ذلك الحين أو قبله بقليل ، أثر في عقولنا أكثر منه أثرا في قلوبنا أو في أسلوبنا ! فعند العقاد وجدنا زادا فكريا غزيرا ، لقطناه ووعيناه ورددناه في أحاديثنا إلى حد الإسراف ، فن ذلك مثلا أننا حين عرفنا فكرة العقاد عن الجلال بأنه هو الحرية ، بمعنى أن الشيء يكون جميلا بمقدار ما يتغلب على القيود وينساب في

حركة سهلة ، كالنهر الجارى بالقياس إلى الماء الآسن ، وكالبدن الراقص بالقياس إلى البدن الثقيل البطيء ، وكالزهرة الطبيعية التى تشف عما يجرى فى أوراقها من عصارة الحياة بالقياس إلى زهرة شبيهة بها صنعت من ورق وهكذا ، أقول إننا حين عرفنا فكرة العقاد هذه فى إرجاعه صفة الجمال فى الشيء إلى ما يكون فى ذلك الشيء من حرية الحركة وعفوية الحياة ، ملكت علينا عقولنا إلى الحد الذى جعلنا - أخى وأنا - حين ذهبنا فى إجازة الصيف إلى الريف ، واعتدنا الجلوس أمام دكان لبقال كان يرحب بأمثالنا من طلبة العلم يجلسون للمناقشة أمام دكانه ، يسمع منهم معجبا وهو صامت ، إلا ذات مرة طرقتنا نحن فيها فكرة العقاد فى الجمال ! فى هذه الحالة لم يستطع البقال الريفى - وكان على شيء يسير جدًّا من العلم الأزهرى - أن يمكس لسانه بالصمت ، فتدخل فى حديثنا ساخرًا من هذا الكلام الفارغ الذى نقوله أو يقوله العقاد عن الجمال ، ثم زعم لنفسه المعرفة العملية - لا النظرية - بالموضوع ، وهى عنده معرفة ترجع ألف مرة ما ينقله القارئون من الكتب ، فهو كما قال متحمسا - متزوج من أربع زوجات ، ولم يكن للعقاد زوجة واحدة ، فمن حق أمثاله أن تكون لهم كلمة فى طبيعة الجمال أكثر جدًّا مما يكون ذلك من حق رجل كالعقاد ، أو من حق شباب مثلنا لم يكن لهم بدنيا النساء علم ! قال ذلك جادا ، فلئن كان الرجل عجبيا فى انعراجه بالحديث إلى ما لم تكن نغنيه ، فذلك مفهوم من رجل مثله لم يتسع أفقه لأمثال هذه الأفكار النظرية فى علم الجمال ، أقول إن كان هذا الرجل عجبيا ، فنحن كنا أعجب منه وأغرب ، لأننا قابلنا جده يجد مثله ، وأخذنا بكل الحرارة المشتعلة ندافع أمامه عن فكرة العقاد تلك ، بأن الجمال كائن فى الحرية من القيود والمعوقات مهما يكن نوع الشيء

الجميل ، ومهما تكن ضروب القيد والتعويق .

وكان سلامة موسى داعياً آخر من دواعي انشغالنا الفكرى فى تلك السنين ، خصوصاً حين نشر كتابه عن « الحرية » وكتابته عن « التطور » ، وسأقص عليك القصة الآتية : إننى حين قرأت كتاب « حرية الفكر » - وهذا هو عنوان الكتاب كاملاً - وجدت فيه قصة الإمام ابن حنبل وماتعرض له من محنة يقشعر لها البدن لما فيها من قسوة فظيعة بالرجل ، لمجرد أنه خالف رأى الخليفة المأمون فى مسألة القرآن : أهو قديم أم حديث مخلوق ؟ فالخليفة يريد للناس أن يقولوا عن القرآن إنه مخلوق ، والإمام أحمد بن حنبل يصصر على أنه قديم ، فكان ماكان من تعذيب له حتى يغير رأيه ، لكنه لم يغيره .

لم أكن قبل ذلك سمعت بهذه المشكلة الغريبة ، ولم أفهم شيئاً من هذين المصطلحين « مخلوق » و « قديم » بالنسبة للقرآن ، فانتهزت فرصة فى أول محاضرة فى التاريخ الإسلامى - وكان هو مقررنا فى التاريخ لذلك العام - وسألت الأستاذ المحاضر عن المشكلة وما أصلها وفصلها ؟ وكان الأستاذ قد عاد لتوه من بعثته بالانجلترا ، وكنا قد لاحظنا عليه نواحي كثيرة من ضعف الشخصية ومن الخصائص التى تبعث على الاستخفاف به والسخرية منه ، حتى لسرعان ما أصبحت نوادره حديث مجالسنا ، لكن لم يكن لأى شىء من ذلك دخل فى جدية سؤالى . وفى جدية المأخذ الذى توقعت أن أجاب به ، فم كان أشد دهشتى حين ثار الأستاذ ثورة صبيانية ، وأمرنى بالخروج من قاعة الدرس ، وبينما كنا نتجادل فى عنف دق الجرس : فأسرعت لأشكو إلى العميد هذا التصرف من الأستاذ ، وخصوصاً وقد قضى بجرمانى من حضور محاضراته إلى آخر العام : فلکم دهشت مرة أخرى حين رأيت الأستاذ يجرى جرىاً فى فناء

المدرسة ليصل إلى غرفة العميد قبل أن أصلها ، ودخل هو وأمرت أنا بالانتظار ، حتى إذا ما خرج سُمِحَ لي بالدخول : ولم أبدأ الحديث إلا وقد تلقيت اللعنات والشتائم ، والأمر بالأحضر محاضرات التاريخ الإسلامى إلى أن يأذن لي الأستاذ بذلك .

وأما طه حسين فقد كان هو الذى ملأ خيالى فى تلك الأعوام ، ليست المسألة هنا متعلقة بالمادة المكتوبة نفسها ، وإلا فلست أظن أن طه حسين بما كان ينشره عندئذ أغزر فكراً من سواه ، لا بل ربما كان العقاد أو سلامة موسى أو الدكتور محمد حسين هيكل أوفر محصولاً من محصوله ، لكن المسألة متوقفة على الروح التى ييئها فى النفوس ، ولذلك فقد كان طه حسين دون هؤلاء جميعاً هو الذى انشقت له جماعة المثقفين معسكرين : معسكر معه يؤيده ويسانده ومعسكر ضده يعارضه ويحاربه ، ولقد كنت بغير شك من المؤيدين المساندين ، إنك تظلم طه حسين لو وزنت مقداره بوفرة المحصول الفكرى الذى قدمه للناس فى كتبه ، لأنه استمد معظم قيمته من قدرته على تغير الاتجاه ، إنه لم يكتب ما كتبه لمجرد الرغبة فى الكتابة أو الرغبة فى اكتساب الرزق بل ولا مجرد عرض الأفكار المنقولة أو المبتكرة ، وإنما كان يكتب ليغير وجه الثقافة فى الأمة العربية ، ومن ثم جاءت خطورته ، إنه لم يتحرج ذات يوم أن يقول عن مراكز التقليد الثقافى فى مصر ، التى كانت عقبة كأداء فى سبيل التغير المطلوب ، أقول إنه لم يتحرج ذات يوم من أن يعلن فى الناس عنها ، إنه لابد من هدم قرطاجنة ليستقيم لنا السير .

لست أمدح نفسى ولا أذمها حين أصفها أميناً فأقول : إن لديها استعداداً قوياً - لابد أن تكون له جذوره البعيدة فى طفولة لم تجد فرصتها فى نمو حر

طليق - استعدادًا قويا لتلقف كل فكرة تراها مؤدية إلى تقويض ما هو شائع مقبول ، لتقيم مكانه جديداً مأمولاً ؟ إننى لأتصيد الأفكار التى يثور بها أصحابها على التقاليد المستقرة الراسخة تصيداً ، وأخرج كلما وقعت منها على شىء يغذى هذا الميل فى نفسى ، فلو كان مجموع الناس على اتفاق بأن الشىء الفلانى صحيح ، ثم ظهر كاتب يقول إنه خطأ لم أجد فى نفسى رادعا يصدنى عن تأييد هذا الكاتب الخارج على الإجماع ، فأنا أؤيد خروجه أولاً ، ثم أنظر بعد ذلك فى صدق حجته ، ولكى أنصف نفسى لابد أن أضيف أن هذه الرغبة القوية فى تأييد الخارج على التقليد الشائع ، إنما هى رغبة فى التحطيم حين يكون البناء المراد تحطيمه قد أكله البلى ولم يعد صالحاً إلا للعناكب تعشش فى سقوفه وجدرانه ، وللعفن يسرى فى أجوائه فيزكم الأنوف .

لقد كتبت بعد تلك السنوات الأربع التى أضع معالمها الآن على الورق ، أقول إنى كتبت بعدها بأكثر من ربع قرن ، فى مقدمة كتابى عن فلسفة برتراند رسل ، أقول إننى وإن لم أكن تابعا كل التبعية لبرتراند رسل فى فلسفته ، ولا رافضا كل الرفض لها ، إلا أننى مع ذلك أشعر برباط قوى بينه وبينى ، وهو الدفاع الحار الذى ينهض به رسل فى سبيل حرية الفرد من كل طغيان : طغيان التقاليد الاجتماعية وطغيان الحكومات : فإنى لأوشك أن أرى الصدق كل الصدق فى دعوى « رسل » بأن النظم الاجتماعية والسياسية كلها - فى أرجاء العالم أجمع وعلى اختلاف العصور - مؤامرة كبرى يراد بها الحد من حرية الفرد التى كان ينبغي أن تكون هى الأساس وهى المدار لكل نظام فى اجتماع أو سياسة ، وإن شئت فانظر فى أى بلد من بلاد العالم إلى ما يسمونه « التربية » تجددها تسابقاً من الهيئات ذوات السلطان للاستيلاء على عقل الناشئ ومشاعره !

واستمع إلى رجال « التربية » يسألون : ما الغاية من التربية ؟ ثم يجيبون : هي إنتاج « المواطن الصالح » - وصلاحية المواطن هي دائما - كما ينهنا « رسل » - الموافقة على النظم القائمة . ويستحيل عندهم أن يكون معنى « الصلاحية » هو الثورة على تلك النظم ، وإنه لمن عجب - كما يقول رسل - « أنه بينما تستهدف الحكومات جميعا إخراج رجال من طراز يؤيد الأنظمة القائمة . ترى أبطالها من رجال الماضي هم على وجه الدقة رجال من الطراز نفسه الذى تحاول الحكومات أن تمنع ظهوره فى الحاضر »

وكذلك بينى وبين برتراند رسل رباط آخر يقربه من نفسى ، هو تلك الفرحة الكبيرة التى يفرحها كلما استطاع إقامة البرهان على خطأ اعتقاد كان يظنه الناس بدائية لا تحتتمل الشك والجدل ، وربما قيل إن مثل هذه التزعة انقلاية هدامة خطيرة ، وإن صاحبها يكون فى شخصيته شيئا ب « مفستوفوليس » شيطان فاوست ، لكنى أراها برغم ذلك ضرورة لمهيد الطريق نحو تغير الأوضاع الاجتماعية والأفكار والمعتقدات التى قد تتحجر على مر الزمن ، فيظن الناس أن صلابتها تلك هى صلابة الصواب واستحالة الخطأ ، إن أصحاب هذه التزعة هم دائما بمنابة الفدائيين الذين يتسللون إلى حصون العدو فيمهدون الطريق إلى دكها وتخريبها ، والفرض هنا - بالطبع - هو أن مايراد دكه وتخريبه ومحوه ، بناء فاسد يستوجب التغيير والإصلاح .

وهكذا كان طه حسين فيما كتب يومئذ ، وهكذا كنت حين تابعته بقلبي وبعقلي معا .

وفي تلك السنوات الأربع التي هي فترة الدراسة في المعلمين العليا ، نشأت مجموعة الأصدقاء التي منها تكون النسيج الاجتماعي الذي لبثت أنحرك بين لحمته وسداه حيناً طويلاً من الدهر ، فهي المجموعة التي كان يقاس إليها كم حقق أفرادها من النجاح ومن الفضل ، مَنْ من هؤلاء الأفراد كان سابقاً ومن كان مسبقاً ، كانت تلك المجموعة الصغيرة التي لم يتجاوز عدد أفرادها عشرة ، هي المناخ الاجتماعي الذي أنتفسه ، فبقدر ما كان في ذلك المناخ من نقاء استنشقت الصحة ، وبقدر ما كان منها من عكر استنشقت المرض ، كانت من التجانس بحيث لا أغلو إذا قلت إنها إذا اجتمعت في مكان ، جعلت لنفسها لغة خاصة يفهمها أفرادها ولا يفهمها سواهم ، بما ملئت به تلك اللغة من إشارات مختصرة إلى خبرة مشتركة ماضيه ، وأكاد أقرر كذلك بأن كانت لتلك المجموعة نكاتها الخاصة بها تضحك لها وقد لا يضحك لها غيرها

أما وقد مضى على تلك الصحبة ما يقرب من نصف قرن كامل ، فإنني لأتساءل الآن عن الصفة أو الصفات المشتركة التي وحدت بينهم ، ولا أجد الجواب عن هذا التساؤل حاضراً مُيسراً ؟ فهم بغير شك يختلفون فيما بينهم أبعد اختلاف يفرق بين إنسان وإنسان ؟ وليست أهدافهم في الحياة موحدة ولا متقاربة ، فمنهم من كان هدفه الصعود في مناصب التعليم ولا زيادة ، ومنهم من كان هدفه تحصيل العلم ومع العلم تحصيل الشهادات الدالة عليه ، ومنهم من كان هدفه جمع المال ، هكذا تفرقت بهم السبل حتى لقد كان بعضهم يسخر من أهداف بعض ، لكنهم مع ذلك كانوا هم الصحبة الحميمة التي لم يكن ليستغنى أحد منهم عن أحد !

ولعل الرباط الوثيق الذى وحد بينهم جميعا ، وجعل بعضهم لبعض رفيقا أقرب رفيق ، هو التواضع الاجتماعى الذى ينطوى بصاحبه على خصلاته ولا يريد أن ينشر أجنحته عراضا على رقعة أوسع ؟ ولقد حدث خلال السنين أن تمرد من تمرد من تلك المجموعة على انطوائها الضيق فأخرجته المجموعة من حسابها أو أخرجها هو من حسابها ، كما حدث خلال السنين كذلك أن أضيف إلى المجموعة من وجد بينه وبينها صلة القرى النفسية على أساس التواضع الاجتماعى الذى يؤدى إلى كثير من الانكماش والتخفى .

ولما كان هذا التواضع والانكماش والتخفى جذورا راسخة فى نفسى - هكذا قال الأحذب ضاغطاً على حروف الكلمات ليؤكد لها - فقد كانت تلك الصفة أنسب مناخ عشت فيه على طبيعتى ، فلم أكن فى تلك المجموعة أقل من حقيقتى ولا أكبر من حقيقتى ، ولئن باعدت بيننا السنين بعد ذلك ، فلست أظنها قد استطاعت أن تمحو ما كان بيننا من صلة نفسية وثيقة ، فيها الازدواجية العاطفية التى لا بد من وجودها بين الأصدقاء أو الأقرباء ، وأعنى بها ازدواجية التجاذب والتنافر فى آن معا .

كانت مجموعة من الأصدقاء ، لكن كان بين أفرادها اختلافات بعيدة المدى ، فمنهم من كان شديد الاهتمام بالحياة الثقافية - وكنت أنا واحداً من هؤلاء - ومنهم من لم تكن له بالحياة الثقافية صلة ، كأن تلك الحياة فى وادٍ وحياته هو فى وادٍ آخر ، ولقد حدث لنا نحن الذين مالت بهم الرغبة نحو الحياة الثقافية . أن تنشأ لدينا فكرة الالتحاق بالصحافة نشيع فيها هوايتنا فى أوقات فراغنا ، وكنا بالفعل قد بدأنا نكتب مقالات أدبية فى المجلات الأسبوعية . وهى مجلات كانت تكون يومئذ ركناً هاماً من أركان الثقافة : فمنها « السياسة

الأسبوعية » التي كانت تصدرها جريدة السياسة المعبرة عن حزب الأحرار الدستوريين (وهم أقرب إلى من نسهم اليوم بحزب اليمين) كما كان منها « البلاغ الأسبوعي » الذي كانت تصدره جريدة البلاغ الناطقة بلسان حزب الوفد ، وهو حزب تقدمى بالنسبة إلى الأحرار الدستوريين .

وكان الأغلب على السياسة الأسبوعية أن تنقل عن الثقافة الفرنسية ، كما كان يغلب على البلاغ الأسبوعي أن ينقل من الثقافة الإنجليزية ، أو هكذا كان انطباعنا بحكم أن الأولى كانت تنشر لطله حسين . ومحمد حسين هيكل وغيرهما من الذين تلقوا العلم في السوربون ، وأن الثانية كانت تنشر للعقاد الذي وإن لم يتلق العلم في إنجلترا ، إلا أن مصادره الرئيسية كانت من الأدب الإنجليزي .

بدأنا نحن نكتب المقالات في هاتين الصحيفتين ، وأذكر أن أول مقالة كتبها في حياتي الأدبية كانت تعليقا على الأغاني التي شاعت في ذلك الحين وامتلاّت أصواتها - ولا أقول كلماتها لأنها كانت في بعض أجزائها أصواتا بغير كلمات - أقول إن مقالتي الأولى كانت تعليقا على تلك الأغاني التي شاعت في ذلك الحين وامتلاّت أصواتها - ولا أقول كلماتها لأنها كانت في بعض أجزائها أصواتا بغير كلمات - أقول إن مقالتي الأولى كانت تعليقا على تلك الأغاني التي امتلاّت أصواتها بما يوحى بالدعارة ، ونشرت لي تلك المقالة الأولى في السياسة الأسبوعية سنة ١٩٢٧ فيما أذكر .

أقول إننا أحسننا برغبة قوية في أن نتصل بالصحافة . أنا وأخي ومعنا ثلاثة من مجموعة الأصدقاء ذوى الهواية الأدبية ، واتفقنا بادئ الأمر على تكوين جمعية أدبية تنمو مع الزمن ، وأقننا علينا من بيننا رئيسا وسكرتيرا وأميناً للصندوق ، أي أنه لم يبق منا إلا عضوان فقط بغير ألقاب ، كنت أنا أحدهما ،

وقررنا فى أول جلسة من جلساتنا التى كنا نعقدتها فى منزل الرئيس ، أن يكون الاشتراك الشهرى عشرة قروش - وهو كل ما كنا نستطيع الاستغناء عنه - كما قررنا أن نبدأ فى تكوين مكتبة للجمعية تنمو هى الأخرى مع الزمن ، وبدأنا بشراء كتاب كان قد صدر حديثا وارنجت له الصحافة الأدبية ، هو كتاب « عصر المأمون » للدكتور فريد الرفاعى ، ثم ماذا ؟ ثم حزمنا أمرنا ذات يوم ، وصممنا على أن نعرض أنفسنا للخدمة مجانا فى الصحيفة التى تقبل العرض وبدأنا بمجريدة الأهرام ، ودخلنا نحن الخمسة على رئيس التحرير ، يقودنا رئيسنا ونتبعه فى صف كأئنا جماعة من الطلاب جىء بها أمام ناظر المدرسة مشكوة ، ويراد بها التحقيق فالعقاب ، فكان هذا الدخول المتعثر المتخاذل الضعيف كفيلا وحده بأن يوصى إلى رئيس التحرير بالرفض السريع :

- ماذا تريدون ؟

- نحن جمعية أدبية تريد الاشتغال بالصحافة (وكان المتحدث هو الرئيس ، وهو أجراءنا فى توجيه نظره نحو من يحدثه فى غير خجل ، ولا عجب أن كان هو الوحيد من مجموعة الأصدقاء كلها الذى صعد فيما بعد إلى مناصب الوزارة أكثر من مرة ، وعمل فى منصب من أعلى المناصب فى منظمة العمل التابعة لهيئة الأمم المتحدة لفترة دامت عدة سنين) ونحن لا نريد أجرا على عملنا - هكذا مضى رئيسنا فى توجيه الخطاب إلى رئيس التحرير - وكل ما نريده هو أن يؤذن لنا بالاشتراك مع هيئة التحرير ، نطيع ما تؤمر به ، لتكون لنا بذلك فرصة للتدريب حتى إذا ما تخرجنا جعلنا الصحافة مهنتنا عن خبرة ودراية

- فقال رئيس التحرير فى نغمة العطف ، لكنها فى الوقت نفسه نغمة

المستخف بأحلام شباب نمر ساذج : أتمنى لكم التوفيق ، لكن يحسن أن تنصرفوا إلى دروسكم ، وأن ترجثوا هذا الحديث إلى ما بعد التخرج .

— أجاب رئيسنا : ولكننا لو تركنا أمورنا نجري مجراها الطبيعي ، فقد يحرقنا التيار ، ونشتغل بالتدريس الذي نُعدّ من أجله ، مع أننا ذوو ميول أدبية واضحة ، وربما بضاعت هذه الميول إذا نحن وأدناها في براعمها .

— فأجاب رئيس التحرير بلهجة حاسمة : لا ، لا ، معاذ الله أن تفهم مني أنني أدعوكم إلى إهمال مواهبكم العظيمة ، لكن صحيفة الأهرام تعتذر لأنها لا تستطيع قبول ما تعرضونه عليها .

وخرجنا من عنده صفا متعثرًا متخاذلاً ضعيفاً كما دخلنا ، وكل ما هنالك من فرق بين الحالتين ، هو أن رئيسنا هذه المرة كان في مؤخرة القافلة ، وماكدنا نخرج من دار الأهرام إلى الطريق ، حتى وقفنا قليلاً إلى جوار الجدار ، ونظر بعضنا إلى بعض ثم انفجرنا ضاحكين ، إلا الرئيس فلم يضحك ، بل قال في عزم : هلموا إلى صحيفة أخرى ، تعالوا نذهب إلى جريدة السياسة .

وتبعناه إلى جريدة السياسة في شارع المبتديان ، وطلبنا مقابلة رئيس التحرير ، فلم يكن في مكتبه ذلك المساء ، ولكن أمراً حدث لم نكن نتوقعه ، وذلك أن الدكتور حافظ عفيفي أرسل إلينا من يستوقفنا ونحن نهبط السلم خارجين ، وعدنا لنجده يستقبلنا الرائد للمسترشد ؟ وأمر ففتحت لنا الغرفة المقابلة لغرفة رئيس التحرير ، ودخلناها لنجدها «صالونا» فآخرًا فرش كله بالقطيفة الحمراء : بساط وستائر وكراسي وأرائك ، وجلسنا على أطراف المقاعد ، وجلس أمامنا حافظ عفيفي ، فقال في صوت هادئ :

— ماذا تريدون ؟

- فأجاب رئيسنا : نحن جماعة أدبية ... إلى آخر القصة .
- قال حافظ عفيفي بصوته الهادئ : الدكتور هيكल غائب هذه الليلة ،
وسأرتب معه لقاء بكم ، لكنى أحب أن أوجهكم منذ الآن بنصيحة : إن
جريدة السياسة - كما أرجح - ستقبل تدرييكم كما تريدون ، لكن فلتعلموا منذ
الآن أن الصحافة لم تعد كلاما يستقطع من رموس الكتاب بغير اطلاع
ولا دراسة : فهما يكن الموضوع الذى قد يرد على خواطركم لتكتبوا فيه ،
فسوف تجدونه موضوعا قد سبقكم إلى الكتابة فيه من هو أعلم منكم وأوفى بحثا
ودراسة ، وإذن ، فالنصيحة الواحدة التى سأكتفى بها الآن هو : ألا كتابة بغير
درس وقراءة تسبقها .

شكرناه على عطفه الأبوى ، وانصرفنا على أن نعود فى مثل هذا الوقت من
الليلة التالية ، ففعلنا ، وكان الدكتور هيكل عندئذ فى مكتبه ، وكان قد سمع
بأمرنا ، فلم يسأل : ماذا تريدون ؟ لأنه يعلم ما نريد ، بل أخذ يوزعنا من فوره
على أقسام الجريدة : فاذهب أنت إلى فلان فى القسم الفلانى ، واذهب أنت
إلى فلان فى الغرفة الفلانية ، واذهب أنت إلى مصححى التجارب فى المكان
الفلانى ... ثم أردف يقول : إن أماكنكم هذه ستبدل مرة كل أسبوعين .
لكن الأسبوعين الأولين لم ينقضيا ، حتى دعانا الدكتور هيكل لتناول
الشاي ذات مساء فى داره - وكانت عندئذ شقة من عمارة فى جاردن سيقى -
وقولوا ماشتم عن مشاعر الغبطة التى ملأتنا ، وذهبنا فى الموعد لنستوى بعد قليل
إلى مائدة مثقلة بأصناف الفطائر والفاكهة إلى جانب الشاي ، وبدأ الدكتور
هيكل حديثه معنا قائلا :

- لقد فكرت فى أفضل طريقة يستفاد بها من ميولكم الأدبية . فوجدت

أن تعاونوني على إخراج كتيبات صغيرة تباع مع الصحف بأثمان رخيصة ، كل كتيب منها يبسط موضوعا مما يتصل بتاريخنا وأدبنا ، وبخاصة القديم منها ، حتى نذيع أصولنا الثقافية في أوسع دائرة ممكنة ، وسأخصص لكل منكم موضوعا ، يجمع لي ما استطاع جمعه من مادة فيه ومهمتي أنا هي الإخراج والمخلاق والصياغة ، فما رأيكم ؟

- رأينا هو ماترى .

وأذكر أن نصيبي في هذا التوزيع كان موضوع « سميراميس » كما ورد في الأساطير ؛ وبعد عدة أسابيع من تجميع للمادة والتقاء مع الدكتور هيكمل كلما تجمع لدينا من المادة ما يستحق العرض ، صدر الكتيب الأول ، ولا أذكر ماذا كان موضوعه .

وبيع عند باعة الصحف . وكان أول همتنا نحن أن نسرع لنرى كيف ورد ذكرنا في هذا المشروع ، وأظن - لأنني قد نسيت - أننا لم نذكر بالإسم ، بل وردت في المقدمة عبارة تنوه بجماعة من الطلاب يعاونون في جمع المادة من المراجع ؟ ولا أدري إن كان شعورنا بنجية الأمل ، أو كان اقتراب موعد الامتحان في آخر العام الدراسي . هو الذي حتم علينا أن ننفذ أيدينا ، وبذلك انتهى الأمر مؤقتا - وأعني أن ذلك المشروع المعين قد أخفق لساعته - وأما النشر الأدبي في الصحف فقد لبث قائما في صدري . حتى ألح على آخر الأمر فجعلته مدار عملي .

فرغ الأحذب من هذه الرواية الطويلة ، وكأنما أحس بشيء من التعب ، فأسند ظهره إلى مقعده ، ونظر إلى نظرة تكاد تسألني : ماذا تريد مني بعد ذلك ؟

- سأله : وماذا جرى للجمعية الأدبية بعدئذ ؟

- فقال : مات أمين الصندوق بعد بدء تكوينها بشهور قليلة . وانقطع بموته دفع الاشتراك ، وأصبحت كما كانت في البداية مجموعة أفراد أصدقاء ، ضمن المجموعة الأشمل ، يلتقون حيثما تيسر لهم اللقاء : وأما المكتبة التي أردنا تكوينها . فلم يدخلها إلا كتاب واحد ، هو « عصر المأمون » ولا أدرى إلى أين ذهب ؟ .

وبابتسامة خفيفة على شفثيه ، استأنف الأحذب حديثه عن جماعة الأصدقاء في تلك السنوات الأربع من حياته :

- قال : لا تنس ما قلته لك ، وهو أن تلك الجمعية الأدبية لم تكن تمثل بميولها الثقافية مجموعة الأصدقاء التي تحدثت عنها ، فن تلك المجموعة من كاد لا يعرف من معارف الدنيا حرفا أكثر مما ورد في مذكراته التي يحفظها للامتحان : ومنهم من كان أقرب في ميوله إلى الفجور الذي لا يستحي ، ومنهم من كان يؤثر الخفاء في وسائل متعته ، لكن جميعنا كان يحب النكتة والمرح وحلقات السمر ، والحقيقة أن تنوع ميولنا ذاك هو الذي ربط أطرافنا في مجموعة متجاذبة ، لأن كلا منا كان لابد واجدا ما يشبع فطرته بكل أبعادها داخل تلك المجموعة النادرة من الأصدقاء .

فضلا عما كان بين أفرادها من رباط مشترك ، هو كما قلت لك التواضع الاجتماعي ، ممزوجا بكثير جدًّا من الفكاهة والمرح ، حتى لقد كانوا يجعلون من أنفسهم موضوعا لفكاهتهم بل موضوعا لسخريتهم أحيانا ، أقول إنه فضلا عن تلك الصفات المشتركة بينهم ، فقد كانت بينهم بعد ذلك فوارق شاسعة كما ذكرت لك ، هذه التشكيلة العجيبة هي التي تكون منها المحيط البشرى المباشر

الذى هو بمثابة المجتمع بكل ما يعطيه لأبنائه من حوافز ومن معوقات .
فقد كانت تلك السنوات الأربع (١٩٢٦ - ١٩٣٠) هى البوتقة الحقيقية
التي صهرتنا بنجهرها وبشرها ، وهى التي شكلتنا فيما نحن فيه ، ففى تلك الفترة
تجسدت لكل منا مثله العليا التي يريد احتذاءها ، وقد كان مثلى الأعلى يومئذ
مزيجاً من عدة عناصر ، قد يسهل التقاؤها معا وقد يصعب ، فهو مثل أعلى فيه
جانب الأستاذ الأكاديمي المتمكن من مادته ، وهو جانب انطبع فى قرارة
نفسى انعكاساً لشخصية أستاذ التاريخ الحديث شفيق غربال ، وفيه جانب
الأديب صاحب الصوت المسموع والمواقف الثقافية الحاسمة ، كما طبعنى به
الدكتور طه حسين . وفيه جانب الأديب المفكر المكافح الذى يدفعه الفهم
العقلى إلى سكب ثقافات الأولين والآخرين - إذا استطاع - فى ذات نفسه ،
كما كانت صورة العقاد عندى أيامها ... فهل كان يسهل لهذه الجوانب كلها أن
تجتمع فى شخص واحد ولو بمقادير متواضعة ، شريطة أن تجتمع عند من يغلب
عليه التواضع الاجتماعى . كما تغلب عليه الرغبة الشديدة فى الانعزال والتخفى ؟
لست أدرى : لكن الذى أدريه هو أننى وجدت عسراً شديداً فى محاولة جمع
هذه العناصر معا ، فكنت إذا حصلت شيئاً من جانب الأستاذ ، أفلت منى
جانب الأديب ، وإذا تحقق لى جانب الأديب ضاع منى عنصر الأستاذ ، وإذا
تحقق لى شيء من هذا وذاك وجدت نفسى أقف على الطريق جامدا لا أتحرك فى
دنيا الناس خطوة إلى أمام

فهل عرفت يا صديقى سر الشعور بالخذلان الذى أعانى منه حتى ظهرت آثاره
على بدنى ؟ لقد رأيتك تسعى لاهثاً لكشف السر ، ولعلنى قد أرحتك فى كثير مما
أردت أن تكشف عنه الستار .

الفصل الخامس

حلم ليلة في منتصف الصيف

١

انقطعت صلتى بالأحذب لبضعة أسابيع : ولم تكن نفسى قد اطمأنت - كما ظن هو - بما رواه لى عن نفسه خلال الأربعة الأعوام التى قضّاها فى الدراسة العليا ، لأن ما رواه لى لم يكن فيه ما يكفى لكشف السر كله وراء حياته الانفعالية بما سببته له من علل

ثم أسعفتنى مصادفة سعيدة : أخذت القطار إلى الإسكندرية ذات صباح من صيف ، وجلست فى مقعدى الذى أختاره لنفسى دائماً ما وجدت إلى اختياره من سبيل ، لأنه مقعد فردانى من جهة ، ويتجه الجالس عليه مع سير القطار من جهة أخرى ، وفضلاً عن ذلك فهو يواجه مقعدين يغلب أن يشغلها زميلان فيتحدثان . فأتسلى باستراق السمع لما يقولان من جهة ثالثة .

ولم أكد أنشر صحيفة الصباح بين يدى قبل أن يتحرك القطار ، حتى فوجئت بما لم أكن أتوقع حدوثه ، وهو أن يكون شاغلا المقعدين اللذين يواجهان مقعدى هما صديقى القديم فريد - صديق الشباب - وزوجته عفاف : وكنت لم أرها ، ولم أسمع عنها ، منذ أمد طويل : فاضطربت لرؤيتها ، لأن اللقاء مباغت : فأسقطت عند قيامى لأسلم عليها ، حقيبة صغيرة كان يرفعها

فريد ليضعها على الرف ، ولبت ثلاثتنا يتحركون ويتكلمون في غير هدوء ولا انسجام . حتى لقد سددنا الطريق على المارة من المسافرين : وأخيراً استوينا على مقاعدنا ، لا ندرى أين نبدأ الحديث ولا كيف نبدؤه بعد هذا الغياب الطويل ، الذى باعد بيننا بعد أن كان اجتماعنا المطرد المتكرر جزءاً لا يتجزأ من حياتنا وقد كنا نأنس أحداً بالآخر أنسا ، حتى ليقصد أحداً إلى الآخر فى كل صغيرة أو كبيرة من أحداث حياته ، يطلعه على خفايا نفسه وأزماتها ، وعلى مشكلاته التى تنشأ فى علاقاته مع سائر أفراد أسرته ، أو مع أحد من بقية الأصدقاء .

كنت أحس دائماً - إذا ما تحدثت إلى فريد - كأننى أحدث نفسى ، لا أكتفى سرّاً ولا أدعى غير الحق : فلا أظهار براءة لا وجود له ، ولا بفقر أبشع من الفقر الذى كنت فيه ، وذلك كله على الرغم من أن بين شخصيتينا خلافاً جوهرياً : فهو يعلى العمل على الفكرة ، وأنا أعلى الفكرة على العمل ، وهو يضحك من قلبه وأنا أضحك من وراء قلبي ، وهو يحب الناس لأشخاصهم لا لآرائهم ، وأنا أحب الناس لآرائهم لا لأشخاصهم ، ولذلك فهو محدود فى صداقاته بالناس الحقيقيين الذين يملأون عليه حياته ، وأما أنا فصداقاتى قد امتدت إلى المؤلفين وإلى الشخصيات الوهمية التى نجها على صفحات القصص والمسرحيات ، هو يريد من صديقه أن يبادل النكات وهما يشربان أقداح الشاي التى كان يصنعها بنفسه ، لا يركن فى صنعها إلى أحد سواه ، وأنا أريد من صديقى أن يجادلنى فى فكرة أو فى مذهب نظرى ؟ هو لا يميل إلى القراءة ويكره الكتابة كراهية شديدة - ولعله كان يستطيعها إذا أراد - وأنا أميل إليهما معا ، وفوق هذا وهذا وذاك من بذور التباين بين الشخصيتين ، أنه كان يبحث عن

شريكة حياته بعد تخرجنا بقليل . لأنه لم يتصور حياته بغير زوجة وأبناء ، وكان مدار بحثه عن الزوجة أن تكون من ذوات الثراء ، وأما أنا فقد كانت فكرة الزواج عندي أمراً لا يردُّ على التصور ، كما لا ترد فكرة الدائرة المربعة ، إذ لم يكن التضاد بين نفسى وبين هذه الفكرة أقل من التضاد بين التدوير والتربيع . وكان صديقى فريد أثناء بحثه عن زوجة تناسبه ، لا يفوته أن يجعل من البحث موضوع فكاهة نضحك لها كلما اجتمعنا ، فقد كان أمس يزور أسرة ليرى فتاة مقترحة له ، فيجىء اليوم ليرى لنا مادار بينه وبين والديها ، أو مادار بينه وبينها من أحاديث ، فنجد فى روايته مواضع كثيرة تثير الضحك إذا ما كانت الأسرة المقصودة أعلى مما ينبغى أو أخفض مما ينبغى ، فى كلتا الحالتين نضحك على مفارقات الموقف : فى الأولى يتظاهر بما ليس فيه ، وفى الثانية يتظاهرون هم بما ليس فيهم .

تخرجنا - أنا وفريد وسائر الأصدقاء - فى سنة جفت فيها الضروع ويست موارد الرزق ، لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء العالم أجمع ، غنيه وفقيره على السواء ، فنحن نعيش فى عالم إذا انهارت به سوق المال فى نيويورك ، تداعت لها الأسواق فى لندن والقاهرة وطوكيو ! قد يقع تجار المال هناك فى خطأ ، فينتج عن الخطأ ألا نجد نحن الشباب فى القاهرة وظيفة واحدة خالية ! هكذا كانت الحال حين تخرجنا : أزمة اقتصادية طحنت الدنيا طحناً ، لكنها طحنتنا بمعنى مختلف عن أفاعيل أزمة اليوم ، فاليوم تمتلئ أيدينا بالمال ولا نقوى على الشراء ، وأما يومها فقد تبخر المال كما يتبخر الماء فى حارة القبط ، وأصبح معلم المدرسة الإلزامية فى قرى الريف ، ينجيهاه الأربعة التى كانت راتبه الشهرى يومئذ . أسير حياة وأكثر بمجبوحة من مالك الثلاثين فدانا من الأرض أو الأربعين ، ولذلك

كان من الحوادث المألوفة أن يبيع أصحاب الأرض أرضهم ، فيشتريها أصحاب الجنيهات الأربعة .

في ذلك العام المقفر تخرجنا فكنا كالسلعة البائرة تشتري باليمن القليل ، كان الفرض هو أن نخرج للتدريس في مدارس الدولة ، فإذا الدولة تصدر أوامرها - علينا وعلى كل بائس تخرج في ذلك العالم - بألا تفتح أبواب الحكومة لعامل واحد جديد ، فانتشرنا في الأرض نسعى : المدارس غير الحكومية تشتري بعضنا بأجنس الأجور ، ومدارس الريف التي لم تكن تطمع في رجل واحد يحمل إجازة عليا ، باتت تتلقى حملة الإجازات العليا ساعين إليها والعرق يتصبب على جباههم فتنتقي منهم مدارس الريف وتختار ، والأعمال التي ألفت أن تؤدي بأيدي كتبة صغار ، قصد إليها القاصدون من هؤلاء الكبار أو الذين ظنوا أنهم قد أصبحوا كبارا ، وفي هذه السوق الكاسدة وجدت أنا ركننا في الريف ، ووجد صديقي عملا صغيرا في دار الكتب بالقاهرة .

وكانت دار الكتب في القاهرة مزارا أتردد عليه مرارا متلاحقة منذ أيام الدراسة ، فازدادت جاذبية بوجود صديقي بين العاملين فيها ، ولقد كان يسر لي ما كان عسيرا ، فهناك من الكتب ما لا يعار إما لنفاسته وإما لخساسته ، فكان يهين لي ما كنت أريده من الصنفين ! وقد تفهم ألا يعار الكتاب لنفاسته خوفاً عليه من الضياع ، ولكن ما هي تلك الكتب التي تخس فلا تعار ؟ أقولها ؟ نعم قلها ، فهي « نفس » وأنت في رواية لقصتها فما خفي من سرها قد يكون أهم مما ظهر من علنها ، فهناك كتب من أفحش الكتب عن الجنس ، عرفها صديقي وعرفني بها وأعانني على استعارتها خفية لأنقل مادتها كما أريد ، ولم يكن هنالك ما يمنع أن هذا الذي يستعير الفحش سرا ، هو نفسه الذي يستعير كتب أفلاطون

أو أرسطو علناً ، وياما أكثر ما تحويه النفس البشرية من عجائب ومتناقضات !
كنت أقول عن صديقي فريد إنه أخذ يبحث عن الزوجة الملائمة بعد تخرجنا
بقليل ، وكانت روحه المرحّة تجعل من بحثه ذلك موضوعاً تنفكه به جميعاً إذا
ما التقينا ، ولكن هذا الهزل كله لم يلبث أن انتهى معه بمجد الزواج نفسه .
وكانت الزوجة هي عفاف ، ولقد كان الزوجان منذ تزوجا على بعد نفسى بعض
الشيء أحدهما من الآخر : فهي تُدِلُّ عليه بفرق في الثراء بين أسرتهما وأسرته ،
وهو يتعاطف عليها بفرق كبير بين ثقافته وثقافتها ، فهي فتاة وقفت تعليمها في
مدرسة فرنسية عند مرحلة أولية ، ولكنها مع ذلك كانت من ذلك الصنف
الذى يضع ألفاظاً فرنسية في حديثه ، حتى مع من كانت تعلم أنهم لا يعرفون
من الفرنسية كلمة واحدة ؟ وكان محالاً عليها ألا تدع بعض الإشارات تتساقط
في كلامها أو في سلوكها ، لتُدلَّ بها على أنها ليست كسائر النساء اللاتي تلتقي بهن
في زمرة أصدقاء زوجها وأقاربه .

أخذنا نتبادل الأخبار عن الأحداث التي لا بد أن تكون قد حدثت خلال
السنوات الطويلة التي باعدت بينى وبين فريد ، وفجأة سكّت الكلام ، وأردت
أن أملاً فجوة السكوت ، فقلت بلا مقدمات : إن مسألة غريبة تشغلنى بسبب
لا أدريه ، فلأمر ما شغلت برجل عجيب قابلته صدفة لكنه أثار اهتمامى الشديد
بغرابة سلوكه وعمق لفتاته الفكرية ، وبشدوذه عن المألوف في أشياء كثيرة :
ويستحيل عليك أن تخبطه إذا ما رأيته وسط زحام الناس في الطريق ، لأنه
فريد ...

— فقاطعتنى عفاف قائلة وهى تضحك فى نشوة طبيعية : صدقت ، إنه
شاذ وهو فريد (مشيرة إلى اسم زوجها) .

- قلت : لا ، لست أقصد فريدنا هذا ، فصاحبنا الشاذ ذاك اسمه رياض عطا
- قال فريد فى اهتمام ظاهر عليه وعلى زوجته معا : رياض عطا المدرس ؟
- قلت : لا أعلم ماذا يعمل ، لم أجرؤ على سؤاله ، بل إن اسمه نفسه لم أعرفه إلا بمصادفة عابرة ، كل ما عرفته منه فيما يتصل بعمله هو أنه تخرج من مدرسة المعلمين العليا ، لأنه قصّ على طرفا من حياته فيها .
- قال فريد : أهو أحذب الظهر قليلا ؟
- قلت : إنه أحذب الظهر كثيرا لا قليلا .
- قال : لابد أن يكون هو رياض عطا الذى تعنيه .
- قلت : حدثنى عنه ما استطعت .
- قال ، وكان قوله التقاء أسماعنا . حتى لقد مالت رموسنا الثلاثة فى وضع يجعل منها مجموعة تصلح لرسم لوحة يطلق عليها اسم « الرواية » - قال :

٢

روى لى صديق كان مدرسا بمدرسة أجا الابتدائية ،

قال : جاءنا مدرس جديد للغة الإنجليزية فلفت إليه الأنظار فور تجمعيته ، ولم تكن الأنظار لتلتفت إليه بكل قوتها كما فعلت لو كانت كل غرابته محصورة فى تشويه ظهره بالقتب الذى يقوّسه بعض الشيء ، ولكن ماوجّه إليه انتباهنا وانتباه الناس جميعا ، هو مسلكه فى حياته الخاصة ، الذى جعل منه إنسانا متميزًا متفردًا ، فقد كان يلبس منظارًا ذا عدسة واحدة يضعها على عينه اليسرى ، بغير إطار يحيط بها ، وفى العدسة خيط أسود يمتد حتى يدور حول

عنته ، وهى طريقة لم يكن أحد منا قد ألفها فيما شاهد فوق أعين الناس من مناظير ، وقد حسبنا أول الأمر أن عيته اليمنى قد تحررت من المنظار لقوة إبصارها ، لكننا عرفنا فيما بعد أنها عين لا رجاء فيها لأنها لا تبصر ، فأثر صاحبنا أن يقصر منظاره على العين الواحدة التى ترى ، فلم يكن عجيباً أن أسماه بعضنا بأبى نظارة ، على الرغم من أن كثيرين غيره كانوا ممن يستخدمون المناظير . سكن داراً وحده ، وكانت العادة بيننا أن يشترك أكثر من واحد فى دار ، وليث أشهراً طويلة لا نكاد نسمع صوته محدثاً إلا وهو يلقي دروسه على التلاميذ ، وهى دروس كان ينطق فيها كلمات اللغة الإنجليزية وجملها بلسان غير عربى يحاول به أن يقلد أصحاب اللغة التى يعلمها ، فزاد هذا فى غرابته ، كأنما غرابته هذه كانت تتبدى إذا أخطأ السلوك وإذا أصاب ، لأنه فى كلتا الحالتين كان ينحرف عن المؤلف ، وندخل حجرات الدراسة بعده لنرى ماذا كان يصنع لعلنا نفع على أشياء جديدة فيه نجعلها مدار التعليق ، فنرى السبورة مزدانة بالطباشير الملون هنا وهناك ، فكلمات يكتبها باللون الأحمر وأخرى يكتبها باللون الأزرق ، فضلاً عن اللون الأبيض ، بل نراه يكتب الكلمة الواحدة بعدة ألوان فنضحك ونخرج لننشر الخبر بين سائر الزملاء .

يدخل المدرسة صامتا ويخرج منها صامتا ، ولعل صمته لم يبلغ حده الأقصى مرة كما بلغه ذات مساء ، حين سمع فى حجرة المدرسين نبأ تلموز به الألسنة بأن مدرسا جديدا للغة العربية سيصل إلى المدينة فى المساء ، فأين عساه يتزل ياترى ؟ ومن ذا سيقابله فى المحطة ليؤويه فى هذا البلد ، سمع هذا فلم ينطق بكلمة ، لكن - فيما علمنا بعدئذ - ذهب إلى المحطة فى المساء ، خشية ألا يقابل المدرس القادم أحداً فتأخذه الحيرة كما حدث للأحذب نفسه ليلة وصوله ، فلما لم

يجد أحد هناك سواه ، صمم على أن يضطلع بهذا الواجب ، وأمعن النظر فيمن نزلوا من القطار ، حتى اهتدى بالسليقة إلى شاب نزل ومعه حقيبة وسلتان ، وضعها أمامه وراح يتَلَقَّى ، فاقترب منه الأحذب وسأله إن كان هو المدرس الجديد ؟ ولما علم من جوابه أنه هو ، سأله إن كان له مكان يبيت فيه ؟ وعلم أن لا مكان ، فدعاه إلى المبيت معه في منزله حتى يدبر أمره في الصباح ، وعاوناه على حمل أمتعته ، وذهب كلاهما إلى الدار ، ولم يكن بها إلا سرير واحد ، فأنزل صاحبنا الأحذب اللحاف وفرشه على الأرض وركد ، تاركا السرير للضيف .

كل هذا جميل ، ولكن القبيح في الأمر هو أنه منذ قبل الضيف دعوته وهما في المحطة ، ختم الأحذب على شفتيه بخاتم الصمت فلم ينطق بكلمة واحدة إلى ضيفه هذا الذى تبرع بمقابلته وبدعوته ، ففي صمت تام سارا ، وفي صمت تام دخلا الدار ، وفي صمت تام أعدَّ الأحذب فراشه على الأرض ، وفي صمت تام قضى الليل ، وفي صمت تام استيقظ في الصباح وأعدَّ لضيفه الفطور ، وارتدى ثيابه وخرج ، وترك وراءه الضيف الغريب لا يدري ماذا يصنع بنفسه ، حتى شهدناه وهو يلتقي بالأحذب في بهو المدرسة ليسلمه مفتاح منزله شاكرا ، ولقد روى لنا المدرس الجديد قصته هذه وهو في عجب شديد من هذا المضيف الذى تطوع بالفضل ، ثم سلك هذا السلوك الشاذ كأنما قد أحسَّ بالندم على الفضل الذى تطوع بأدائه مختارًا ، وقل ماشئت فيما أحدثته هذه القصة من دوى في مجالسنا الخاصة ، لأنها جاءت آية جديدة تفسر غوامض هذا الرجل الفريد ، فهو يؤدى الواجب أداء كاملا ، ثم ينسحب مخفيا عن الأنظار والأسماع .

الفردية هي طابع هذا الرجل ، فهو لا يطمئن نفسا إلا إذا تفرد واختلف عن غيره قليلا أو كثيرا ، فقد حدث لنا ونحن ما نزال ندرس في المدرسة الابتدائية بمدينة أجا ، أن زار البلد رئيس الوزراء ، واستعدت الحكومة المحلية في المدينة بألوان من الترحيب مما يطوف بالخيال وما لا يطوف ، ومن ذلك أن أعدَّ سراق فسيح ليحشد فيه الناس حشداً كي يخطب فيهم القادم الكبير ، وكان رئيس الوزراء عندئذ حاكما مستبدا ظفر بمنصبه كرها وغصبا ، وكان على الموظفين جميعا ، وعلى المدرسين بصفة خاصة ، أن يذهبوا ليرصوا على المقاعد مع سائر من يُرص من أبناء الإقليم ، وذهبنا جماعة واحدة كما أمرنا أن نذهب ، كأنما نحن قطيع من الغنم يسوقه الراعي مجتمعا حتى لا تشرذ منه غنمة فتضل الطريق - ذهبنا جماعة واحدة إلى السراق ، ومعنا الأحذب بنظارته ذات العدسة الواحدة على عينه اليسرى ، وكان مقدرا للمدرسين أن يجلسوا في صفوف خلفية ، وفعلوا كما أمروا إلا صاحبنا الأحذب فقد نَفَرَ كالقط المفترس ، وفي خطوات فسيحة مندفعة قصد إلى الصف الأول في السراق حيث اتخذ مجلسه ، فلما أن نبهه المنظمون أن ليس هذا موضعه رفض حتى أن يلتفت إليهم بنظره أو أن يجيب ، فحدثت حركة ملحوظة بين جماعة المنظمين ومعظمهم من ضباط الشرطة ، حتى جاءوا له برئيسهم ، فلم يعرف هذا إلا أن يخيره بين أمرين فإما أن يجلس حيث يجلس زملاؤه ، وإما أن يأمر رجاله فيقذفوا به في الطريق ، وهنا أخرج له الأحذب تذكرة الدعوة من جيبه ، وقال : إنه تلقى هذه الدعوة فجاء مليا ، ولم يكن بالدعوة ما يبدل على مكان معين للجلوس ، ولذلك فهو مصرٌّ على البقاء حيث هو ، وليفعل صاحب الشرطة ما يشاء ، فإن قذف به في الطريق كما توعدته ، فقد خدمه بذلك خدمة سيذكره عليها ، لأنه

ترك مسرحية « حلم ليلة في منتصف الصيف » مقروءة إلى نصفها ولأن يُتمّها خير له من أن يسمع ما جرى به ليسمعه ، فاستشاط الضابط غضباً وصمم أن يعلمه درساً ، بادئاً بأن نفلد ماقد توعد به ، وأمر رجاله أن احملوه وارموا به خارج السرادق ، لكن رجاله لم يجدوا من يحملونه ، لأن صاحبنا الأحذب ترك مكانه وخرج ، ولا أدري هل أصابه بعد ذلك سوء أو لم يصبه .

تفرد عجيب في هذا الرجل كما وصفه لى صديق الذى أنقل عنه روايته -
هكذا استطرد فريد في روايته ، ومضى يقول :

كان بين أخباره التى رواها لى صديق عن الأحذب . أن ناظر المدرسة قد استدعاه يوماً ليحدثه في أمر ابنه التلميذ ، وكان ذلك الناظر موضع استخفاف من المدرسين لتفاهته وجهله ، فلما أن ذهب إليه الأحذب شكاً إليه الناظر ضعف ابنه في اللغة الإنجليزية ضعفاً يلفت النظر ، لأنه عاجز عجزاً تاماً عن أن يكتب كلمة واحدة صحيحة الحروف ، فهلا تولاه الأحذب بعناية خاصة ؟

- قال الأحذب : وماذا تريدنى أن أصنع لابنك هذا ؟

- قال الناظر : تُعوّده على كتابة الإملاء ، وأنت الرجل « الفنى » القدير وأنت تعرف - هكذا وجه فريد الكلام إلى قاطعا بذلك مجرى روايته -

أنت تعرف أن مدارس الريف لم تكن قبل ذلك قد شهدت المدرسين ذوى المؤهلات العليا ، إذ كان المعلمون فيها يؤخذون من كل صنف ، ويكفى فيهم أنهم يقرأون ويكتبون ويلمون بمبادئ الحساب ، قال فريد هذه الملاحظة العابرة ، ثم عاد إلى روايته ، وكانت قد وقفت عند الحوار الذى دار بين الأحذب وناظر المدرسة :

- قال الأحذب وكأنه يمزح : علاج ابنك هو أن يلعب البنج بونج

- فأجاب الناظر في دهشة : يلعب البنج بونج ليصلح أخطائه في

الإملاء ١٩

- قال الأحذب : نعم .

- قال الناظر ساخراً : وكيف كان ذلك يا مولانا ؟

- أجاب الأحذب في شيء من التعالي وكأنه أراد أن يذكره بالفرق بينه

وبينه : إن ابنك حين نطلب إليه هجاء كلمة ، تهجأها صحيحة ، فإذا كتب أخطأ ، وإذن فالضعف هو في العلاقة بين المخ وحركة اليد ، وقد تنضبط هذه العلاقة بلعبة توثق الصلة بين مركز إصدار الأمر في مراكز المخ وأداة التنفيذ الحركي في الذراع واليد .

فبهت الرجل لهذا « الفن » التبرؤ العجيب : ودارت الرواية في المدرسة

كلها . وأصبحت من النوادر التي تروى .

ولقد أثار ذلك الأحذب ضجة حوله كادت تودى به في أول اشتغاله بالتدريس ، وقصة ذلك أنه كان يكتب مقالات كثيرة في مجلة أدبية كانت صدرت حديثاً في تلك الأيام ، ولم يكن زملاؤه يتتبعون ما يكتبه إلا عن طريق الإشاعة ، حتى فوجئت المدرسة ذات يوم بخطاب من مدير التعليم في الإقليم ، يطلب من ناظر المدرسة أن يحقق معه في شكوى رُفعت إليه من شيخ أزهري في المدينة ، كان يعرف باسم « الدكتور غراب » وكان الشيخ قد أرفق بالشكوى عدداً من المجلة فيه مقالة للأستاذ رياض عطا هذا ، وقد ورد في المقال رأى عن أحد الفلاسفة بأن الله لم يكتمل وجوده بعد . ولكنه في طريق التكوين ، وأنه ليس الصواب هو أن نقول إن الله قد كان ، بل الصواب هو أن نقول إنه سيكون ، لأن ذلك الفيلسوف المنقول عنه نصير للمذهب التطور على طريقته هو

الخاصة ، ولا يكون للتطور معنى إلا إذا كان الكمال هو الغاية وليس هو البداية ، وكلام كثير من هذا القبيل ، فطلب المدير في خطابه أن يُسأل هذا المدرس إذا كان يقول كلاما كهذا للتلاميذ ؟.

وقد ارتعد ناظر المدرسة لهول الواقعة ، ففي مدرسته مدرس ملحد وهو لا يعلم ! وأما الأستاذ عطا فقد كان ثابت الجنان ولم يزد في التحقيق على قوله : إن ناقل الكفر ليس بكافر ، وأنه من البديهي أنه لا يقول كلاما كهذا أمام تلاميذ مدرسة ابتدائية ، وأرسلت إجاباته إلى المدير ، الذى أحال الأمر كله بدوره إلى القاضى الشرعى فى مديرية الدقهلية ، فأفتى بأن ليس على هذا المدرس لوم مادام قد اعترف بأنه لا يأخذ بمثل هذا رأى الذى ينقله ، وبأنه لا يتحدث فى موضوعات كهذه أمام التلاميذ .

لكن المسألة وإن تكن قد انتهى أمرها من حيث الإدارة والتحقيق ، إلا أن نبأها سرعان ما انتشر فى المدينة حتى على أفواه عامة الناس ، وأخذوا يروون إشاعات من خلق أوهامهم ، يصفون بها كيف أن الله يرسل لهذا الملحد نذره ليستقيم بعد ضلال ، من ذلك أنه كان يسير ذات يوم فى شارع السوق والهواء عاصف ، فسقطت كتلة ضخمة من الخشب على بعد قدم واحدة منه هاوية من سطح مرتفع ، فما هو إلا أن شاع فى الناس أن الله جلت قدرته قد أراد أن يتوعده هذه المرة ، فإن لم يرتدع أنزل عليه شديد العقاب .

وانتهجت الأنظار إلى الشيخ الدكتور غراب ، لترى ماذا هو صانع بعد أن فسدت شكواه الأولى التى طلب فيها من مدير الإقليم أن يعزل المدرس لأنه خطر على أبنائهم ، فأخذ صاحبنا الشيخ يترقب فرصة أخرى ، وسرعان ما سنحت ، ذلك أن المدرسة قد أعدت للبلد برنامجا ثقافيا يلقى فيه مدرسو المدرسة محاضرات

عامة ، وكان أن اختار الأستاذ رياض عطا موضوع الأحلام وتفسيرها على الطريقة العلمية الجديدة ، قائلا للناس إنها لا شأن لها بالغيب ، وأنها تعكس الماضي ولا تصور المستقبل إلا باعتباره امتدادا للماضي ، محتثا محاضرتة بقوله : « فإذا كنت قد هدمت لكم عقيدة راسخة من نبوءة الأحلام ، فليس الذنب ذنبي أنا ، ولكنه ذنب العلم الحديث » . وكان الدكتور غراب من الحاضرين ، فلم يلبث أن أقامها حربا عنيفة على هذا الذي جاء « ليهدم العقيدة الراسخة » على حد قوله ، وبدأت الحرب أن نهض فورا ليسأل المحاضر : وماذا تقول في تأويل الأحلام على لسان سيدنا يوسف عليه السلام ؟ فأجابه المحاضر على البديهة : لو كان مثل هذا التأويل في وسع الناس كافة ، لما عُذَّ معجزة لنبيٍّ من أنبياء الله ، لكن هذه الأمور في مثل هذه الظروف لا تسير بالحجة ، بل تسير بصرخات الانفعال ، وهذا هو ما كان يومئذ ، مما أوقف رياض عطا بعد ذلك موقفا فيه الشهرة وفيه الخطورة في آن معا .

ولست أدري ماذا كان شعوره الداخلي إزاء هذا كله ، لأنه لم يكن يخالطنا بما يكفيننا لنعلم دخيلة نفسه ، ولم يمض بعدئذ أسبوع واحد ، حتى فاجأنا بغربة جديدة .

فقد كان التلاميذ يجتمعون ساعة الغداء تحت سقيفة كبيرة في فناء المدرسة ، وكان كل منهم يحىء ومعه غداؤه منذ الصباح ، ومعظم التلاميذ من القرى المحيطة بالمدينة ، فثيابهم - كما تعلم - عنوان الفقر كله والبؤس كله ، وكذلك طعامهم الذي كانوا يصرونه في مناديلهم القذرة إلى أن تحل ساعة الغداء ، وإذا بصاحبنا يذهب إلى تلك السقيفة ذات يوم ، والأولاد مجتمعون على غداثهم ، فيقف أمامهم صامتا ، ينقل فيهم عينيه ، ثم يبدأ لهم في درس يعلمهم به كيف

يحلون ثيابهم أقرب إلى الذوق الجميل ، وطعامهم أدنى إلى قواعد الصحة ، وقد خرجنا نحن المدرسين من حجرتنا « لتتفرج » على هذا « الإمام الواعظ » ماذا يقول لأطفال صغار ينوء أهلهم تحت فقر فطيع وجهل أقطع ، فكانت أول عبارة سمعتها قوله : « فلا تختار ملابسك من ذوات الألوان الفاقعة ، ولا تجعلها ظاهرة الخطوط » إلى آخر هذه القواعد التي تفترض أن الطفل السامع في وسعه أن يختار بين ألوان وألوان ، وبين خطوط وخطوط ، كأنه لم يعلم أن سامعيه كانوا من فقر آبائهم بحيث لا يكون في الأمر اختيار بين ثوب وثوب وبين طعام وطعام .

لكنه التعلّق بالمثل العليا - والحق يقال عن هذا الرجل - هو الذي أظهره في صورة الشاذ الحالم ، إنه يتمنى الأمنية ثم يحاول تحقيقها فيوفق حيناً ويعجز أحياناً ، فيأخذ اليأس لعجزه أكثر مما يأخذه السرور لتوفيقه .

لم يكن كثير الذهاب إلى المقهى عندما جاءنا مدرسا ناشئا ، وكان في البلد شبه ناد يرتاده الموظفون عادة ، فقصده إليه وحده ساعة العصر من يوم قارص البرودة ، وأراد أن يأوى من المكان إلى ركن دافئ ، ففتح بابا مغلقا ليجد نفسه في غرفة خالية إلا من قطع الأثاث التي تبدو للرأى على الفور أنها أعدت لفئة ممتازة من المرتادين ، ولم يتعب نفسه بالتأويل والتفسير وبالسؤال والجواب ، فحسبه أن وجدها غرفة نظيفة تحقق له الهدوء والخلوة ، وما هو إلا أن جنّاه المناول - وكان يونانيا - وشيء من الفزع على وجهه ، ففاجأه الأحذب بطلب فنجان من القهوة .

المناول : هل تسمح - من فضلك - بالذهاب الى الناحية الثانية ؟

الأحذب : أية ناحية ثانية ؟

الناول : هناك ، مع الناس ، هناك في القهوة .

الأحدب : وما هذه الغرفة إن لم تكن جزءاً من « القهوة » ؟

الناول : هذه غرفة الحكومة .

الأحدب : غرفة الحكومة !؟ ماذا تعني ؟

الناول : أعني البك المأمور والبك القاضي والبك وكيل النيابة والبك

الدكتور .

الأحدب : وما رأيك في البك المدرس إذا أراد الجلوس هنا ؟

الناول : ممنوع

الأحدب : اذهب وهات فنجاناً من القهوة ، سكره قليل .

الناول : من فضلك هذا ممنوع ، في هذا ضرر يلحق بي .

الأحدب : اذهب وهات فنجاناً من القهوة ، سكره قليل ، ولا تنطق

بكلمة واحدة بعد هذا .

ذهب الناول وعاد ومعه القهوة ويصحبه رجل آخر لعله صاحب المقهى ،

وحاول الإثنان حمل صاحبنا على العدول عن الجلوس في تلك الغرفة الخاصة ،

قائلين له إنه لا مانع من أن يشرب قهوته هناك ، أما بعد ذلك فالأفضل له أن

يجلس حيث الناس كثيرون .

لم يلق لها بالا ، وأخرج من جيب سترته كتاباً صغيراً ، وراح يقرأ كأن لم

يكن واقفاً إلى جانبه أحد .

ولبث هناك نحو ساعة ، والباب مغلق عليه وحده ، وإذا بالباب يفتح

فجأةً وبعنف شديد ، بيد رجل ضخم دخل الغرفة وهو يضحك بأعلى صوت

تستطيع أن تخرجه حنجرة بشرية ، ووراءه اثنان يضحككان معه في صوت

خفيض كأنها أراد أن يكونا بمثابة البطاقة الضاحكة التي تحيط بضحك الزعيم لتبرزه ... لكن ذلك العجل البشرى الهادر المنقصر على الهواء أمامه كأنه يريد أن يبتلع كله في جوفه الكبير ، ماكاد يخطو بإحدى قدميه داخل الغرفة حتى رأى صديقنا الأحذب يفرد منظاره على عينه اليسرى ، وقد جلس في ركن الغرفة يقرأ ، لا يحرك ساقا ولا ذراعا ، ولا يخرج عينه من وراء صفحات الكتاب .

وقف الثلاثة لحظة ، راح العجل البرى خلاهما يلفظ من فمه خوارًا غير مفهوم ، ثم صفق بكفيه تصفيقا مدويا ، جاء على إثره المناول اليونانى يهرول .
- ما هذا ؟ أياح للجمهور استخدام غرفتنا ؟

المناول : ياسعادة البك المأمور ، أتعبنا أنفسنا معه فلم يخرج .
المأمور : إذا جاءت بقية الإخوان فقل لهم إننا مجتمعون في منزل البك وكيل النيابة .

وخرج الثلاثة ولم يعودوا ، ومنذ تلك الليلة أصبحت الغرفة الخاصة غرفة للمدرسين ، فقد سمعوا بالخبر وهم في بهو المقهى ، وجاءوا فجلسوا مع الأحذب يشدون أزره ويؤيدونه ، أما الأحذب فلم يكن يعنيه ذلك لأن ارتياد المقهى لم يكن جزءًا من حياته ، وأما رجال « الحكومة » فلم يعد أحد يراهم هناك ، وقيل إنهم اتفقوا على أن يجعلوا من بيت وكيل النيابة الأعزب مقرًا جديدًا لهم .

٣

سمعت هذه الرواية عن الأحذب أيام شبابه ، فكنت كمن يصحو من حلم ، يختلط عليه الأمر بين ما يراه ويسمعه في دنيا الواقع من قول ، وبين أشياء

مرت به فى الحلم ! وذلك أنى كنت وأنا أنصت فى القطار لما يقص على صديقى فريد . أحس إحساسا غامضا بأن تلك الأحداث كلها وتلك الأحاديث كلها ، إنما حدث لى مثلها وتحدثت بما يشبهها ، وإن فى ذلك لسراً غامضاً لم أتبين حقيقته إلى يومى هذا .

نعم إن بينى وبين الأحذب من أوجه الشبه شيئاً كثيراً . لكن أوجه الشبه بين رجلين لا تجعلهما رجلاً واحداً ، أو هكذا ظننت عندئذ ، فحسب هذا التشابه بيننا أن يفسر لى هذا التجاذب الشديد الذى صادق بيننا إلى الحد الذى يجعل كلاً منا يفرح بلقاء الآخر ويسمى إليه ، أما أن يشتد إلى درجة الهوى بين شخصين فذلك هو موضع العجب ، ومع ذلك فهو تشابه يحاذيه اختلاف بعيد يفرق بين مزاجه ومزاجى .

كلانا بدأ حياته مدرسا ، وكلانا سلخ أعوام شبابه عزيا ، ولكلينا ولع خاص بالثقافة من إحدى زواياها ، فهو مثلى يتبع المذاهب الفكرية العامة فى الفلسفة والنقد ، وفى الفن وفى السياسة وفى الاجتماع ، تتبعنا نحو التجريد فى الفكرة والبعد بها عن التطبيق ، ولذلك فنحن كلانا نبرع فى الجدل النظرى . بقدر ما نعجز عن التماس طريقنا فى الحياة العملية ، وإن يكن الأحذب بعد هذا التشابه بينى وبينه يعود فيختلف عنى فى درجة الولوغ والإيغال فى عالم الثقافة هذا ، ويتسع هذا الاختلاف بيننا حتى يشمل طريقة النظر إلى الحياة ، فهو سوداوى المزاج قلق متشائم ناثر على الأوضاع كلها كيفما وجدها ، فلا يرضيه أن يكون الأبيض أبيض ولا الأسود أسود ، وقد انعكست هذه النظرة على طريقة معاملته للناس ، وهأنذا قد وجدته فى عزلة لا يكاد يعرف أحداً أو يعرفه أحد ، وفوق هذا كله فهو يدس فى خفايا نفسه شعوراً بالنقص ما يفتأ يستفحل

أمره معه فيؤثر على سلوكه تأثيراً صريحاً واضحاً ، على حين أفي - برغم ما بيني وبينه من تماثل في كثير من الوجوه - قد لا أكون راضياً عن بعض الأمور فأكتب السخط لأظهر الرضى ، وأبجد الغيظ لأبدو هادئاً ، وأقيم الثورة في جوانبي لاستسلم للأمر الواقع ، فلئن كان الأحذب يترك زمامه للدفعات الهوى ، فإنني كثيراً ما ألجم الأهواء بشكيمة العقل .

بلغ بنا القطار غايتنا وغايته - مدينة الإسكندرية - وتفرقت بيني وبين صديقي فريد وزوجته سبل الطريق ، وكنا لم نزل في أول الضحى فأخذت طريقى إلى شاطئ البحر لأمضى سويحات انتظار لموعدى هناك ، فجاءت جلستى أمام البحر فى الكازينو الذى كاد ساعتها أن يخلو من زبائنه ، أقول إن جلستى تلك قد جاءت فرصة مناسبة أنامل فيها هذا اللغز النفسى العجيب . وهو أن أسمع روايات تروى أمامى عن الأحذب فى بدء حياته العملية ، فإذا هى روايات تحدث فى نفسى شيئاً كرجع الصدى ، وكأنما هى ذكريات من شبانى لا قصص تروى عن شخص آخر .

لكن الله قد أراد لذلك اللغز أن يزداد إلغازاً بدل أن يحد شعاع الضوء الذى يفك طلاسمه ، وذلك أن صوتاً جاء ينادينى من الخلف ، هو بداته صوت الأحذب كما عهدته . فالتفت ورأى دهشاً ، لأرى صديقاً لم أتوقع قط أن أراه ، لأننى كنت ظننته قد غادر البلاد فى بعثة دراسية ، فما إن جلس وألقيت عليه السؤال . حتى أفهمنى حقيقة موقفه ، وهى أنه إنما تعذر عليه السفر كما تعذر على سواه فى تلك الأيام السود ، فصمم على أن يعوض ما فاتته بدراسة يؤديها هنا بنفسه ولنفسه ، حتى إذا مازالت عن العالم غمته ، وسنحت فرصة السفر إلى أوروبا مرة أخرى ، كان قد قطع شوطاً على الطريق يدينه من غايته .

كنت أعرف في صديقي هذا - واسمه إبراهيم - منذ أيام الدراسة تعدد المواهب والقدرة على خلق المبتكر . حتى ولو كان ذلك المبتكر الذى يخلقه شيئاً لا نفع فيه : وكان يتميز دون سائر الزملاء بجمال الخط ودقة الرسم ونظافته ، ولذلك كان يبحث عن العمل الذى يتطلب الكتابة والرسم . ليتمكن من عرض خطه الجميل ورسمه الدقيق النظيف ، حتى لو كان هذا العمل لسواه لا لنفسه : لقد كان هذا الصديق قوى الخيال فى غير منهجية واضحة تنظم ذلك الخيال ليحىء خيالا متجا بناءً فهو خيال أقرب إلى خيال الأطفال حين يصور لهم الوهم أن العصا بين أرجلهم حصان أو قطار .

لكن ذلك الخيال القوى عند صديقي قد كان من خصائصه النافعة - من جهة أخرى - أن يصور له الغايات قبل وقوعها تصويراً ناصعاً ، حتى ليظن هو أن تلك الغايات المأمولة قد باتت واقعا محسوساً ، ومثل هذا التصور الناصع للغايات ، من شأنه أن يحفز صاحبه على العمل ، لأنه يخرج الأمل من دنيا الأحلام ليدخله فى دنيا الحقائق .

وبهذا التصور القوى للغايات المرجوة البعيدة ، رسم صديقي إبراهيم لنفسه خطة دراسته التى يستعد بها انتظاراً للفرصة إذا سنحت للسفر ، ولما قابلته كان بالفعل قد قطع شوطاً لا بأس به من الطريق ، ظفر فيه بشهادتين من جامعة لندن : الشهادة الأولى ، والشهادة الوسطى ، ولم يكن قد بقى له إلا شهادة الحتم ، وأخذ يشرح لى بشيء من التفصيل ماذا قرأ وفى أى اتجاه يسير ، وأين اجتاز الامتحان ، وعلمت مما رواه لى أن سيره يتجه به فى طريق الدراسة الفلسفية ، وأن امتحانه للشهادة الأولى كان فى مدينة القدس قبل محنة القدس بعشرات السنين ، لأن جامعة لندن لم تكن بعد قد جعلت القاهرة مركزاً

لنشاطها الخارجى ، وأما امتحان الشهادة الوسطى فقد كان فى القاهرة .
- سألته قائلاً : لكن لماذا تبدأ الشوط من أوله ، ودرجة الليسانس التى

بين يديك تعفيك من بعض المراحل ؟

- فأجابنى : أردت أن أجعل طريق السير متجانسا ومتكاملا ، وفيه العجلة ؟ إننى أستهدف الدراسة نفسها بقدر ما أستهدف الشهادات ، وقل إن المسألة كلها فيها من التسلية العلمية مقدار ما فيها من جدية الأهداف .

لم يدهشنى اختياره للدراسة الفلسفية . لأننى كنت أعلم أن له فيها ماضيا مليئا بالجهود المزدوجة بالحب الشديد ، وهل أنسى أننا حتى ونحن فى أيام الدراسة كنا قد لحظنا فيه هذا الميل بوضوح ، فأطلقنا عليه اسم « سقراط » وأذكر أنى سألته ذات يوم منذ زمن بعيد : ما الذى مال بك نحو الفلسفة بكل هذا الحب ؟ فأجابنى بأنها المصادفة البحتة هى التى أوقعته على كتاب إنجليزى صغير عن الفلاسفة الثلاثة الكبار : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلما قرأه كان كمن كشف عن نفسه الغطاء ، إذ أحس أن مثل هذه المادة العقلية هو ما خلق من أجله ؟ فإذا كان « شن » - فى المثل العربى القديم - قد وافق « طبقة » فكذلك قد وافقت الفلسفة طبيعتى : ولعله منذ تلك اللحظة لم يحد عن الطريق .

٤

أقول إن لغز العلاقة بينى وبين الأحذب قد ازداد إلغازاً حين قابلت إبراهيم على شاطئ البحر ، فند سمعت صوته ينادى بنبرة هى نفسها نبرة الصوت عند الأحذب ، ثم حين جلس معى يوجز لى جهوده الدراسية التى اضطلع بها من

تلقاء نفسه بعد التخرج ، وجدت هذا الشعور العجيب يملؤني ، فحال ألا تكون هنالك علاقة لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب ، بيني وبين الأحذب ، ثم بيننا وبين إبراهيم ، فلقد أحسست كأننا ثلاثة أعضاء من كيان عضوي واحد : أسمع عن الأحذب أخباره فأحس أني أسترجع أخبار الماضي الذي عشته ، ثم يتحدث إلى إبراهيم عن جهوده فيخيل إليّ أنه إنما يذكرني بنفسي ، فن أين جاء هذا الخلط العجيب بين أشخاصنا الثلاثة ؟

تركني إبراهيم لأرسل بصرى إلى الأفق البعيد ، مسترجعاً لنفسى شريط الأحداث كما وقعت لي بعد التخرج من مدرسة المعلمين العليا فإذا المشهد أمامي ينشق إلى ثلاثة فروع تنبثق كلها من أروقة واحدة ؟ ولا فرق عندي بين أن يكون هذا هو الماضي كما وقعت بالفعل . وبين أن يكون من خلق أوهامي ، وحسبي أنها صورة صحيحة في أساسها وفروعها .

فلقد توهمت حين أرسلت البصر إلى الأفق البعيد . أن أمامي ثلاثة رجال ، سار كل منهم في طريق ، لكن الطرق الثلاثة كانت تلتقي عند رأس واحد ، فهنا رجل إلى اليسار قد أخذ في مشية متعثرة خفيفة الخطى . تقوس ظهره وكأنه الأحذب الذي عرفته ، يتلفت يمنة ويسرة كأنه العصفور المذعور يخشى هجمة العقاب المفترس ، وهناك رجل آخر إلى اليمين قد سبق بخياله مواقع قدميه ، ونظر إلى بعيد فمرت الدنيا تحت أنفه وهو لا يراها لأنه انشغل بغيره عن يومه ، تبين الرجلين ثالث قيده الأمر الواقع بقيوده ، فسار وكأن لم يكن أمامه أفق بعيد يرسل إليه البصر ، وكأن لم يكن بعد يومه غد يرتجيه .

وكان لكل من الرجال الثلاثة نشاطه الخاص ، الأول مدفوع بغرائز الفطرة ، وكانت فيه بذور الأديب والفنان ؟ والثاني طموح ، وجد نفسه يسكن

الطابق الأرضي الذي لم يكن فوقه طابق يعلوه ، فأراد أن يقيم يديه الطوابق العليا واحدا فوق الآخر ليصعد إلى هواء نقى نظيف ؟ وأما الثالث فهو يعمل كسبا للقوت ، راضيا بما قسمه له خالقه من دنياه ، أولعه ركن إلى جناحيه الأيسر والأيمن ليكمل له جوانب النقص ، فالأيسر منها يطير به في دنيا العاطفة حتى ولو كانت هوجاء عمياء ، والأيمن منها يبني بالعقل الصرف صرحا هو في حاجة إلى بنائه لتعلو به مدارج الإدراك وإن لم يتبع ذلك علو في مدارج الحياة - فقل إنهم ثلاثة رجال ، أو قل إنهم رجل واحد في ثلاثة شخوص ، فالقولان سيان .

ولقد جاءت هذه الخواطر بصورة الأحذب إلى صفحة ذهني : فوجدتني مشوقا إلى لقائه . ولم أضيع دقيقة من وقتي بعد أن فرغت من مهمتي التي من أجلها ذهبت إلى الإسكندرية ، وعدت مسرعا ، وقصدت إلى مسكنه فور وصولي إلى القاهرة ، كنت أصعد سلم داره ، لافتنا وجهي إلى أعلى إبان الصعود ، وقبل أن أبلغ من « السلام » نصفها ، سمعت وقع قدميه هابطا ، ولحمت أطراف سراويله فوقفت حيث كنت : قَدَمٌ أعلى ، وقدم أدنى ، ويد ممسكة بالحاجز الخشبي .

رأى فأسرع المهبوط حتى كاد ينكفي على وجهه ، ولقيني والبشر ينؤه على نحو لا عهد لي به :

- قال : أهلا ، أين كنت ؟ لقد طال غيابك عني ، مع أن لدى من المفاجآت ما أردت أن أحدثك عنه .

- قلت : مفاجآت في حياتك أنت ؟

- قال : في حياة من تريد ؟ لقد وجدتها بعد كل هذه الأعوام الطوال

- قلت : وجدت من ؟

- قال : وجدت من فَتَحَتْ لى بابَسامتها المنادية مصاريع العالم المسحور

- قلت : ... وبعينها التى تدعو؟

- كنت ما أزال أقف على السلم بقدم على درجة أعلى ، والأخرى على درجة أسفل ، ويد ممسكة بالحاجز الخشبي ، ولم أكد أنطق بهذه الجملة الأخيرة التى استعرتها من مذكراته التى كان أعطاني إياها لأقرأها عن حياته إبان المراهقة ، أقول إني لم أكد أنطق بهذه الجملة حتى سبج بنظرته قليلا ، فى مزيج من الدهشة ومحاولة التذكر ، لكن سرعان ماعاد إلى بوعيه ، قائلا إن القصة طويلة ، والموعد قد دنا ، فهيا معي ، وسأحدثك عن الأمر فى الطريق .
وأخذنا ننزل الدرج معا ، وسألته ونحن نازلان :

- موعد مع من ؟

- قال : مع سميرة وزوجها .. لكنك لا تعرف بعد من سميرة هذه ...
وهنا كنا قد خرجنا من الباب إلى الطريق ، ومال بنا نحو اليمين ، وهو اتجاه يضاد الاتجاه المؤدى إلى مكان اعتزاله الذى يأوى إليه بعد الغروب من كل مساء ، وإذن فقد حدث ماغيره من نقيض إلى نقيض : فهاذاك ياترى ؟ أتكون سميرة هذه هى الشيطانة التى ألهمت جوانحه ذات يوم من شهر الصيام . وهو لم يزل بعد على عتبة الشباب ؟

على أننا ماكدنا نستوى على الطريق - وكان مزدحما بالمارة ازدحاما شديداً ، حتى لقد كنت أنا والأحدب كثيراً ماينفصل أحدهما عن الآخر فى الزحام ثم نعود فلتنقى - ماكدنا نستوى على الطريق حتى أخذ يقص على فى نشوة الطفل المرح المغتبط بقصة يرويها لأبيه عن مَرَدَةِ الجنّ ، كيف ذهب ذات

مساء - أثناء غيبتى بالإسكندرية - إلى كازينو الشاطئ ، ولم يكن يعلم أنه غاص بمرتاديه إلى ذلك الحد الذى رآه ، وبحكم عاداته فى إثارة العزلة ، اختار منضدة على الطرف الأقصى حيث يقل المرتادون : وبينما هو يتبأ للجلوس ، إذا بالرجل والمرأة الجالسین على المنضدة المجاورة يتلفتان إليه تلفت من يحاول التذكر ، وأما هو فإزاء هذا التطلع منها فقد جلس ونصف ظهره إليهما ، حتى يحرمها من رؤية وجهه رؤية واضحة وفى الوقت نفسه لا يُحرم هو إرسال بصره تجاه النيل ، لكنه سرعان ما تذكر أنه بهذا الوضع إنما يعرض عليها تشويه ظهره ، فاستدار ليجلس مستقيماً ، وجهه إلى النيل ، وصفحة وجهه اليمنى إلى الجالسین بجواره .

لم يكن التطلع مقصوداً على ذينك الجارين ، لكنه مالبث أن امتد إليه ، برغم ادعائه لنفسه أنه حبيس نفسه ، مكتف بذاته ، يحيط نفسه بأسوار من وهمه حتى لا ينفذ أحد إلى حصنه ، يقول لى الأحذب وهو يروى قصته - ونحن مانزال نشق طريقنا فى الزحام ، وكثيراً ما قطع الزحام حديثه عند كلمة فى سياق الرواية ، فيعود لاهثاً ليكمل الحديث حيث انقطع ، وكان الأحذب أقصر منى بمقدار ما احذوب ظهره ، ولذا فقد كان يضطر أن يشرئب بعنقه نحو سمعى - يقول لى الأحذب وهو يروى قصته ، إنه - بدوره - قد أخذ يتطلع خلصة فكان كلما وجه النظر إليهما ، وجدهما ناظرين إليه بأعين غامضة فيعود منسحباً بنظرتيه كأنما يريد أن يخفى عنهما أنه هو كذلك ينظر .

ثم ما هو إلا أن هتف فى دخيلة نفسه هاتف ارتج له قلبه بنبضة قوية كأنها جاءت نبضة زائدة على مجرى النبض المعتاد ، ذلك أنه تذكر مؤخراً - كالصدى يحىء بعد النطق - أنه بنظرتيه الأخيرة إليهما قد لمح فى المرأة سمة أمامية

لها بروز خفيف وتفصلها عن السنّة المجاورة فجوة صغيرة ، ولم يكن قد تنبه إلى شيء إذ هو ينظر إليها نظرتة الخاطفة ، فما إن اعتدل في جلسته حتى جاءه الهاتف يهتف بل يصيح :

- أتكون هي ؟

واستطرد الأحذب يقول لى كيف أنه أعاد النظر بلفتة حادة سريعة جاءت رغم أنفه ، فإذا هما يقطعان باليقين ما كان عندهما موضع شك ، ونادت المرأة بصوت أبجّ :

- رياض !

فاندفع الأحذب إليها كالجنون :

- سميرة ! هذا مستحيل . هذا مستحيل ، ومختار !

وكان بين الثلاثة ما يكون بين الأحباء ضربت الأيام بينهم حيناً طويلاً . ثم لاقت بينهم على غير انتظار منهم ، ولو انتظروا لما تحقق لهم مثل هذا اللقاء ، لكنها الأيام وحبا للمباغثة تفاجئ بها الناس . ليعلموا أن وراء تدبيرهم الضيق تدبيراً أوسع وأعم .

كانت سميرة ومختار متقاربين في العمر مع الأحذب ، أما هي فأعوامها لم تزدها - في عين الأحذب - إلا نضجاً أثويًا ، فالشفتان المليتان بعض الشيء مازالتا - في عينه - تناديان ، والعينان العميقتان المتألفتان الضاحكتان مازالتا تدعوان ، والبشرة مازالت على صفائها القديم ، والصوت الأبحّ قليلاً مازال يثيره ، وكأن شعراتها البيض لم تفعل سوى أن زادت إشراقاً على إشراق ، وملاحة على ملاحة ، فإذا وُصِفَت سميرة بجملة واحدة ، قيل إنها ذات الوجه الصبوح ، فلاحها لا تعرف الجهامة ، ووجها لا يعرف العبوس ، وذكاؤها

اللامح متوقد في عينيها ، إنها لم تكن قد زادت في دراستها على سنوات قليلة في مدرسة أولية ، فهي تكاد تخلو من كل تحصيل درس ، لكن من ذا يبحث وهو معها عن تحصيل ؟ فها هنا تكون فطرة الأنثى على أتمها وأكملها ، بحيث يشعر الرجل وهو بين يديها أنه في حضرة الجنس كله وقد تجمّع في واحدة من بناته ، بل إنها كلما استخدمت في حديثها كلمة أو عبارة مما اعتاد نساؤنا وهنّ على الفطرة أن يستخدمنها ، ومما يحرص من تعلمن منهن أن يحتنبنها ، جاءت تلك الكلمة أو العبارة على أعماق نفسه كالموقف للطبيعة النائمة .

إنه في الحق لأمر عجيب يستحق النظرة الفاحصة : يتعلم أبناؤنا وبناتنا ، فيتطور المتعلم الفتى في كل شيء إلا في مثيراته الجنسية ، فهذه تظل كما كانت لتكون لو لم يتعلم شيئا ، على حين لا تكاد تتطور المتعلمة الفتاة في شيء إلا في مثيراتها الجنسية . فلا يبقى فيها شيء مما يكون عند أختها المتروكة على الفطرة . مع كون الأختين من ثقافة اجتماعية واحدة .

وسميرة امرأة من اللاتي نشأن على فطرة التقليد الثقافي للمرأة ، واحتفظن بما نشأن عليه ، ولا اعتبار لأن يكون الأحذب قد قطع ماقطعه من أشواط في التحصيل الثقافي اتساعا وعمقا وارتفاعا ، فهو مازال عند التقائه بها بعد ذلك الفراق الطويل ، يلتقي بقلبه معها في مستوى فطري واحد : هي تنادى وهو يجيب ، وهي تدعو بفطرتها وفطرته تستجيب .

وأما مختار زوجها ، فرجل طويل القامة معتدل الجسم كثيف العنق طويله ، على صدغيه وفي رصغيه وشم قديم . حاول أن يمحوه ، لكن بقيت منه آثار : فيقال إنه ريفي التحق بالجنندية وقضى فيها مدته - ثم خرج منها موظفا مدنياً في الجيش . لأنه كان على شيء من التعليم المتوسط . فكانه بدل ثيابه العسكرية ،

ولكنه لم يستطع أن يبدلَ من حركات جسده وطريقة حديثه ، فهو لم يزل مزيجاً من سداجة الفكرة التي تلاحظها في الرقي . وصلابة الحركة التي تراها في الجندي ، وهو طيب القلب إلى أقصى الحدود . لا تفارق الابتسامة شفثيه ، لكنها ابتسامة المرتبك أكثر منها ابتسامة المطمئن الراضى .

إن الأحذب ليتحدث معه الآن حديثاً منقطعاً فيما يدعى له أنها ذكريات حلوة ، عن الأسابيع الأولى بعد زواجه من سميرة ، وكيف زارها في دارهما بدعوة منه ، ذلك أن الأحذب عندئذ لم يجد في نفسه الشجاعة أن يزور الزوجين ، فلقد كان يومئذ - برغم ما التهب به حبه شغفا بفتاته تلك - غارقاً إلى أذنيه في العبادة ممعناً في التهجد ، حتى أوشك أن يقع في غيبوبة الدراويش ؟ فكان له ذلك رادعاً عن ارتكاب الإثم ، كما كان رادعاً عن السير في طريق قد يؤدي به إلى إثم ، لكن ذلك كله لم ينقص من نبضات قلبه نبضة ، ومرت بعد زواجها أسابيع قليلة ، ثم جاءت دعوة من الزوج يدعوه بها إلى زيارة على عشاء ؟ فأدرك أن الدعوة هي في الحقيقة من سميرة متخفية وراء زوجها ، فذهب وقلبه يسبقه إليها ، وجلس ليلته هناك جلسة محفورة في ذاكرته إلى اليوم ، برغم عشرات السنين التي انقضت ما بين مراهق الأمس وشيخ اليوم .

علمت كل ذلك من الأحذب ونحن سائران في الطريق ، فسألته :

- والى أين نحن ذاهبان الآن ؟

- قال : إلى كازينو الشاطئ ، فأننا معها على موعد .

- قلت : وهل ترى وجودى مناسباً ؟

- قال : ليس شيء في الدنيا أنسب لى من وجودك ، لأنك ستسد لى

ثغرة الزوج ، لكى أعيش أنا الساعة أو الساعتين مع سميرة ، إنه رجل طيب ووصلنا حيث وجدنا سميرة وزوجها مختارا قد سبقانا إلى هناك .

ولم يكن حتى تلك اللحظة يعرف اسمى . فأسفته به قائلا : فوزى الراوى ، وحيننا وجلسنا ، وقدمنى الأحذب لها ، ولبثت الوجوه الأربعة مبتسمة فى توتر ، والعيون ناظرة إلى فراغ ، لأنها شاردة كأنها تتجنب اللقاء وتبادل النظرات الكاشفة عن دخائل النفوس .

وكننت أنا بينهم وحيداً فى بعدى عن المشكلات العاطفية القديمة ، فن لحة واحدة عرفت أن سميرة والأحذب ما يزالان ينظران بأعين مترعة بالعشق المحروم الظلمآن ، وأن مختارا يساوره القلق الخفيف مما يراه بينهما من خيوط تحفى عن العين ولكنها ظاهرة ظهورا واضحا أمام بصيرته ، ولعلها كانت ظهرت منذ الزيارة الأولى التى قام بها رياض عطا للعروسين بعد زواجها بقليل ، ومضت أعوام كانت كفيلة أن تحيل الديار العامرة طلولاً خرية ، لكنها لم تمنح ما بين هذين القلبين ، وكدت أقول بين هذين الجسدين ، لأننى أحسست جسديهما يتجاذبان ، فى كل جسد منهما ميل خفيف نحو الآخر ، وإذن فقد كنت وحدى بينهم قادرا على فتح الحديث بأعصاب هادئة ، وقلت :

- أنبأنى الأستاذ رياض ونحن فى الطريق إليكم أنكم قد التقيتم بعد غياب طويل .

- فقالت سميرة ناظرة إلى الأحذب (والعجيب هنا هو أن الأحذب كاد عندئذ يحنى إلى حيث لا أدرى ، فقد خيل إلى أننى أنظر إلى ظهر مستقيم كسائر الظهور) قالت : نعم ، كان آخر عهدنا به ونحن عروسان .

ثم انتقل الحديث بيننا جميعا إلى أمور عابرة توحى بها الأحداث الدائرة

حولنا . وجاءت لحظة صمت . فهممنا بالانصراف ؟ ولما أن انفردنا أنا والأحذب على طريق العودة . وقلت له :

- لقد كان هذا اللقاء صفحة من ماضيك ، لكنها صفحة وضعت في يدي مفتاحا هاما .

- قال الأحذب في ضيق : أى مفتاح ؟

- أجبت : لقد رسمت لك سميرة في مراهقتك صورة المرأة ، وتغيرت ثقافتك ولم تتغير الصورة ، فنتج ما نتج عندك من صراع بين ما تقتضيه ثقافة الرجل العصري في بناء أسرته ، وما اقتضته الصورة التي رسخت في نفسك منذ أول الشباب ، فأنت إلى يومك هذا لا تدري أى الثقافتين تطيع وأيهما تعصى ؟

الفصل السادس

الكاتب الظل

١

لم أعد أستطيع التخلص من هذه الفكرة العجيبة التي سيطرت علىّ وهي أنني أنا والأحدهب ، ومعنا صديق إبراهيم الذي لقيته في الإسكندرية لابد أن يكون بيننا رباط وثيق ، يجعل منا ثلاثة جسيم لنفس واحدة ، نعم ، قد يكون هذا شطحا مني في التصور ، ولكن ما أكثر ما تقرأ عن شخوص تتعدد مع روح واحد ، حتى لتجد من المذاهب والعقائد ما يجعل الإنسانية كلها ، .. بجميع ماضيها وحاضرها وسائر ما سوف يولد من أفرادها.. إلى أبد الآبدين ، شعابا لنفس واحدة ، لكنني لا أريد أن أغلو في القول إلى ذلك الحد البعيد ، ويكفي ثلاثة أشخاص : إبراهيم والأحدهب وأنا ، لأزعم لهم نفسا واحدة تشعبت في اتجاهات ثلاثة

أقول إنني لم أعد أستطيع التخلص من هذه الفكرة ، وحتى لو كانت فكرة باطلة من حيث الواقع الحسي ، فهي ماتزال صالحة لتصورات الخيال لأن ثلاثتنا - إذا جمع بعضنا إلى بعض - صنعوا إنسانا متكامل الجوانب ، وماذا يراد للمثل هذا الإنسان المتكامل من عناصر ؟ أليس الذي يراد له هو : أولا : عمل يرتزق منه ، ويجرى فيه على تجانس مع أبناء المجتمع الذي يعيش فيه .

وثانيا : خيال يجمع به آنا بعد آن ليفر من قيود المكان والزمان كلما ضاق
بهذه القيود ،

وثالثا : طيران بالعقل إلى أهداف بعيدة تريد التحليق في دنيا الواقع ولو
بعد حين ، فلا هو يخضع للأمر الذى تفرضه عليه ضرورات العيش ، ولا هو
يطير بأجنحة العاطفة التى تشيع نفسها ولكنها لا تغير من الواقع شيئا ؟
فإذا كانت هذه هى العناصر الأساسية المطلوبة ليتكامل الإنسان ، فهى هى
نفسها العناصر التى تتجسد فرادى فى شخصى ، وفى شخص رياض عطا
(الأحذب) وفى شخص صديقى إبراهيم ، فأنا الذى حملت على كتفى أعباء
الأمر الواقع وما يقتضيه ، ورياض هو الذى ترك قياده لعاطفته ، وإبراهيم هو
الذى أخذ يخطط بالعقل للصرف لمستقبل علمى يرفعه عن درب ضررته
الأقدام .

فها نحن أولاء نقف جنبا إلى جنب على عتبة الحياة العملية . وكان ذلك سنة
١٩٣٠ ، لكن سرعان ما تفرقت بنا السبل ، ولقد كان بيننا من الأصول
المشتركة ما يجعل فى أشخاصنا شيئا من التداخل ، بمعنى أننى وإن كتب على أن
أسير على الدرب الذى ضررته لى أقدام السائرين الآخرين من عباد الله ، فلم
يكن ذلك ليحرمنى من ساعات لشطح العاطفة ، وساعات أخرى للأمل فى
أهداف بعيدة وجديدة ، وكذلك الأحذب ، فإن يكن قدره أن تشتعل به
العواطف وتحتدم الغرائز . فهو بالطبع لم يخل من لحظات يستسلم فيها للأمر
الواقع ، أو لحظات يخطط فيها لنفسه بالعقل كيف يخطو إلى أمام ثم نقول القول
نفسه عن زميلنا الثالث إبراهيم ، فهو إذا كان قد غلب عليه المستقبل بطموحه
حتى غص النظر عن الحياة كما تمر بموكبها أمام عينيه ، فلم يكن هذا الانصراف

إلى بناء المستقبل ليلهيهِ أحيانا عن الاستماع الى صوت اللحظة الراهنة ، أو الميل أحيانا إلى جموح العاطفة أو نداء الغريزة .

ثلاثتنا جميعا كان لهم نصيب موفور في حياة الفكر والتعبير ، أما نصيبى أنا فقد كان شبيها بما يفعله عارض الأزياء في نوافذ الدكاكين ، ليراه المارة في الطريق واقفا وراء الزجاج بالثياب المعروضة ، وإذن فلم يكن له من فضل أكثر من فضل المعلن عن شىء موجود ، فتكون قيمته مرهونة بعدد الزائن الذين يغريهم عرضه فيقبلون على الشراء ، فإذا لم يجتذب للثياب من يتذوقها ويشتريها ، كان وجوده وعدم وجوده على حد سواء

ظهرت مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات في يناير من سنة ١٩٣٣ ، وكنت - كصاحبى الأحذب - مدرسا في ريف الدقهلية ، كانت قريقتى تنتمى إليه قبل أن تتحول فيما بعد إلى محافظة دمياط ، فما إن صدر العدد الأول من « الرسالة » حتى انفتح أمامى الميدان الذى أنظم فيه نشاطى الفكرى الذى يفيض لى بعد شواغل مهنتى ، فأخذت أرسل المقالات تباعا ، والرسالة تفسح لى صدرا رحبا ، ولكن فيم كانت تلك المقالات بصفة أساسية ؟ كانت فصولا فى الفلسفة الغريبة . يغلب أن تختص كل مقالة منها بفيلسوف ، فهذا هو برجسون ، وذلك هو نيتشة أو شوبنهاور أو غيرهما ، وهكذا لم يكن نصيبى عندئذ من الفكر أكثر من نصيب السمسار الذى يتوسط بين صاحب السلعة من جهة ، وشاربها من جهة أخرى .

ولذلك لم أدهش بعد أن مرت بى السنون وأوقفتنى المصادفة على صاحبى الأحذب ، وعرفت كيف سايرت حياته حياقي فى خطين متوازيين ، مع هذا

الفرق الذى أشرت إليه ، وهو أنى كنت أسير على الدرب المدقوق بالأقدام ، على حين أنه كان يربأ بنفسه عن مثل هذا السير الرتيب ، أقول إني لم أدهش حين علمت فيما بعد بما كان يضطرم به صدر الأحذب فى تلك الفترة نفسها من ضيق بالمعروف المألوف ، وتشوف إلى ما هو ذاتى أصيل ، فرأيت له مقالة وكأنه كتبها ليعارضنى ، يقول فيها شيئاً كهذا :

لقد قرأت فى صدر شبابى كل ماأنت به اليوم معجب مفتون ، واجترت عهداً أراك تجتاز مثله الآن ، عانيت فيه ما عانيت من كرب وضيق ، وكم قرأت وقرأت ، فكنت أتلون بما أقرأ كأنى حشرة حقيرة تدب على ظهر الأرض وتسعى ، فتصفر إن كانت تحبو فوق الرمال ، وتخضر إن كانت ترحف فوق الحقول .

كنت أقرأ للشكاك فأشك ، ثم أقرأ للمؤمنين فأؤمن ، هذا كتاب متشائم أطلعه فإذا أنا الساخط الناقم على حياى ودنياى ، وذلك كتاب متفائل أطلعه فإذا أنا الهاشّ الباشّ المرح الطروب ، لكن أراد الله بى الخير فأفقت إلى نفسى فوجدتها مضطربة هائمة تعصف بها الريح هنا وهناك ، وهى فى كل ذلك تعانى من القلق والهم ما تعانى .

وضرب الأحذب فى مقالته تلك الأمثلة : ضرب مثلاً بالإمام الغزالى الذى قرأ ما قاله الحكماء والفلاسفة ، فلم يكن له منها سوى أن ارتجّت نفسه ارتجاجاً عفيفاً ، وأخذته الشك من كل جوانبه ، حتى نالت منه العلل بما نالت ، لم يشقه منها إلا أن يستمع إلى وحى نفسه ، وضرب مثلاً بتولستوى الذى غاص فى أغوار الفكر ما غاص . وانتهى به الأمر إلى اضطراب وحيرة ، فما كان منه إلا أن يفرغ مكتبته من كل ما فيها على أنه أباطيل ، لقد قرأ تولستوى للفلاسفة

الأعلام جميعا : قرأ لأفلاطون وكانت وشوبنهاور وباسكال لكنه تبين أن آراء هؤلاء الحكماء إنما تكون واضحة ودقيقة حينما تبعد عن مشاكل الحياة المباشرة ، ولكنها في ميدان هذه الحياة لا تهدي الحائر سواء السبيل .

كنت إذن أنقل الفكر من غيرى ، وكان الأحذب يتمرّد على الفكر الذى ينقل عن آخرين ، ولا يريد من الشراب إلا ما ينضج به إناءه هو لا ما ينسكب من آنية الغرباء ، فإذا كان صديقنا إبراهيم يصنع فى تلك الفترة نفسها ؟ إنه تناسى واقعه وغض عنه النظر ، وجعل من نفسه « تلميذا » مرة أخرى ، فلقد صمم على هدف يتحقق فى موعد قريب أو فى موعد بعيد . فذلك لا يهم ، وإنما المهم هو الهدف والسعى إلى بلوغه ، وما هدفه ذاك إلا أن يظفر بالدراسة الجامعية للفلسفة ، ودراسة تنتهى به إلى « شهادة » يغير بها مجرى حياته ، ولتكن تلك الدراسة العلمية فى إنجلترا ، أولا لأنه كان يؤمن بصلاية الثقافة الإنجليزية إذا قيست إلى ميوعة الثقافة فى سواها ، وثانيا لأنه كان بحكم دراسته فى مدارس الإنجليزية فى المراحل الابتدائية والثانوية ، وحتى المرحلة العليا لم تخل من اهتمام واضح باللغة الإنجليزية وأدبها ، أقول إنه كان بحكم هذه النشأة ملما بتلك اللغة إلى درجة الإتقان ، ولم يكن له إذ ذاك من سبيل إلى جامعة إنجليزية ، لا مبعوثا من الدولة بسبب الضائقة الاقتصادية التى ألت بالعالم فى أول الثلاثينيات ، ولا على حسابه الخاص لحواء جيبه وجيوب ذويه من المال الذى يكفى لذلك ؟ وحتى لا يضيع الوقت فى أوهام ، أخذ يعدّ نفسه لامتحانات تجربها جامعة لندن فى الخارج لمن يريد الانتساب إليها ، فقسم إبراهيم حياته قسمين : أما نهاره فللعمل من أجل العيش ، وأما ليله فللتحصيل كما هو الشأن مع أى « تلميذ » صغير أو كبير .

جئت إلى القاهرة منقولا من مدارس الريف ، ويبدو أن ضباب الأزمة الاقتصادية العامة كان قد أخذ ينقشع بعض الشيء ، فبدأ التعيين في وظائف الحكومة بعد أن كان بابها مغلقا على الجميع ، وكنت أنا وشقيقي الذي وصفته في الصفحات السابقة بأنه توأم روحي ، ومعنا نفر قليل من أصدقاء الدراسة ، أقول إننا كنا أوائل الدفعة عند التخرج ، ولم يكن تفوقنا ذاك بلدى معنى لأن الضائقة قد شملت الأوائل والأواخر جميعا ، فلما انفرجت الأزمة بادرت مدارس الأوقاف الملكية التي كانت تتبع الملك ، والتي كانت تجمع خيرة المدرسين حيثما كانوا لتضمن أن تكون لها الصدارة بين المدارس ، بادرت باستدعاء من كانت الأزمة الاقتصادية شنتهم في أرجاء البلاد ، وكنا نحن أول من وقع عليه الاختيار ، وما إن عدنا إلى القاهرة بعد غيبة قصيرة ، حتى تلقانا مدير التعليم المشرف على مدارس الخاصة الملكية ، بنوع عجيب من التهديد الخفيف ، فنحن الآن - كما قال - في أشرف ساحة من ساحات التعليم لأنها ساحة في كنف صاحب الجلالة ، وإن ذلك وحده ليلقى على عواتقنا تبعه أن نصون لتلك المدارس الممتازة امتيازها ، ثم نحن الآن - كما قال أيضا - كمن ألقى به في اليم وفي يده طوق النجاة ، فإما عرف كيف يطفو بذلك الطوق فتكون له حياة ، وإما خاب فغرق واندثر ، على أن مقامنا في تلك المدارس التي بعثت في نفوسنا كثيرا من الرعب ، لم يطل ، لأن تلك المدارس الخيفة المحطمة لنفوس العاملين فيها ، سرعان ما ذابت في مدارس الدولة ولم يعد لها وجودها المتميز الذي كان .

ومع ذلك فحياتي العاملة لم تكن عندي إلا زائدة بغیضة حصرتها بين

قوسين - حتى لا تعرقل سيرى فى الجانب الذى كنت أوتر العيش فيه ، وهو جانب القراءة والكتابة ، لكن الكتابة عندى - كما أسلفت القول - لم تكن إلا القراءة نفسها بعد أن يتحول المعنى المقروء إلى معنى مكتوب ، وذلك هو الذى جعلنى فى تلك الأعوام أقرب إلى عارض الأزياء .

لم أكد أبلغ القاهرة حتى قصدت إلى رئيس تحرير مجلة الرسالة بعد أن كنت أرسلت إليها من بعيد بضع عشرة مقالة ، ربما كان لها وقع حسن عند القراء ، وكانت إدارة المجلة فى غرفة لجنة التأليف والترجمة والنشر (وكان رئيس التحرير عضوا فيها) فقدمنى لمن كان موجودًا ليلتذ من أعضاء اللجنة ، ومنهم رئيس اللجنة الأستاذ أحمد أمين ، فرحبوا بى ترحيبا أكثر مما كنت أراى جديرا به من علماء أجلاء ومن أدباء ذائعى الشهرة والصيت ، ولم تمض دقائق حتى عرض على الأستاذ كبير أن أشاركه فى إخراج كتب يكون أساسها عرضا لكتب الإنجليزية تختارها ، مما هو مؤلف فى الموضوع الذى نحب الكتابة فيه ، عرضا لا يتقيد بالترجمة كما هى مفهومة ، لنفسح المجال للشرح .

فرحت بالعرض فرحة شديدة ، ولم تمض بضعة أشهر حتى كنت قد أكملت الكتاب الأول ، وأعطيت شريكى الكبير أصول الكتاب ، وبعد أيام لقيت الأستاذ فى مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر - وكنت خلال تلك الأيام قد التحقت باللجنة عضوا - فأعطانى مقدمة أعدها للكتاب ، وطلب منى قراءتها : فلما أخذت أقرأ ، وقعت فى السياق على صيغة تدل على أن المقدمة موجهة إلى القارئ منه وحده ، لا من الشريكين معا ، فقلبت الصفحات الباقية مسرعا لأقفز إلى الإمضاء ، وإذا الإمضاء - كما توقعت - له وحده ... ولا بد أن يكون وجهى قد امتنع ، فقال لى : ماذا ترى ؟ كن صريحا ألا توافق

على أن تكون المقدمة منى ؟ إذا كان الأمر كذلك عدّلت في العبارة وجعلتها مقدمة منا معا ... فقلت خجلاً : لا ، لا ، هذا هو الوضع الصواب : وقد كان .

وكانت هذه بداية وضعت مبدأ لما سوف نشترك فيه معا من كتب بعد ذلك - وهى كثيرة ثم ماذا ؟ إننى إذا قلت ما أقول الآن ، فإنما أقوله لأنه كان - والله شهيد - من العوامل التى اعتمدت في نفسى بضروب من الصراع بينى وبين نفسى نادرة المثال ، ولست ألقى الذنب على أحد في كل تلك المحنة النفسية التى طالت معى أعواما ليست بالقليلة ، لست ألقى الذنب إلا على التركيب المضطرب المتناقص الذى رُكِّبت عليه نفسى ، فبينما أوصل الليل بالنهار جهدا وجهادا في سبيل أن أميز نفسى بما كانت تستحق أن تتميز به ، ترانى أجفل من اتخاذ الخطوة المناسبة أو العبارة الملائمة في المواقف التى تستدعى تلك الخطوة أو هذه العبارة فيضيع منى مارجوت كسبه من تقدم .

فلأننى جهنت دون القول الصريح عما كنت أريده حقا ، وهو أن تظهر الكتب بين القراء على حقيقتها التى هى أنها مشاركة ، سارت الأمور معى بخطوات سريعة لمحو أن أكون أمام الناس في منزلة التابع لا الشريك ، ولم يسع شريكى الكبير إلا أن يعاملنى هذه المعاملة مادمت قد رضيتها لنفسى : أكلمه بالتليفون ذات مرة بضرورة قصوى ، فيختلط عليه الاسم باسم شبيه لأحد أصدقائه ، فيهش في طريقة الحديث ، حتى إذا ما أدرك أنه أخطأ الظن ، عبسَ في رنة الحديث لمحو ما كان قد هش به حتى لا يفلت الزمام ، ويكتب إلى خطابا ذات مرة لضرورة قصوى لذلك ، فيجعل الخطاب أربع كلمات ،

منها كلمتان أوليان تقولان : « السلام عليك » - لأن « عليكم » فيها ميم زائدة على المطلوب ..

التواضع صفة جميلة إذا وقف عند حد معقول . وإلا فسرعان ما ينقلب على صاحبه ضعة وقلة قدر وتفاهة قيمة ، وهكذا كان أمرى ، فقد خرجت من الشركة الأدبية « صغيرا » ، حتى لقد اضطرت فيما بعد إلى مضاعفة جهودي أضعافا مضاعفة لكي أنفق بعضها في نحو التصغير الذى لحقنى ، وأكسب ببعضها الآخر خطوة إلى الأمام ، فكلما سار غيرى خطوة واحدة تكون كلها كسبا له فى ميدان الفكر والأدب ، كان لزاما علىّ أن أخطو عشر خطوات ، تذهب تسع منها فى نحو ما قد رسخ فى الأذهان من أننى تابع تصدر إلى الأوامر فأطيع ، فلو كنت منذ البداية وضعت الأمور فى نصابها ، فيما تعادل وإما انقضا ، لحدث أحد الأمرين بغير إجحاف ، فمن الإنصاف أن يكون الكبير كبيرا لأنه كبير ، وأن يكون الصغير صغيرا لأنه صغير ، وأما أن يزداد الصغير صفرا ليزداد الكبير كبيرا ، فذلك ما أسميه إجحافا .

٣

والحق أنى سرعان ما وجدت أن هذا التباعد بين الكبير والصغير ، هو دستور التعامل بين أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فقد كان من هؤلاء الأعضاء فئة من قادة الفكر وأعلام الأدب ، كما كان منهم مثلى من البادئين عند أول الطريق ، ولقد كنت توهمت عند انضمامى لتلك اللجنة أن الطريق قد أصبح مفتوحا أمامى لاندماج فى هؤلاء القادة والأعلام ، لكننى لم ألبث أن وجدت الزمالة عسيرة الأسباب ، إن آلهة الأولب لا يبهطون من قتهم الشاعخة ، بما ظننت من سهولة ويسر ، نعم إن أعضاء اللجنة هم من الوجهة النظرية

أعضاء أسرة واحدة ، لكنهم كجزر الأرخبيل . تقوم كل جزيرة وحدها ويحيط بها الماء من كل أقطارها ، فلم أبادل الأرباب حديثا ولم يبادلوا ، وجلست معهم لا كما يجلس الزميل ، إذ تبين أن الأرباب أشد من سواد الناس حرصا على أن يظل الأمر بينهم درجات ، فلا يصغر الكبير من أجل الصغير ، ولا يكبر الصغير ليستوى مع الكبير ، وأوشك كل أن يضرب حول نفسه نطاقا من حراس وحُجَّاب حتى لا يظن ظان أن الملتقى سهل يسير .

وأقف هنا مع القارئ وقفة قصيرة ، أنقل له فيها نموذجاً مما كتبه عندئذ لأعبر عما اضطرب بين جوانحي من مشاعر ، وهي مشاعر إن تكن في هذه الحالة خاصة بفرد واحد ، إلا أنها في حقيقتها تعكس ضربا من التفاوت بين الأفراد في حياتنا ، أكاد ألا أجده مثيلا في شعب آخر ، حتى بين الشعوب التي يصفونها أنا بالتخلف ، وأنا بالتنامي ، وهو تفاوت يصبح محالا معه أن يعرف الناس معنى للمساواة ، مهما ترددت هذه الكلمة على ألسنة المتكلمين وأقلام الكتّاب ، فقد كتبت تحت عنوان « ذات المليمين » (وهي قطعة من النقاد كانت في تلك الأيام متداولة بين الناس) كتبت مايلي :

« لست أدري متى وكيف تسالت هذه القطعة ذات المليمين إلى نقودي ، ولكن الذي أدريه في يقين هو أنها بقيت هنالك شهرا كاملا تنتقل معي حيث أنتقل ، وتسير حيث أسير ، تحاول جاهدة أن تجد سبيلها إلى الإنفاق ، وأنا أغالب طبيعة البشر فأعاونها على ذلك فلا أجدها السبيل ، ولعلك تدري شيئا من هذا الصراع الدائم . القائم بين المال وصاحبه ، هذا يشد المال إلى جيبه شدا لا يريد له أن يشهد النور ، والمال يتغنى لنفسه أن يتنفس الهواء الحر الطليق ، فيجري دافقا سيالا بين أصابع المتعاملين ، تارة تحسه أيد ناعمة ،

لكنها تستخف به وتزدرية ، وطورًا تغفر به أيد خشنة . لكنها تتقبله قبولاً حسناً وتكرم له المثوى ، وإن ذلك لمن عجب الحياة الذى لا ينقضى ، فإن طاب لك المأوى ألفت به الشوك والحسك معا . يستذل النفوس ، ويؤجج الصدور ، وإن البهت لنفسك العزة . ألفت مأواك خشناً غليظاً ... ومهما يكن من أمر . فقد ألحقت هذه القطعة تنشد لنفسها الفكاك ، وغالبت نفسى وعاونتها على الإنفاق ، ولكن كان لها القدر بالمرصاد .

فهانذا عند دار السيما أضرب بمنكبى مع الضاربين ، لعل أجد السبيل إلى شباك التذاكر ، وقد ضربت حوله زحمة الناس نطاقاً ينفق الأنفاس ، وأين من هؤلاء القوم من يواتيه حظه السعيد فيبلغ عتبة الشباك ؟ إن عيون المتزاحمين لتكاد تفتك به من حسدها له على توفيقه فتكا ، ... وحان الحين وكنت أنا المرموق بهاتيك العيون الفواتك ، ووقفت أمام الشباك أملاً عارضته بمرق ، ولكننى أسرعرت الحركة والكلام لتطمئن نفس المنتظرين الناظرين فلا يحقدوا ؟ وضربت يدى فى جيبى وأخرجتها ، فقذفت بما أخرجت لبائعة التذاكر فإذا بها ذات المليمين تتحرك على رخامة الشباك فى رعونة الأيفاع .

وجلس فى مقهى مع طائفة من الأصدقاء ممن لا تزال بينى وبينهم حواجز الكلفة قائمة ، يحاول كل منا أن يستر من نفسه الفقر والجهل والضعف ، ليظهر الثراء والعلم ورفعة المكانة بين الناس ، وجاء الخادم ليتقاضانا مما شربنا ، فتسابقت الأيدي مغلصة إلى الجيوب ، - باليتها تدرك أصحاب المسغبة بعشر معشار هذا الوفاء لأصحاب اليسار - فهذا موقف من المواقف النادرة التى ينعم فيها من يثبت للآخرين غناه ، وأخرجت كل يد مافيا على المنضدة فى سرعة متلهفة ؟ فقذف واحد بريال قوى المضلات صدادح الرنين ، ونشر آخر جنيهاً

من الورق بين إصبعيه ؟ وقذفت على المنضدة بما حملت يدي مع القاذفين ، فإذا بنصف ريال يأخذ مكانة لا بأس بها بين القذائف ، ولكن دارت إلى جانبه ذات المليمين ، فحطت من قدره وقيمته ، وشاء الحظ العاثر أن تتعثر هذه القطعة المنكودة في دورانها حتى هوت إلى الأرض في رنين ضئيل ، فانحنى أحد الأصدقاء إليها وردها إلى ، فأخذتها والجبين يتندى من الخجل ، فليس يشرف المرء في مثل هذه المواقف أن يضم جيبه شيئا من ذوات الملاليم .

وكننت أجالس فئة من رفاقي ، وأرادت المصادفة أن يدور بيننا حديث أخذ يشتد فيه الجدل ويشتد حتى اضطرم واشتعل فجاء زميل يجمع منا قدرا من المال نحسن به على خادم طاحت يد المنون بزوجه ، وعجزت دراهمه أن تقلقل الجثة من سريرها إلى القبر ، فجاءنا يطلب الإحسان - والموت يقسو على الفقير كما تقسو عليه الحياة ، فلا هو إن عاش حتى بين الأحياء ، ولا هو إن مات واجد سيلا ميسورة إلى مراقد الموتى - ودار الزميل الكريم يلقف من الأصابع ما امتدت به ، ومددت أصابعي ذاهلا مشتغلا بما أنا فيه من الجدل ، وقد كدت أنتصر ، وإذا بالزميل يتسم لى قائلا : لا بأس ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وضحك الحاضرون جميعا ، ونظرت فإذا بذات المليمين بين إصبعيه ، فجذبتهما في حركة عصبية سريعة ، وفي يتمم ألفاظ الأسف ، وأخرجت ضعف ما أحسن به الآخرون لأعوض هذه السقطة . فن أمثال هذه السقطات ترسم شخصية الرجل في أذهان الناس .

حقاً إن العرق دساس ومن تجرى في عروقه دماء النذالة والضعف ، هيات يحنى عن الناس طويته ، فالنفس لا بد يوما مفضوحة بسلوكها . ولو حاولت أن تسدل على مكنونها ألف ستار وستار . فهذه القطعة ذات المليمين - فيما يظهر -

قد استغلت شبيها بذات القرشين استغلالا دنيئا خسيسا ، وأشهد الله أنى من إجرامها برىء ، فقد عن لى يوما أن أسلك نفسى فى زمرة الوجهاء ولست منهم - فى غير ولا نفير- فركبت الترام فى الدرجة الأولى ، وجاء الكسارى يجيى من الراكبين الأجور ، وكنت منه فى أقصى المقصورة . فددت له يدى بذات قرشين وأراد أحد الراكبين أن يعيننى على ما قصرت عنه ذراعى . فأخذ منى قطعة النقد ليعطيها للعامل . ورأيتـه ينظر إلى القطعة فى يده ثم إلى ، ولكن أدبه قد شاء له ألا يتدخل فى أمر لا يعنيه . وناولها إلى بائع التذاكر ، فنظر إليها الرجل وقال : ما هذا ؟ فقلت : خذ قرشا وهات قرشا . فقال : عشنا ورأينا ذات المليمين تلد من جوفها القروش ! فأدخلت يدى إلى جيوبى فى رعشة الخجل . وأصلحت الخطأ ، وقدمت إلى الرجل المعذرة بالابتسام وبالكلام وأردت أن أثبت للجالسين براءتى - ووجهتى - فأحسنت بذات المليمين إلى فقير قفز إلى سلم العربة يطلب الإحسان ، وانتهى بذلك تاريخ مؤلم طويل لكن الله الذى يفسر الخير فى الشر ، قد أراد لهذه القطعة الخبيثة ألا يذهب عنى بلاؤها بغير درس مفيد ، بصرنى بناحية من طبائع الناس ، مؤسفة مضحكة معًا .

فقد جلست بين جماعة ذات مساء ، وكان فى الحاضرين أديب شاب لم يتجاوز العشرين ، هو الذى حشر نفسه فى زمرة الأدباء حشرا ، بغير دعوة منهم ولا قبول ، ولست أعلم من ماضيه الأدبى إلا مقالة نشرتها مجلة أسبوعية ، ولو اكفى بهذا الحد من الأحلام لكان جميلا ، لأن الأحلام الحلوة التى تنفع صاحبها ولا تؤذى الآخرين ، ليس بها بأس ولا ضرر ، ولكن الغرور أخذ من هذا السخيف مأخذًا شديدا ، فإذا به لا يكفى أن يكون أديبا من الأدباء ،

ولكنه - لو أنصف الزمان وعرف للناس أقدارهم - (هذا وسوس له الغرور)
لكان في الطليعة منهم . غير أن شيوخ الأدب (هكذا توهم) يقفون له
بالمرصاد ، فلا يخلون بينه وبين النشر ، لأنهم ينفسون عليه ما وهبه الله من
عبقريّة ونبوغ !... فقلت لنفسى : أليس هذا بين الناس قطعة من ذوات
المليمين ، تستغل شبهها بذات القرشين ، فتدس نفسها بين الريالات وأنصافها
دسا دنيا قد يخدع الغافلين ؟

وحدثني صديق أراد لنفسه الصدارة فالتحق بجمعية ، أعضاؤها طائفة
ممتازة من عليّة القوم ، فخالطهم ، ولكنهم لم يخالطوه ، وهش لهم وابتم ،
ولكنهم تولوا عنه وعبسوا ، فجاءنى شاكية باكيا من لؤم الطباع الذى يؤلم
ويشقى ، فقلت له ، وقد تلقيت العبرة من ذات المليمين : اعلم أن فى النقود
ريالات ومليّات ، فإن وجدت واحدة من ذوات المليمين نفسها بين
الريالات ، فظنت نفسها « عضوا » فى هذه « الجماعة » فأصابها ما أساء إليها
وأشقاها ، فليس الذنب ذنب الريالات المتكبرة ، لكنه ذنب ذات المليمين ،
لأنها أرادت أن تكلف الأشياء ضد طباعها ، إذ أرادت - خطأ - أن تكون
ريالا .

وإنى لأطلب المغفرة من القارئ أن أعدت أمامه المقالة كاملة ، وهى المقالة
التي كتبها فى أواخر الثلاثينيات لأعبر بها عما يحسه صغير وجد نفسه فجأة بين
الكبار ، ولقد أردت بإعادة المقالة كلها ، لأجعلها أمام القارئ نموذجاً للمقالة
« الأدبية » كما كتبها - وما أزال ألقا إلى كتابتها أحيانا إلى يومنا هذا - كلما
وجدت الموقف يتطلب صورة أدبية معبرة ، ولا يكفيه العرض التحليل العلمى
المجرد .

أخذت هذا التفاوت مأخذ الأمر الواقع ، ومضيت فيما بدأت المضي فيه ، وهو الشركة الأدبية بينى وبين الأستاذ الكبير .

٢ وهكذا كان شأنى عندئذ : أعرض الأفكار نيابة عن أصحابها ، وأتلقى ما أتلقاه من إحسان أو إساءة ، فإذا كان الشأن عند جناحى الأيسر ، وأعنى « الأحذب » فلم يعد خافيا أمامنا أننى أنا والأحذب وزميلنا إبراهيم أضلاع لمثلث واحد ، أدركنا ذلك أو لم ندركه بالوضوح الكافى .

حز فى نفس الأحذب أن يكافح ما يكافح ، حتى لقد كان يعمل من ساعات اليوم الواحد ما لا يقل عن خمس عشرة ساعة ، ثم يلقى هذا التصغير بلا مبرر معقول ، لو كان صغيرا فى حقيقته . فلماذا رضى الكبار أن يزاملوه ويشاركوه ؟ فلم يجد أمامه إلا أن ينكمش وينطوى وأن يمسك القلم ليثبته آلام نفسه التى انكمش عليها وانطوى ، فكتب مقالات رامية ، يفهمها من يعرف طبيعته ، وأما من لا يعرف تلك الطبيعة فيجد فيها ما يجده القارئ لقطعة روعى فيها شروط الإنتاج الأدبى فى فن المقالة .

وكان من تلك المقالات التى لفتت الأنظار ، مقالة عنوانها « البرتقالة الرخيصة » بدأها بأن راح يتغزل فى صفات البرتقالة الجميلة ليأخذها العجب كيف تباع - برغم ذلك - فى الأسواق بأرخص الأثمان ، ولا تلقى من الفاكهاتى أقل العناية ، بينما التفاح معطوب وقد يسرى فى جوفه الدود ، ومع ذلك فهو يُلفّ فى الأوراق ويرص فى الصناديق ، ويباع باليمن المرتفع : « إن البرتقالة لتشبع الحواس جميعا ، فهى بهجة للعين بلونها ، وهى متعة للأنف بأريجها ، ولذة للذوق بطعمها ، ثم هى بعد ذلك راحة للأيدى حين تديرها وتلحرجها ، ولقد لبست البرتقالة معطفا من جلد جميل ، فإذا ما انتهت إلى

آكلها ، فضت عن نفسها ذلك العطف الذى لامسته الأيدى ، لتبدو لصاحبها بكرًا لم تفسدها جرائم سوء المرض ، وهى فوق ذلك كله لم تنس أن تحنو بفضلها على الفلاح المسكين ، لأنها قررت منذ زمن بعيد أن تمنحه جلدها يملحه فيأكله طعامًا شهيا ، وليس بالقليل أن يظفر زارع البرتقال بقشوره مادام السادة قد نعموا باللباب ... - هكذا كتب صاحبى الأحذب وقتئذ ، ليتألم وليسخر نيابة عن صنوه الذى هو أنا .

لا ، لم أكن شبيها بصنوى الأحذب ، ولا كان الأحذب شبيها بى ، برغم هذه العلاقة الغريبة الوثيقة التى كشفت لنا عن نفسها فأظهرتنا وكأننا إخوة من رحم واحد ، وحتى فى المجال الواحد - مجال الفكر والأدب - لم نكن شبيين ، فأنا أتوارى خلف غيرى من المؤلفين ، وأما هو فيثور داخل نفسه على مثل هذا الطغيان ، ولقد حدث أن انضم إلى اللجنة الأدبية نفسها صديقنا الشاعر فخرى أبو السعود - الذى مات منتحرا فيما بعد - وكانت طبيعته الثائرة قريبة جدًا من طبيعة الأحذب ، بقدر ما هى بعيدة عن طبيعتى ، فلما رأى تلك العلاقة الاستبدادية العجيبة التى كانت تنظم التعامل بين كبار الأعضاء وصغارهم ، كأنهم الموظفون فى ديوان الحكومة ، منهم الرئيس الشامخ بجهوته ومنهم المردوس الصاغر المطيع ، أقول إن صديقنا الشاعر حين رأى تلك العلاقة العجيبة قائمة بين أعضاء لجنة أدبية ، حاول - وكأنه أحذب آخر - أن ينفخ فى صدرى روح التمرد . قائلا : إننى لم أعد أطيع أن يتركوفى مربوطا أمام المذود انتظارًا لما يجدون به على من صدقات ، وكان فى الحق صادق التعبير كل الصدق بهذه الجملة التى قالها ، لأن الكبار فى تلك اللجنة الأدبية كانوا يعطون الصغار فرصة الكتابة والنشر كما يعطى صاحب المال صدقة لمتسول مجلس إلى

جانب الطريق وفتح كفه يستجدي .

- قلت لصديقي : وماذا تريدنا أن نفعل ؟

- قال : تنفصل وحدنا وننشئ لجنة أدبية أخرى .

- قلت : يفتح الله عليك وعلى ، فأنا أعرف الناس بقدر نفسى ،

ومادمت على طريق الثقافة أحبو ، فلأدع للأوصياء أن يهدوني سواء السبيل .

قلت ذلك عن إرادة ضعيفة ، لا عن اعتقاد بصدق ما أقول ؟ فكأنما كان

صنوى الأحذب ساعته قد كمن بين جوانحي ، وأخذ يصيح لى من داخل

نفسى صيحة غاضبة ، بأننى إنما أعبد الأصنام ، وبأن هؤلاء الكبار إنما صار

معظمهم كبارا بقلة الحياء لا بكثرة العمل وجودة الإنتاج .

كان واضحا طوال هذه المرحلة — أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات —

أن الفواصل لم تكن حادة بينى وبين صنوى الأيمن إبراهيم : فلئن كان مجاله

الخاص الذى يستوعب نشاطه هو العمل العلمى الصرف ، ولذلك فقد كان همه

الأكبر فى تلك الأعوام أن يجتاز امتحانات ويظفر بشهادات ، فقد كنت أنا فى

الوقت نفسه أقف إلى جواره على حافة النشاط العلمى ، حتى لقد اضطرت أن

أحدث باسمه عندما سنحت له فرصة البعثة إلى إنجلترا ، وأوشكت أن تضيق منه

بعد أن سنحت ، نعم اضطرت أن أحدث باسمه ، وأن أصرع بين يدى الكبار

نيابة عنه ، لأنه كان فى تحصيله العلمى مشغولا عما يجرى حوله ، وهل كان

يتصور بأن هؤلاء الكبار لم يكن فى ضمائرهم ما يمنع من وضع اسم مكان اسم فى

غفلة من صاحب الحق ؟

ومع ذلك فهذه أمور لم تكن تثير سخطى ولا سخط ، إبراهيم إلى الحد

الذى يشل فاعليتى ويحمد فاعليته ، أما صاحبنا الثالث رياض - أحذب

الظهر - فكان كلما لحظ شيئا كهذا تفجر من الغيظ ، وإما أن يصب غيظه هذا

على الورق ، وإما أن يئأس من قلمه وورقه ويلوذ بمخباً من داره على نحو ما فعل
أنخيل عندما أفرغ غضبه بأن انسحب من حومة القتال إلى ضيعته .
وكان التعبير عن الغيظ بالكتابة طريقته هذه المرة - وإن يكن هذا التعبير قد
ظل محترنا في نفسه فترة من الزمن قبل أن يسيل مدادا على سن القلم - فكتب
بعنوان « أصنام تحطمت » - وإنك لتعرف أسلوب الأحذب حتى من العنوان -
يقول : صادقتني أيام الشباب طائفة قليلة من رجال ، نزلوا من نفسى عندئذ
متزلة إكبار لا ينتهى وإجلال ليس بعده مزيد ، ثلاثة منهم أو أربعة كانوا دوما
أمام عيني مثلاً أتمثل به حين أطلب لنفسى ، أو حين أسوق للناس مثلاً ، للرجل
كيف يصلب عوده وتعدد جوانبه وتنوع نواحيه ، كنت أنظر إليهم نظرة الطفل
إلى أبيه ، يراه عملاقاً قادراً على كل شيء : فهو إن شاء أمسك بالقمر ، وهو
إن أراد أنزل المطر ، وأراني بالقياس إليهم قطرة من محيط أو ذرة من جبل ، آه
لو كان لى قلم فلان وشهرته ... أو لو كانت لى هذه الحيوية الدفاقة التى لفلان
وهذا الأفق الواسع والعلم الغزير ! إن شخصه يملأ الفضاء حتى ليكاد يتعثر به
السمع والبصر أتى مضيت ، وأنظر إلى فلان كيف كسب القلوب بترفعه عن
الصغائر وازدراؤه لما ينغمس فيه الناس إلى أذقانهم من توافه ، وأين لك مكانة
فلان فى هدوئه واعتداده بنفسه حتى لتتوجه إليه الأنظار أينما حل ... ومضت
الأعوام وازدادت خبرة بالناس وطبائعهم ، وراقبت عن كثب وفى شيء من
الدقة والتفصيل ، بعد أن كنت أنظر من بعيد وعلى وجه التعميم والإجمال ،
فأخذ نفر من هؤلاء العالقة يصغرون ويضؤلون حتى لأراهم اليوم أقرب إلى
الأقزام ، كنت أحسبهم أقوياء بنفوسهم فرأيت كيف يضعفون أمام أيسر
الدوافع وأصغر ضروب الغواية ... إنها أصنام عبدناها وتحطمت .

الفصل السابع

موت في أسرة الأحدب

١

ازدادت الصلة بيني وبين الأحدب وثوقاً وقرباً ، حتى لم يعد أحدنا يستغنى عن أخيه لحظة واحدة ، وقد اطردت معنا الحياة على وتيرة واحدة ، ففترة الصباح للعمل ، وفترة ما بعد الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل في أحاديث ينصرف شطر كبير منها في أن يقصّ عليّ وأقصّ عليه تفصيلات زياراتنا إلى مواضع حبنا ، حتى لكأنّي أزور معه ولكأنه يزور معي ، وتبدل الوضع بيننا ، فلم يعد هو وضع المرشد للمسترشد ، بل أصبح تعاوناً بين متساويين في حياة واحدة ، فما هو إلا أن أوحى الموقف بالمشاركة في مسكن واحد ، لأنه توقع أن يُزار وكذلك توقعْتُ ، وإذن فالخير في أن نسكن في منزل أرحب وأليق باستقبال الزائرين .

لبشنا شهوراً - سافر خلالها إبراهيم إلى إنجلترا - وتيار الحياة ينساب مطمئناً هادئاً ، وكنا عندئذ كمن تحالف مع الزمن ، فلا نحن نشكو ولا هو يفاجئ ، وأوشك الأحدب أن يعتدل ظهره وتستقيم مشيته ، وحدثني أن مقالاته الأدبية تغيرت نغمتها ، والعجيب أنه وجد أن الكتابة أصبحت أعسر عليه ، فما كان أيسر عليه قبل ذلك أن يكتب نائراً محطاً ضارباً بهراوته حينها وقعت ، وأما الآن فكلمها هم بنقد نائراً لم يجد في نفسه مدداً ، ولذلك فقد كان يضطر إلى البحث

عن موضوعات لا شأن لنفسه بها ، فيكتب عن مذهب في الفلسفة أو نظرية في السياسة أو وجهة من وجهات النقد الأدبي ، متناولا هذا وذاك من خارج لا من باطن نفسه وانطباعات خبرته ، وكثيرا ما أوحى إليه بموضوعات الكتابة رسائل كانت نتيجته من إبراهيم يذكر له فيها أشياء كثيرة مما تصادفه في حياته الدراسية الجديدة في إنجلترا ، وفي مدى التغير الذي يتحول به عقله من نظر إلى نظر .

كان حبه يختلف عن حبي ، فحبه لسميرة هو الحب بين الأنداد ، بما في ذلك من بسطة في الحديث وسهولة في اللقاء والزيارة ، حتى لأوشكا أن تزول بين نفسيهما الحواجز كما تزول بين الزوجين فيما يختص بوسائل التعبير ، وأما حبي ففقيه الحذر والخوف والحرص والتردد ، لأنه يرغب راحة النفس وخفقة القلب ، كانت هنالك الحوازل النفسية الكثيرة التي تعرقل خطوتي إليها ، وأكثر منها الحوازل النفسية التي تعرقل خطوتها إليّ ، لذلك كانت صلاتي وزياراتي أقل حدوثا من صلات الأحدث وزياراته ، ومن هنا كانت أحاديثنا تسم أكثر مما تمسني .

وفجأة وقعت للأحدث وقائع اضطربت لها حياة كليتنا معا : فإلى ذلك الحين لم يطرأ لي أن أسأل الأحدث عن أسرته لأن أمثال الأحدث من الناس يوهمونك أنهم من أنفسهم في عزلة تامة عن الكون والكائنات فلا يعنك لك أن تسأل : من ذا يكون أبوه ، وهل له إخوة وأخوات وأبناء عم وخال ؟ لا يعن لك أن تسأل هذا ، لأنه فرد قائم بذاته تبدأ حقيقته بشخصه وتنتهي بشخصه ، ولا أثر فيه لما بينه وبين غيره من روابط وصلات .

وفجأة جاءني ذات ليل في ساعة متأخرة ينهني بالبكاء ، ويمسح عيني به بمنديل

ويكف لحظة وعيناه محمرتان ، ثم يعود فينهه بالبكاء ، وأنا منه في حيرة ، لا أدري ماذا دهاه ، وأسأله فلا يجيب ، فشفتاه - حتى وهو منقطع عن بكائه لحظة - راجفتان ، يحاول بمجهود ظاهر أن يوقف فيها الرجفة فينهزم في البكاء ، وهكذا حتى مضت نصف الساعة ، وأخيرا قال وهو يبكي :
- عمى مات ... وهذا ثاني عم لي يموت ، مات أولها غرقا عند أسوان حين كنت ما أزال طفلا ، أبكى لبكاء الآخرين لا عن حرقة في نفسى ، وهذا هو الثاني أبكىه من سويداء القلب .

قلت : هل كان مريضا ؟

قال : كان مريضا بالسكر ، وتعنتت له إصبع في قدمه اليمنى ، وأخذ الداء يسرى ، فلم يكن بد من بتر ساقه إلى نصف الفخذ ، كنت كل يوم أنخطف نفسى من العمل خطفا لأزوره وأرعاه ، وكانت آخر كلمة قالها لى من قلب يجنبى كما أحبه : قالها وهو ينظر إلى ساعة حملوه إلى غرفة العمليات ، وعيناه شاخصتان إلى وحدى برغم وجود أخيه وأبنائه بجواره ، إذ قال : أدعو لك يارياض براحة السر وسعادة العيش ، ربنا يسعدك يارياض ياابنى ... وعاد رياض إلى البكاء .

ولبت أسابيع لا يبادلنى حديثه المعتاد ، ولا أجرؤ أن أبأله ، فهو يغيب عنى ، ثم يحضر ليأكل وينام .

وأول ما حدثنى عنه عندما عادت إليه القدرة على مبادلة الحديث هو ملاحظة أبدأها عما شهدته من جدته ليلة أن نقلت جثة ابنها إلى القرية ليدفن هناك ، قال الأحبب :

سئل سوفوكليز - وكانت السن قد تقدمت به : « ماذا ترى الآن في الحب

ياسوفوكليز ؟ ألا تزال قادراً عليه ؟ فأجاب : « صه ! نشدتك الله ألا توقظه فى قلبى من جديد ، فكهم يسعدنى أن أراى قد فررت من حباته ، فأحس كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون ! » .. ولست أريد فى الحقيقة أن أتكلم الآن عن الحب بل أريد على ضوء هذا الذى قاله سوفوكليز أن ألاحظ لك عما يصيب العواطف كلها من برودة الانفعال مع مرّ السنين ... لقد مات لى عمان ، جاء موت الثانى بعد موت الأول بفترة طويلة ، وشهدت موقف جدتى فى الحالتين - وإن أكن قد شهدت الحالة الأولى وأنا صغير - فكأنما شهدت امرأتين مختلفتين أشد ما يكون الاختلاف بين الناس ، شهدت فى المرة الأولى أمّا جزعت على موت ابنها جزعا لم أشهد له مثيلا فى كل من رأيت من الأمهات اللالى نكلن أبناءهن ، شهدت عندئذ أمّا لا يكاد ينقطع لها بكاء ، نهم على وجهها أحيانا فى شوارع القرية صارخة نادية ، وتصوم عن الطعام أياما ، فإن أكلت نعمدت ألا يكون طعامها من أطيب الطعام ، وكثيرا ماكانت تذهب إلى قبر ابنها حيث تقضى اليوم كله والليل كله ، وتأتى أن تفتش غير الحصر الغليظ الخشن ، على أن تكون السماء غطاءها مها كان البرد قارسا ، وألذ أعدائها هم أولئك الذين يتقدمون إليها بالنصح أو بالتعزية والمواساة ، لأنهم إن فعلوا كان معنى ذلك عندها قصورهم عن إدراك المصاب بكل هوله وفداحتة ... ثم شهدت جدتى هذه لما مات ابنها الثانى ، وكانت تقدمت بها السن إلى ما يقرب من السبعين ، وذلك حين نقلنا جئان عمى هذا الذى مات منذ قريب ، إلى القرية حيث تقيم جدتى ، وحملنا النعش من السيارة إلى بهو الدار ، فرأيت جدتى واقفة فى سوادها - وكان الليل قد انتصف والسكون ضاربا ليشمل القرية كلها فى صمته العميق - وكانت الأضواء خافتة فى الدار ، حتى كاد الأشخاص أمام عيني

يتحولون أشباحا ... وقفت جدتي لحظة شاحصة ببصرها إلى النعش بعد أن وضعه حاملوه على أريكه خشبية في بهو الدار ، وقفت لحظة صامتة لا تتحرك ولا تنطق ، فلم يسعنا إلا الوقوف معها في صمت خاشعين ثم صرخت صرختين ، تنطق فيهما بلفظ « يا ولدى » . فكان ذلك كل ما أبدته جدتي من علامات الجزع ، وبعدها جلست هادئة في المأتم ، لا تصرخ ولا تبكي ولا تندب ولا تلطم صدرا ولا تمزق ثوبا ... لقد تخلصت مع الأيام من حدة الانفعال ، فكانت بمثابة من تخلص من « مستبد متوحش مجنون » على حد ما قال سوفوكليز عن جبه الذي بردت مع الشيخوخة جذوته .

قلت للأحدب : وهل برد حبك اليوم بالنسبة لما كان عليه بالأمس ؟ قال : لقد تغير نوعه ، كان هيجانا على السطح ، فأصبح تغلغلا في الأعماق ، كان كالشلال يقفز ماؤه فوق الصخور قفزا أرعن لا يبالي أى الأحجار يفتت وأيها يزحزح ، فأصبح كماء المحيط العميق عندما يتبدى للعين ساكن الموج وفي جوفه تيارات جوارف .

قلت : أصبت ، ولعل هذه هي مميزات ما يسمونه بغرام الشيخ ، فهدة في حركة الجوارح الظاهرة فلا اندفاع ولا جرأة ولا مغامرة ، ولكن تأكل في الجوف وانهار في الروح .

وصمت الأحدب قليلا كأنه يفكر فيما يقوله ، ثم قال والقتب على ظهره يشتد في عيني بروزا ، والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته :

- الحياة ثلاث لحظات : لحظة الميلاد ، ولحظة الزواج ، ويعنون به النسل الذى يحفظ البقاء ، ثم لحظة الموت .. أما الأولى فكما قلت لك ذات مرة ... لا ، لا أظننى قلتها من قبل ..

- فقاطعته قائلاً : كتبها في مذكراتك .

فقال - أى مذكرات تعنى ؟

قلت - أعنى مذكراتك التى كتبتها عن نشأتك وأنت مدرس شاب
قال - ومن ذا أدراك بها ؟ وأين رأيتها ؟ لقد مزقتها منذ زمن طويل
قلت - عثرت على حطامها ، وجمعت منه ما أمكن جمعه ، فعشت معك
أكثر مما تظن ، وفي هذه المذكرات تقول إن لحظة ميلادك أدخل في حياة
الآخرين منها في حياتك لأنك لاتعياها ، والعبرة عندك بالخبرة الواعية .
قال - هذا ما أردت أن أقوله ، وأما اللحظة الثالثة ، وأعنى لحظة الموت
فلن يكون لى بها علم ، لأنها تجمىء بدهاى ، فلا التقاء بينى وبينها ، وبقيت
اللحظة الوسطى ، لحظة الزواج والنسل ، فهى لحظة لم أعشها حتى الآن ،
وإذن فماذا بقى لى من حياتى ، وبأى معنى أقول إننى أحياء ؟ أبالأنفاس التى
أرددها .

قلت : فى مستطاعى أن أقول هذا الذى تقوله ، ومع ذلك فأنا أشعر فى
أصلاى بدفعة الحياة وتيارها ، « فداؤك منك » - كما يقول المعرى - « وما
تشعر » بشعورنا نحيا وبشعورنا نموت .

- فردّد الأحذب قولى : « بشعورنا نحيا وبشعورنا نموت » .. ثم استطرد
يقول : هذا صحيح ، نخلق دنيانا بنوع شعورنا ، تكون كبيرة فتصغر فى شعور
الزدرى لها ، وتكون صغيرة فتكبر فى تهاويل الشعور ... ثم ابتسم الأحذب
ابتسامة ساخرة .

٢

توالى الموت فى أسرة الأحذب ، فكلما مضت بضعة أشهر جاءنى نبأ

جديد ، وكانت النظرة السوداء قد عاودته لتقيم معه هذه المرة أمداً طويلاً ، فلم يكن موت أحبائه ليزيد من حزنه النفسى شيئاً كبيراً ، فزوجة عمه تموت بعد زوجها فيكون موتها امتداداً لموت زوجها ، ماتت يوم أحد ، وأسرع الأحذب إلى الأسواق ليشتري رباط رقبة أسود قبل أن يحين حين الجنازة ، لكن الدكاكين كانت حيثث تغلق في أيام الآحاد ، فقال لنفسه : وهل يكون الرباط الأسود أشد سواداً من نفسى ، فلأحزن من الداخل ، وإلى الجحيم مايقوله الأقربون والأبعدون ، لكنه كان يغالط نفسه ، لأنه مازال قلق إلى اليوم خشية ماقد يكون هؤلاء الأقربون والأبعدون قد ظنوه في عقوقه لمن عاشت له كالألم طيلة حياتها .

ومات أبوه .. صحبه إلى المستشفى ولم يطف بباله قط أنه خروج من الدار إلى غير عودة ، وكأنما جاءت لحظة موته بمثابة النطق بحكمين في آن واحد ، حكم ببراءة الراحل وحكم باتهام ابنه ، لم تتكشف للأحذب براءة أبيه فيما كان ظنه اعتداء وقسوة ، إلا لحظة أن كشف عن جثائه الغطاء الأبيض في غرفة المستشفى ليقبله قبل الرحيل ، فيرى وجهه الميت وكأنه وجهه الحى الذى يعرفه ... كم ألف مرة يتذكر الأحذب ما قد كان أحسه إزاء أبيه من سوء ظن ، فيعض أصابعه عضاً من الندم على سوء فهمه ، لظالماً يقول الأبناء إن آباءهم لا يفهمونهم وينسون أن الآباء كذلك من حقهم أن يقولوا إن الأبناء لا يفهمونهم

كانت لحظة موت أبيه بداية لضمير الأحذب أن يكيل لنفسه اللاتمات لائمة فوق لائمة .. « من ذا يعيده إلى الحياة ولو شهراً واحداً لأودى له واجب الولاء أكثر مما أديت » - هكذا لبث يقول بعد موت أبيه ، ويسمعه أصغر الإخوة

فيطمئنه بأنه كان يؤدي أكثر مما يؤديه الأبناء لآبائهم ، لكن الأحذب قد وجد لنفسه ذريعة كبرى يتهم نفسه على أساسها ، لأنه يجب اتهام نفسه فيزداد التواء وتعقيدًا على تعقيد .

وإنه ليذكر جنازة أبيه في هيتها وقد تقدمتها كوكبة من الفرسان جاء بها ابن عمه الضابط الشاب المتوقد حيوية ونشاطا ، وسار الأحذب في مقدمة المشيعين مطرقا رأسه نحو الأرض لا يرى إلا قدميه وبضع أقدام أخرى على يمين ويسار ، وقبلما كان يرفع رأسه فيصير بالنعش محمولا على أعناق حامليه في طمأنينة وهدهوء ، ثم يعود فيطرق رأسه نحو الأرض مرة أخرى ، وكان في إطراره ذاك كثيرا ما ينتبه لنفسه تنبه المستيقظ من نعاس عميق . ليجد نفسه سارحا في ذكريات عجيبة يستخرجها من ركام السنين ، فيخجل أشد الخجل إذ يرى نفسه سابحا في أعماق ماضيه وجثمان أبيه على بعد خطوة واحدة منه ، لكن لحظة الخجل لا تلبث أن تملكه حتى تزول ليغوص في أغوار الماضي مرة أخرى .

فن سبحاته تلك أنه تذكر كيف أخذته الرغبة وهو غلام في أن يجمع من الأقال أكبر عدد يستطيع جمعه ، وأن تكون وسيلته إلى ذلك هي السرقة لا الشراء ، فلجأ إلى طريقة غريبة ولكنها سهلة التنفيذ ، وهي أن يشتري قفلا بادئ ذي بدء ، ثم يدور على كل مكان تقع عينه فيه على قفل من الصنف نفسه ، فيدبر له خطة أن ينفرد وحده بالقفل لحظة ويفتحه بمفتاح القفل الشبيه ، ويأخذه ويمضى ، ومن ذلك أن خزانة الأوراق التي لم يكن يعلم ماكنها ، خزانة الأوراق أمام مكتب الإدارة في مدرسته الابتدائية وهو تلميذ صغير ، كانت مقفلة بقفل أراده لنفسه ، فبحث حتى وقع على شبيهه في السوق

واشتهر ولكن متى يفرد بتلك الخزنة والمدرسة مليئة بالتلاميذ والخدم والموظفين ؟ إن ذلك لا يكون إلا في ساعة مبكرة من الصباح قبل أن يتنبه أحد . وتسلك إلى الردهة حيث وضعت الخزنة التي ضُمت مصراعاها بالقفل المنشود ، وفي خطفة أسرع من البرق فتح القفل ، وانتزعه ، وأسرع الهبوط على السلم المجاور ، فسمع المصراعين ينفتحان ويخبطان على الحائط خبطة مفرقة ، فقد كانت الخزنة تميل على قفاها إلى الخلف ، إذ رفعت قائمتها الأماميتان على مربعين صغيرين من الخشب ، دون قائمتي الخلفيتين ، مما أدى إلى انفراج مصراعها بهذه السرعة وانقاذها إلى الخلف وخبطتها المدوية على الحائط ، وكان للصغير شعور النصر شجعه على التماس نصر آخر في اليوم نفسه على قفل لحيه بين أقفال التلاميذ شبيه بما عنده ، وعاد إلى داره وفي جيبه قفلان أضافها إلى ما عنده ، فأصبحت ثلاثة أقفال من أسرة واحدة ، لم يدر ماذا يصنع بها ، سوى أن يوزعها على جيرانه الصغار ، وعليهم هم أن يجدوا لها المفاتيح .

فلما أشبع في نفسه هواية الأقفال ، اشتهى منافخ الدراجات ، فللدراجة منافخ يركب محاذيا للقائمة المعدنية التي عليها يستند المقعد ، وما أيسر أن تنتزعه يد السارق من مكانه لو واثته الخلوة التي تنجيه من أعين الناظرين ، ودراجات التلاميذ تصطف صفوفًا في مكان لها معين يحاذي سور المدرسة من الداخل ، فإذا وجد السارق الصغير فرصة يخلو فيها إلى بغيته فأين يخفيها بقية اليوم الدراسي ؟ وتفتق ذهنه عن حيلة بسيطة تنجح أحيانا وتفشل أحيانا ، وهي أن يقصد إلى مكان الدراجات في اللحظة المناسبة ، ويتزحزح أقرب منافخ إلى يديه ، ثم يقذف به خارج سور المدرسة في الطريق - وهو طريق بعيد عن حركة المدينة

فيقل فيه المارة من الناس ، حتى إذا ماخرج آخر اليوم الدراسي ، بحث عن الفريسة ، ويغلب أن يجدها ملقاة على الجانب الرملي من الشارع ، فيدسها في حقية كتبه ويمضى .. وماذا يصنع بهذه المنافع التي تجمعت لديه ؟ إنه يوزعها على من شاء من الأصدقاء الصغار ، ولم يكن له ولا لأحد من هؤلاء الأصدقاء الصغار دراجة حتى يحتاج لها إلى منفاخ .

كانت تلك هي السن نفسها التي يقرأ فيها مع لداته أو يسمع القصص عن « طاقية الإخفاء » ، ولكم سرح بخياله بعد أن ألبس نفسه طاقية الإخفاء بوجهه ، فيدخل على الناس في بيوتهم ليستمع إلى أسرارهم وهم لا يشعرون ، ويستوى على مواعدهم فيأكل وهم لا يعلمون ... أى شهوة اشتهاها ذلك السارق المتسلل ولم يحققها بطاقية الإخفاء إذا تعذر تحقيقها في الواقع المحسوس ؟ لقد بلغ الحلم واشتعلت شهوته ، فإذا يكون السبيل أمامه إلا أن يلبس لمن طاقية الإخفاء ويتسلل إلى مخادعهن ولوكن في حصون محصنة ... وكبر وقصد ذات يوم إلى متحف الفنون ، فإذا هو يقف أمام صورة لفنان معاصر نسي اسمه ، لكنها صورة تصور مدخل بيت وجانبا صغيرا من الدّرج الخشبي المؤدى من المدخل إلى الطابق الأعلى ، على غرار ما نراه في بيوت أوروبا ، وعلى بضع الدرجات الخشبية التي ظهرت في الصورة امتدّ بجذاه الحائط ثعبان ثنى جسده مع زوايا الدرجات ، حتى تدرج معها ممتدّا من المدخل إلى الدرجة الرابعة أو الخامسة ، والصورة رائعة رائعة رائعة بألوانها وبالضوء والظل فيها ، هي من الفن الواقعي برغم كونها لفنان حديث ، فوقف أمامها صاحبا طويلا ، وفجأة وثبت إلى ذهنه الأقفال والمنافع وأحلام طاقية الإخفاء أيام أن كان غلاما صغيرا فشابا مراهقا ، وابتسم للذكريات ، وقال : أتكون هناك طرق أخرى للتسلل

إلى بيوت الناس وأسرارهم يسلكها المتسللون ؟

وصحا من غفوته الطويلة ليدير البصر فيما أمامه وما حوله في جنازة أبيه .
وماتت أمه الحبيبة التي تعلّم منها كيف يكون الحب خالصا لوجه الحبيب ،
والتي عنها أخذ صفاته الخلقية كلها ، ماتت من كانت تزيل عنه هموم نفسه ،
فإذا راكمت له الدنيا من صدماتها ما ينقض ظهره ، أزاحت عن ظهره
ما استطاعت من أحوال .

وجفت في عينه الحياة فلا رأى ولا نضارة ، يرى نفسه في الحلم أنه يعبر نهر
النيل ، ويستعد لخوض الماء ، لكن واعجابه إنه لا ماء ، والقاع جاف ، عليه
علامات تدل على أن كانت هنا مياه تجري ، ويمشي على القاع الجاف مشية
وثيدة ، يمشى خطوة خطوة ، ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شيء ضاع ،
فلا يرى إلا الحصى وآثار جريان الماء ، وفجأة يجد شيئا معدنيا يلمع ، إنه مبراة
غرزت في التراب إلى نصفها ، وبرز نصفها ، إنها مبراة أبيه ، فيلتقطها
ويضعها في جيبه ثم يمشى مشية وثيدة ، يمشى خطوة خطوة ، ينظر إلى الأرض
كأنما يبحث عن شيء ضاع ، حتى يصل إلى الشاطئ الآخر ، فيصعد ما يشبه
المرتقى الوعر ، يصعد حائياً جسده إلى أمام حتى لا يهوى من خلف ، يصعد ليرى
أنه في مدينة الموتى ، جفاف في جفاف ، وهناك يرى عربة ، ولكن أى عربة !
عربة كلها حجر في حجر ، هي أشبه بالصندوق الكبير ، انكشف غطاؤه
الأعلى ، والصندوق من حجر خشن ، والعجلات من حجر مصمت ،
والحصان المشدود إلى العربة من حجر غليظ ، ثم ماذا ؟ ثم ينظر في الصندوق
الحجري فيرى جثان أمه وقد غطى على نحو مائل المومياء عند المصريين
القدماء ، وبينما هو عالق بحافة الصندوق ينظر ، إذا بالعربة الحجرية تسرع

جارية بين منازل الموتى ، تدور إلى اليمين فى هذا المنعطف وإلى اليسار فى ذلك المنعطف ، فتثير من الغبار وحبات الرمل ما يكتنف العربة كلها ، ويملاً خياشيمه وفه ، ويدير وجهه إلى الخلف فلا يرى إلا سحابة كثيفة من الغبار وحبات الرمل ، ويشد أنفه فلا يتنفس ، فيتنفس من فمه ، فيشهق هواء مليئاً بالغبار وحبات الرمل ، كل هذا وهو عالق بذراعيه على حافة الصندوق ، وجسمه مُدلى يتأرجح مع سير العربة السريع ، فيخطب العجلات الغليظة وهى تدور . ويصحو من هذا الحلم الفظيع ، قائلاً : اللهم اجعله خيرًا ، ولكن أى خير

يأتى يرحى من هذا الجفاف واليباب والموت ؟

يقصّ على الأحذب هذا الحلم ، ثم يقول : لقد حاولت عندئذ أن أفسره على النظرية الفرويدية فى تأويل الأحلام ، فقلت إن مبرة أبى التى وجدت إلى نصفها مغروزة فى قاع النهر الذى جف ماؤه ، هى رمز الذكورة التى أورتنيها ، والتى ربما كانت فى حياته مكبوتة وهمت الآن بالظهور ، لكن مجرى الحياة قد جف ماؤه ، وبهذا الجفاف وقفت سلسلة التوالد ثم ماذا وجدت حين عبرت إلى الضفة الأخرى ، الضفة الغربية التى كانت هى المستقر الأبدى عند أجدادى القدماء ، وجدت مواتاً فى موات ، لم يكن هناك كائن حى واحد ، ولكن لماذا أرادت أسمى فى كفنها أن تشدنى معها إلى عالم الموتى وبهذه الطريقة البشعة الخيفة ؟ لقد كانت عودتنى طول حياتها أن ترعانى من الأذى ، حتى وأنا رجل مكتمل النمو ، ترعانى كأننى مازلت فى عيناها الطفل الضعيف الذى تهدده العواذى ، أتكون قد أسرع بعربتها وتابوتها لأنها فى عالم الغيب قد لحت بروحها الخالدة خطراً داهماً يحيى بى فجاءت لتقلبنى منه قبل وقوعه ... لست أدرى ، لكننى على كل حال قت لساعى ، وبحشت عن مبرة أبى فى مخلفاته ،

فوجدتها صدقة بعض الشيء ، فنظفتها ، أرهفت نصلها ، وخبأتها في خزانتي ، ومازلت حتى اليوم أحملها معي كلما ارتحلت هنا أو هناك ، لكنني ما مستها مرة إلا وتذكرت ذلك الحلم المخيف وأخذتني الرجفة ، وما وقعت عيني عليها مرة في أدراج مكتبي إلا ونحيت عنها وجهي بجمرة آلية سريعة ، لكنني سرعان ما أضحك من ضعفي أمام الخرافة ، إنها كانت أضغاث أحلام ومضت مع الريح .

لكنها أضغاث أحلام جاءت متكاثرة بعد أن فقد الأحذب رموس أسرته ، واندس في ضميره أنه هو وأقرانه من الطبقة الثانية في الأسرة قد أزيل السقف من فوق رموسهم ، وأصبحوا أمام الخلاء اللامتناهي المجهول وجهًا لوجه . لكن أقدار الحياة والموت لا تجري بالضرورة مع حساب الأعمار ، فقد ظن الأحذب أنه هو وأقرانه في السن من أفراد الأسرة قد جاء دورهم للقاء ربهم بعد أن ذهب عنهم معظم من كانوا يكبرونهم من الآباء والأمهات ، لأنه لم يكن يدرى أن مشيئة الله قد سبقت بأن يموت شباب الأسرة قبل كهولها .

وبدأ السير في هذا الاتجاه العكسي بابتعاد عم الأحذب ، الضابط الشاب الذي أوشكل أن يكون بين شباب الأسرة صفوة وخلصة ، نعم ، لقد كان ذلك الضابط الشاب مع الأحذب على طرفي نقيض في الاتجاه والميل ، فبينما الأحذب فيه شيء من طبيعة الشاعر والفنان ، كان ابن عمه الشاب لا تربطه بدنيا الشعر والفن إلا أنها موضوع للهز والسخرية . وكان الأحذب مكبا معظم وقته على الكتب والدفاتر ، وأما الضابط الشاب فبينه وبين الكتب والدفاتر ما يكون بين الأعداء ، وإن الأحذب ليذكر يوما أضحكه فيه ابن عمه ضحكات من القلب — وهو حدث نادر في حياة الأحذب — حين جاءه ابن

عمه خلال السنة الدراسية التى قضها الشاب فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ، قبل التحاقه بكلية الشرطة ، جاءه ليقصّ عليه ساخراً بعض ما كان يتلقاه فى محاضرات الأدب الإنجليزي ، وكان المحاضر أستاذاً إنجليزياً مشهوراً له بالكفاءة الممتازة - لأنه هو نفسه شاعر بالإضافة إلى كونه أستاذاً للأدب لكن الشاب لم يكن يفهم عنه كلمة واحدة ، وكانت الأسماء والمصطلحات تتحول فى سمعه لتصبح أَساخاً شائثة ، فلما أخذ يقص على الأحذب بعض ما حصله عن « العصر الألبس » راح الأحذب يسترجعه محاولاً أن يدرك المقصود بهذه الأسماء التى لم يسمعها من قبل ، ويظل يلح عليه فى السؤال حتى يتبين له أن « الألبس » هذه هى ما بقى فى سمع الشاب من « الزابث » ، وأن كنير ، هو الملك لير ، وأن « كبيس » هو ماكبث ، وهكذا كان الأمر فى عشرات الأسماء كما وردت فى مذكرات الضابط الشاب عندما كان طالباً للأدب الإنجليزي خلال بضعة أشهر .

لا ، لم يكن ذلك الشاب مخلوقاً لعلم أو أدب ، وإنما أراد له خالقه أن يبرع براعة تلفت الأنظار جميعاً فى أداائه لواجبات الضابط الشرطى ولذلك لم يكن عجباً أن أخذ يقفز فى المناصب والدرجات قفزاً سريعاً ، وهو بعد لم يبلغ الثلاثين .

وسافر الأحذب . ليغيب فترة من الزمن ، وكان مقدراً لقطاره أن يغادر محطة القاهرة قبيل طلوع الشمس ، ولذلك اكتفى دور قرياء وأصدقائه بتوديعه فى الليلة السابقة ، حتى لا يكلفوا أنفسهم مشقة اليقظة المبكرة يوم سفره ، لكن كم كانت دهشته وفرحته عندما فوجئ بابن عمه الشاب يذهب إلى المحطة لتوديعه فى تلك الساعة الباكرة ، وكان هو الواحد الوحيد الذى وقف لتوديعه

حتى يتحرك القطار ... فواعجباه للأقدار وما تدبر ! مضى من الزمن ماضى ثم ذهب الأنباء الحزينة إلى الأحذب حيث كان تحمل له الخبر بأن ابن عمه الضابط الشاب قد اختاره الله الى جواره ، وصعق الأحذب للمفاجأة ، وأخذته نوبة حادة من البكاء ، ورأته سيدة مصرية فى غمرة بكائه ، وسألته فقصرَ عليها ، فعجبت السيدة أن يكون هذا البكاء كله لوفاة ابن عم ؟ لكن المسألة ياسيدنى ليست مرهونة بدرجة القرى كما هى الحال فى توزيع التركات ، لأن للقلوب وروابطها ترتيب آخر ودرجات أخرى ، ثم أخذ الأحذب يسأل نفسه فى حيرته : أكان ذلك إذن هو السر الإلهى فى أن الضابط الشاب دون سواه من الأقرين والأصدقاء هو الذى ذهب إلى المحطة فى تلك الساعة الباكرة لتوديعه . فهل كان ياترى يحس بقلبه أنه وداع أخير .

وماكاد الأحذب يعود إلى مصر . حتى سأل عن قبر ابن عمه ليزوره - فقد كانت مقبرة الأسرة حتى ذلك التاريخ فى قريتها بالريف ، فلما عاجلت المنية زينة شبابها ، التمسوا له مثوى عند من استضاف الجثمان فى مدفن أسرته ، وحز فى نفس الأحذب ماسمعه من تفصيلات . وكأنما الذى رحل عنا شريد مقطوع من شجرة كما يقال ، فما كان من صاحبنا الأحذب إلا أن يعمل على أن تكون للأسرة مقبرتها بالقاهرة ، مادام الانتقال إلى القرية قد تعذرت أسبابه ، ونقل جثمان الفقيد الشاب من مكانه ليكون أول من يرقد من أبناء الأسرة فى مدفنها الخاص .

وجاءت الضربة الثانية لتكون أفدح ، فقد أصابت المنايا بنخبها العشوائى أصغر أشقاء الأحذب ، بعد أن كان هذا الأحذب يتوهم أن مقادير الحياة والموت تجري مع حساب الأعمار ، كان بينه وبين شقيقه الأصغر ما يقرب من

عشرين عاما ، وإنه ليذكر جيدا ذلك المساء الذى كان فيه يجلس مع أبيه ترقبا
لنبا الوليد الجديد ، وجاءت البشرى بأن ولد لنا ولد ، وفى هدوء عجيب
التفت الوالد إلى ابنه الأحذب يسأله : ماذا تسميه ؟ فأجابه الأحذب : نسميه
أحمد ، وقد كان .. لم تكن حياة أحمد بالنسبة للأحذب ماتكون الحياة بين
شقيقين وكفى ، بل اختلط فيها عنصران واندجما معا فى موقف شعورى واحد ،
هما عنصر الأبوة وعنصر الأخوة ممتزجين ، ولا يستطيع الأحذب أن يقص شيئا
عن حياته فى الفترة التى تلازما خلالها ، إلا ويجد نفسه فى حياة واحدة مع
شقيقه الأصغر ، فذلك الشقيق هو موضع جده وموضع مزاحه فى وقت
واحد ، هو موضع جده لأنه جعل نفسه مسئولاً عن تربيته على نحو يعيل به إلى
حب العلم والأدب ، وهو موضع مزاحه لأنه عامله كما يعامل اللاعب لعبته .
كان أحمد فى مرحلة الدراسة الابتدائية عندما وضع له الأحذب خطة
التزود بالأدب ، ورأى أن يبدأ معه بأدب المنفلوطى ، ولم يترك الغلام ليقرأ
وحده ما يقرؤه ، بل لازمه وتابعه لفظاً لفظاً شارحاً له المعنى مرة ، موضعاً له
مواضع الجمال الأدبى مرة ، ولعل الأحذب فى ذلك كله قد أحسن النية ولكنه
أساء الاختيار والتصرف ، إذ ما هو إلا أن أخذت الغلام رجفة وانفجر معها
باكيا فى توتر عصبي غريب ، ولم يدر الأحذب ماذا يصنع ليرد الغلام إلى
هدوئه وسكينة ، فلما أن هدا الغلام وسكن وغاب فى نعاس لبضع ساعات ،
صمم الأحذب ألا يكون له شأن بأخيه بعد ذلك فيما يقرؤه وما لا يقرؤه
لكن الغلام كان بطبعه متفوقاً ومتميزاً فى كل ناحية من نواحي حياته ، فهو
فى دراسته ممتاز ، وهو فى رياضيته ممتاز - كان هو بطل التنس فى مدرسته
الثانوية - وهو فى علاقاته الاجتماعية ممتاز ، ففضلاً عن كونه مركز اهتمام الأسرة

بجميع أفرادها ، كان ذا نشاط ملحوظ في « الكشف » وفي « الجولة » وله زمرة طيبة من الأصدقاء يحبهم ويحبونه .

غير أن الطبيعة البشرية تستعصى على التنبؤ فيما يبدو ، فأخر ما كان يتوقعه الأحدب في أخيه أن يراه - وكان في نحو السابعة عشرة من عمره - قد تغير من النقيض إلى النقيض في كثير من جوانب حياته ، فبين عشية وضحاها انقلب الشاب المرح شابا غارقا فيما يشبه الحزن العميق ، الذي تسكن فيه الجوارح وتهدأ الحركة ويقل الاهتمام بأى شيء ، بين عشية وضحاها تبدلت الضحكات البريئة المرحة عبوسًا وزمًا للشفتين وهموما تطفئ بريق العينين ، ما الذي أصاب فتانا ومصدر بشرنا وموضع رجائنا ؟ الله وحده أعلم ، فالأحدب إلى هذه الساعة لا يعلم ، لكن ذلك التحول المفاجيء العجيب كان كذلك نقطة تحول في علاقة الأحدب بأخيه ، فلم يعد يستطيع بعدها أن يجعل منه لعبته كما كان يفعل قبل ذلك ، ولم يعد يجرؤ على التعامل معه على أساس أنه ما يزال طفلا يحوز التحدث إليه بما يتحدث به الراشدون مع الصغار ، وبقي من العلاقة بينها ذلك الحب الأخوى الصادق العميق ، وذهب منها جانب الوصاية والوقاية

وكرت الأعوام ، وأصبح الشقيق الأصغر طبيبا ، تشيع عنه حينما حل قصص تروى عن طيبة قلبه وشدة عطفه على مرضاه ، والحق أن ذلك الشقيق الأصغر قد اجتمعت في طباعه تلك الخصائص الأساسية التي تميز أفراد أسرته جميعا ، لكنها اجتمعت فيه مكثفة في حسناتها مبرأة من سيئاتها ، فهو متدين ، متسامح ، عطوف ، هادئ على شيء من الانطواء ، لا يعتدى ولا ينجذع ، تعامله فتعامل إنسانا من البلور ، لا يخفى شائبة ولا يستر عتامة ، فهو - كما يقول الناس - جنيه من الذهب - تعرفه فتعرف قيمته .

كان أصغر الأشقاء بهذه الحسنات وأكثر منها ، وكان لأخيه الأحدب حبة قلب وقرّة عين وموضع زهو ومنبع حب ، لكن هل تغفو عنه عين القدر لينعم بحياته صحيحة سليمة ؟ كلا ، بل أصابه بالعلة التي أخذت تستفحل وتستعصى ، حتى انتقلت به إلى رحاب الله .

وهكذا خاب ظن الأحدب في نصاريق القدر - عندما توقع - بعد موت الكبار - أنه هو وأقرانه في العمر قد حل دورهم ، فقد كتب له - أو كتب عليه - أن يذهب من الأسرة شبابه قبل كهولها ... هكذا بالحرف الواحد سمعت الأحدب يقول في جمع من الناس بصوت مسموع ، يوم رأيته في مأتم ابن عم له سقط - رغم شبابه - في مكان وقوفه ميتا .

كنت أعلم أن الأحدب يواصل الكتابة في المجلات الأدبية . وقابعت قراءة ما يكتبه مرة كل أسبوع ، وكنت أزداد حزناً كلما ازداد تعبيراً عن طوية نفسه وما يحز فيها من ألم ، لقد كنت حسبتني وقعت على سره الذي يفسر لي شذوذه وانعزاله ، لكنني تبينت أنني لم أعرف عنه بعد إلا القليل الذي لا يفسر لي هذه السياط التي راح يلهب بها جلده لغير سبب ظاهر ، نعم إن الموت قد دب في أسرته حتى أطاح بروعها فذهبت عنه الدرع الواقية وتعرى صدره للفتحات الهواء ، ولكن هل هذا وحده يفسر أن يكتب فيقول :

« لقد عصفت العواصف بنفسى ، وتجهم الأفق أمام عيني ، ورأيت خريف عمرى يتساقط أمامى على الأرض أوراقاً صفراء يابسة ، كنت أسمع لها خشخشة كأنها حشرة المحتضر .. ونظرت فإذا بقيت - بعد جهاد طويل - حطبة جافة من ساق وفروع ، تعرّت عن الورق والزهر والخمر ، تعوى في ثناياها الريح عواء الأمعاء الجائعة ، وليس على مرمى البصر فيها إلا اليباب ...

فخلخلت التراب حول الفروع والساق ، وحملتها تجاه الغرب إلى طرف ناء من الصحراء ، حتى إذا ما أغمضت الشمس جفניה من غروب ، أشعلت النار في بقيقى - وبقيقى حطبة يابسة - فترأت من بُعد أمام عينيّ العشوائين كأنما هى الشمس قد عادت إلى الشروق ، لترسل من حر أنفاسها شعاعا جديداً ، قبل أن تعود إلى مهدها فى ظلام الغيب ... »

. فهأنا أيضاً - كما كانت حاله عندما عرض جانب اللص من نفسه - أردف بنهاية فيها بصيص من أمل ، هناك رأى صورة الثعبان المتسلل فوق الدرج ، فتعزّى بأن هناك صوراً أبشع مما عهدته فى نفسه من تسلل إلى بطون الناس فى الخفاء ، وهنا يحرق حطام نفسه اليابسة ، فيتوهم ، فى آخر لحظة - أن ضوء الحريق هو ضوء شمس آذنت له بشروق جديد ... وظللت أسأل نفسى : ماذا دهاه عندئذ حتى عادت إليه علته بعد اقترابه من العافية ، ثم ماذا يصادفه فى غصون بلواه فيراه بصيصاً خافتاً من أمل ؟

قرأت له ذات يوم مقالا كتبه بمناسبة يوم ميلاده يقول فيه :
« لقد سألت نفسى : لو أرخت لحياتك ودونت مامر بها من حوادث ، فإذا أنت ذاكر ؟ إن من الرجال من يكتبون قصص حياتهم فإذا هى حافلة بأحداثها ، تقرأها فكأنما تقرأ قصة من خلق الخيال البارح ، فأين من ذلك ما عشت من حياة فارغة جوفاء ؟ وهنا رأيت الشبه ماثلاً بينى وبين ساعى البريد : أرايت كيف ينفق هذا الرجل حياته ساعياً بين الناس بريدته ؟ إنه لا يمس « الظروف » إلا من ظاهرها دون أن ينفذ إلى قلوبها ولبابها ، إنه لا يعلم من الرسالة إلا عنوانها أو بعض عنوانها ، فأين ذلك من صاحب الخطاب ؟ إنه يفض غلافه ويمس شغافه ، ويقرأ السطور وما بين السطور ، إنه يستروح من

كلماته أنفاس الحبيب ، أو هو ينظر إلى الألفاظ فإذا هي الحافظ الصديق ناظرة إليه تباسمه وتناجيه .. لكأننى من هذه الحياة إزاء مدينة حصينة سُورت بمنيع الجدر ولكأننى منها طواف يطوف حولها ويطوف ، ثم لا يجد إلى جوفها من سبيل ... صه ! أذلك همس ؟ إنها حبيبان يتغازلان ، أذلك ضحكات طروب ؟ إنها جماعة مرحة نشوانة ، أذلك أنين ؟ إنه بكاء حزينة ثكلى ، ياويح نفسى ! أريد أن أهمس كما يهمس الهامسون ، أريد أن أضحك كما يضحك الضاحكون ، بل أريد أن يكون لى فى حياى ما أبكيه وأرثيه ! أين - يا صديق - الجواز الذى يبيع لى الدخول فى هذه المدينة الصحابة فأشتره ؟ .. رأيت الناس ذات صيف حرور يصطفون ، فأقسمت لأكون كساتر عباد الله مصطافا ، ذهبت إلى الشاطئ مع الداهبين ، فسرعان ما برزت من إهابى شخصية ساعى البريد ، أقف على الشاطئ ولا أغوص ، الناس يرحون فى الماء ويلعبون ، والأطفال يتقلبون مع الموج ويضحكون ، والنساء كعرائس الماء غائصات طائفات صائحات ضاحكات ، وليس لى من كل ذلك شىء ، ونظرت حولى ، فإذا أنا واقف بين أكوام الملابس نضاها أصحابها ، ويشاء القدر الساهر أن يكون أقربها إلىّ حذاء مخلوع ، فأدرت عندئذ فى يقين أنى بين هذه الأحياء كالتقوغة الفارغة ، يرسم على سطحها الحيوان ولا تحتويه ، ولم أستطع أن أواجه هذا الحق الخفيف ، فقفلت إلى الدار راجعا ... » .

قرأت هذا فقلت : إن فى الأمر شيئا .

الفصل الشامن

التوائم الثلاثة

١

شناها أو لم نشأها ، كنا على وعى بها أو لم نكن ، فهي على أية حال حقيقة واقعة لم يعد ثمة من سبيل إلى إنكارها ، نعم هي حقيقة تثير من الحيرة ما تثير ، وتحتاج إلى كثير من التحليل والتعليل لينكشف سرها ، لكن ذلك كله شيء ، وكونها قد أصبحت من أمور الواقع التي لا بد من قبولها ، شيء آخر ، وإنما أعنى بها تلك العلاقة الوثيقة - الخافية آنا ، البادية آنا - التي تربطنا الأحدب وأنا وإبراهيم في ثالث متصل الأطراف ، مهما تفرقت تلك الأطراف بمكانها وزمانها وأنواع نشاطها .

إن بين الشخصوس الثلاثة من الفروق ما يبرر لكل منهم أن يستنكر فعل الآخر ، لكن بين الأفراد الثلاثة من التعاطف ما يجعل كلا منهم يسرع إلى مؤازرة الآخر ونجدة ، شأنهم في ذلك شأن الإخوة في أسرة واحدة : يختلفون ويتعاطفون على نحو متميز فريد ، هو الذى يطبع الأفراد بطابع الأسرة الواحدة . وإذا كنت لأصف أطراف هذا الثلاث بما يميز كلا منهم عن زميله ، لقلت إن الأحدب سريع الانفعال مشتعل العاطفة ، إذا صادفه في طريق حياته موقف مشكل ، فإما حله بحمارة وجدانه ، وإما استعصى عليه الحل فانسحب في عزلة

يعتصم بها ، وعلى النقيض من أسلوب الأحذب ، نرى إبراهيم عقلا خالصا ، لا يكاد يعرف من حياته إلا ما يخضع للتحليل العلمى الموضوعى الذى لا مكان فيه للذات وأهوائها وميوها ، وبين هذين الضدين أقف أنا ، إذ يميزنى دونها انحرافى فى قوالب الحياة الاجتماعية كما تحددها التقاليد والأعراف والأوضاع السائدة ، فلا الأمر - فى القبول والرفض - مرهون عندى بما تمليه العاطفة ، ولا هو مرهون بما يحدده منطق العقل ، بل هو مرهون - أولا وآخرا - بما يجد عند سواد الناس قبولا ورضى .

إن الأحذب وإبراهيم كليهما مشتغل بالكتابة ، ولكن شتان بين ما يكتبه هذا وما يكتبه ذاك ، حتى ولو كانا يكتبان فى موضوع واحد ، فبينما يتناول إبراهيم موضوعه بالعرض التحليلى المتسق الأجزاء ، كأنما هو أمام مسألة رياضية لا يحكمها إلا منطق الاستدلال بكل دقته وصراحته ، ترى الأحذب قد لجأ - فى الموضوع نفسه - إلى التصوير الأدبى الذى يحسد الأفكار فى أشكال يمكن إدراكها بالحواس ، ومن شأن هذه الطريقة أن تخاطب فى الملتقى وجدانه لاعقله ، فهو يطمئن لما يتلقاه أو لا يطمئن لكنه فى كلتا الحالتين لا يحتكم إلى « برهان » .

كنت على صلة بالأحذب من ناحية ، وعلى صلة بإبراهيم من ناحية أخرى ولم يطف بخاطرى قط أن الأحذب وإبراهيم على صلة أحدهما بالآخر ، حتى سافر إبراهيم للدراسة فى إنجلترا بغية الحصول على إجازة الدكتوراه فى الفلسفة ، ومضى على غيابه من زمن طويل ، وشاءت لى المصادفة أن ألتقى بالأحذب ، فأدهشنى أعظم الدهشة أننى ماكدت أورد ذكر إبراهيم فى سياق حديثى ، حتى فأجاني بأنه صديق له حميم ، وبأنه على تراسل معه منذ سافر فى بعثته

الدراسية ، وأضاف تعليقا على بعض رسائل إبراهيم قائلا إنها أقرب إلى مذكرات يكتبها أديب ، ولذلك فهو حريص على الاحتفاظ بها .. ونهض في حركة مفاجئة سريعة ، وأتاني بشيء منها لأقرأها ، والحق أننى أعجبت بما قرأته منها إعجابا تمنيت معه أن تطول تلك الرسائل ، وأن تتأسك حلقاتها فى تتابع يوحد بينها ، وهامى ذى أمثلة منها :

لندن فى أكتوبر ١٩٤٤

... لم أكن ألفت هذا التواضع من العلماء ، وكنت أحسبه من قبيل الشائعات التى تشيع بغير سند من الواقع ، حتى التقيت بهذه الأستاذة الجامعية العجيبة ، وهى الدكتورة روث صو ، أرايت لوجمع حنان الأمهات جميعا ، ووداعة القديسين جميعا ، ورقة القلوب الرقيقة كلها ، وصفاء النفوس النقية كلها . أرايت لوجمع هذا بأسره فى امرأة واحدة ، كيف تكون ؟ إنها تكون هذه الأستاذة ، تحدثك عن كتاب « الأخلاق » للفيلسوف اسينوزا فى غزارة البحر الغزير ، وكأنها تطلب منك الرأى ولم تجئ لتهديك بالرأى ! ... كانت محاضرتها قبيل الغروب ، وخرجنا معا ومعنا طالبان تقدمتا فى السن بعض الشيء ، ووقفنا فى الردهة ، تناقشها الطالبتان المؤمنتان كيف لا يكون المسيح نموذجا كاملا للإنسان فى حياته الأرضية ، فتنظر إليهما بعين العاطفة الحانية وتقول فى صوت كأنه يستفسر : أيعيش الإنسان فى حياته الأرضية بغير زواج ؟ .. وترتبك الطالبتان ، وتبتسم الأستاذة ، وتغير مجرى الحديث بأن تذكر فجأة أنها لم تأكل تفاحتها ، فتفتح حقيبة يدها الكبيرة ، لتخرج تفاحة تأخذ فى قضمها ، وتقول : أحب التفاح غير مقشور ...

لندن في مارس ١٩٤٥

... .. للإنجليز براعة في الفكاهة ، أكاد لا أجد لها نظيرًا في أمة أخرى ، فالفكاهة في أدبهم ظاهرة حتى توشك أن تكون شرطًا لا يتخلف في قصة أو مسرحية أو مقالة ، وهي فكاهة خفيفة أقرب ما تكون إلى الابتسامة اللطيفة إذا كانت الفكاهة عند غيرهم تقاس بالقهقهة العالية ، وهم يمزجون فكاهتهم هذه في جدهم ، فكثيرًا ما يعمد الخطيب السياسي إلى تخفيف جدّ الموضوع الذي يخطب فيه بملح ونكات ينثرها في غصون حديثه هنا وهناك ، بل إن ميلهم هذا إلى الفكاهة لا يبرحهم حتى في المحاضرات العلمية ، التي قد تميل بغيرهم إلى الجهمامة والعبوس ، ... كان الدكتور سيرل بيرث - أستاذ علم النفس - يحاضرنا في النظرية الفرويدية ، فقال : إنني لا أحب لكم أن تبالغوا في تطبيق هذه النظرية .. وابتسم الأستاذ ومضى يقول : حدث لي ذات حين أن لاحظت أني أفقد أشياء كثيرة ، فأضع المفاتيح في جيوبى ثم لا أجدّها ، وأضع النقود الصغيرة فيها ثم تختفي ، فهمت أن ألمس العلة في سبب من هذه الأسباب التي يقولها الفرويديون في أمثال هذه المناسبات ، وجعلت أسجل أحلامي وأحلّها ، وأضع لنفسى الاختبارات وأنتزع النتائج ... ثم ما هو إلا أن كشفت فجأة عن خروقي في جيوبى ... فكففت عن المضى في التحليل والتعليل ..

لندن في يناير ١٩٤٦

... .. لقد جثت والفكرة عندى عن الفلسفة أنها عميقة بغموضها ، وأحسبني سأعود وقد تغيرت هذه الفكرة عنها ، فتصبح الفلسفة عميقة

بوضوحها .. إن نظرتي إليها آخذة في التحول ، وأولى مراحل هذا التحول أفي قد أصبحت على رأي بأن الفلسفة تحليل للتوضيح ، وليست هي بالتي تصدر الأحكام من عندها على الأشياء ، فالفلسفة عندى الآن طريقة في البحث بغير موضوع ، إنها لا تبحث في « مسائل » لتصل فيها إلى « نتائج » لأنه ليست هناك « مسائل فلسفية » مما تختص به هي دون أن يكون خاضعا للبحث في مجالات العلوم المختلفة من فيزياء وكيمياء وغيرهما ، لم أعد أرى من حق الفيلسوف أن يعالج موضوعات هي من شأن العلماء وحدهم ، فلو كان البحث في الطبيعة وجب أن يترك لعلمائها ، أو كان البحث في الإنسان من حيث هو كائن حتى يتفاعل مع غيره في جماعة ، وجب كذلك أن يترك لعلماء النفس أو الاجتماع أو الاقتصاد ... مهمة الفلسفة هي أن تحلل أقوال هؤلاء العلماء تحليلا يتعقبا إلى الجذور ، وبهذا تضع أصابعنا على المبادئ الخافية التي تحملها تلك الأقوال في ثناياها دون أن تفسح عنها صراحة ، حتى إذا ماتبتدت تلك المبادئ أمام أعيننا ، تجلّت لنا أصول حياتنا الثقافية جلاء صريحا .. إننى لعلى يقين من أن نظرة كهذه إلى الفلسفة لن تجد عندنا إلا الصدود ، لالشيء إلا لأنها تعنى الفلاسفة من الخوض فيما لا سبيل لديهم إلى العلم به ، وهم أميل إلى درس أنوفهم فيما لا يعلمون ، لأن إرسال الكلام أمر هين ، فإذا قيل لهم : في هذا الكلام غموض ، أجابوا : هكذا شأن الفلسفة ... نعم إن نظرتي آخذة في التحول الجريء ، بعد أن رأيت كم أفنى الفلاسفة جهودهم في بحث عقيم عن أشياء في الغيب وقد حددتهم طبيعة كيانهم بحدود عالم الشهادة ، إنهم لكالباحث الأعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء ليس لها وجود ...

.... أى شيء هو أدنى إلى الصواب من قولنا بأن شهادة الميلاد لا تكون إلا لمولود جديد ، وأنه إذا وجدت شهادة ميلاد بغير مولود فهي زائفة مزورة ؟ وأى شيء هو أدنى إلى الصواب من القول بأن الرمز لا يتم معناه إلا بوجود المرموز إليه ، وأنه إذا وجد رمز بغير مرموز إليه فهو إذن وسيلة خداع وتضليل ؟ وأى شيء هو أدنى إلى الصواب من قولنا إن الاسم لا يكون اسماً إلا إذا وجد المسمى ؟ وإذا كان ذلك كله صواباً ، فمن الصواب كذلك أن كل كلمة في اللغة لا تسمى شيئاً ولا تشير إلى شيء ، هي كلمة زائفة مهما طال بين الناس دورانها ، فالفرق بين اللفظة التي ترمز إلى مسمى واللفظة التي لا ترمز هو الفرق بين اللفظة التي « تعنى » شيئاً واللفظة التي « لا تعنى » ، وهو فرق شديد الشبه بما يفرق ورقة النقد التي تستند إلى رصيد فتكون ورقة ذات قيمة حقيقية ، من ورقة النقد التي لا تستند إلى مثل ذلك الرصيد فتكون ورقة باطلة ... لابد أن يوجد الشيء أولاً ليجوز لنا بعد ذلك أن نطلق عليه اسماً يسميه ويميزه مما عداه ، وهذا هو بعينه الأساس الذي نقيم عليه تعليمنا اللغة لأطفالنا ، فنشير إلى شيء قائم على رأى من الطفل قائلين له : « شجرة » .. ولولا أن هناك الشجرة التي نشير إليها لذهب لفظتنا عند الطفل عبثاً ، لأنه في سذاجته وبفطرته ينظر إلى طرفين : المسمى المشار إليه في طرف والصوت الذي ننطق به في طرف آخر ، وعندئذ يقرن الشيء المرئى بالصوت المسموع ، أو يقرن المسمى باسمه ، أو يقرن المرموز إليه بالرمز الذي يشير إليه ، أقول إنه يقرن هذا الطرف بذلك ، ثم يربط بينهما ، حتى إذا مانطق له بالصوت وحده بعد ذلك ، كان كافياً لاستشارة الصورة التي كان هذا الصوت قد ارتبط بها ، وبهذا وحده يجوز لنا أن نقول إن

كلمة « شجرة » قد أصبح لها عند الطفل « معنى » ...
ولقد تطورت نظرتى ياسيدى وتحددت ، بحيث أقبل الكلمات أو أرفضها
على هذا الأساس نفسه ، يقول الفلاسفة : جوهر ، ونفس ، وخلود ،
وجمال ، وأخلاق ، ودولة ، ومجتمع ، فأقول : أين هى المسميات فيما هو مرئى
ومسموع ؟ فإن أجابوا قبلتها وإن راوغوا - كما هم يراوغون فى هذه الحالات -
تركتمهم وشأنهم وذهبت لشأنى .

لندن فى نوفمبر ١٩٤٦

... .. سألتنى ياسيدى عما أراه بناء على معيارى الفلسفى الجديد - فى
كلمات مثل « حب » و « كره » و « غضب » و « خوف » قائلا إنك تخشى أن
أكون قد طوحت بعالم الوجدان على أهميته فى حياة الإنسان ، فأقول فى هذا
الصدد إنه لابد من التفرقة بين نوعين من الكلام : فكلام يراد به وصف عالم
الأشياء ومايتعاوره من أحداث ، وآخر ينصرف به قائله إلى داخل نفسه لا إلى
خارجها ، فإذا نطقى بعبارة من الصنف الأول وقعت عليه تبعة الإثبات ،
وأما إذا نطقى بعبارة من النوع الثانى فلا إثبات هناك ولا نفى ، والعبارات العلمية
التي تجوز فيها المناقشة بين الناس هى من النوع الأول ، وأما العبارات التي ترد
فى التعبير الفنى والشعورى فن النوع الثانى ، وهى لا يجوز فيها اختلاف بين
الناس ولا نقاش .

هبنى وقفت مع زميلى إلى جوار شجرة ، فقلت عنها : إنها من أشجار
التوت وعمرها ستون عاما ، وقال عنها زميلى : إن لونها يبعث البهجة فى نفسه
كلما رآها ، فماذا يكون الفرق بين عبارتى وعبارته ؟ الفرق هو أننى أتصدى

لوصف الواقع الخارجى الذى لا دخل لمشاعرى فيه ، فلست أنا الذى جعلتها
تثمر توتاً ، ولا أنا الذى ألزمتها أن تكون بهذه الحداثة أو هذا القدم ، إننى
أصف بعبارتى وقائع ليست جزءاً من نفسى ، فلو طالبنى زميل بإثبات ما أقوله
وجب أن تكون لدى الوسائل التى يستطيع هو أن يشاركنى فيها ، وأما عبارة
زميلى التى قال فيها إن الشجرة تبعث البهجة فى نفسه كلما رآها ، فمن نوع آخر ،
هى عبارة لا صواب فيها ولا خطأ ، ولا إثبات ولا نفي إنه « يعبر » عن ذات
نفسه ولا « يقرر » أمراً عن الشيء الخارجى ، وإذن فليس من حق أن أطلبه
ببرهان ، وكيف يكون البرهان والأمر خاص به ؟ إنه إذا كانت الشجرة الواحدة
نفسها تبعث البهجة فى نفسه هو والكآبة فى نفسى لما كان بينى وبينه تناقض ،
لأن له شعوره ولى شعورى ، ولكن ما هكذا الأمر لو قلت عن الشجرة إنها تثمر
التوت ، وقال هو : بل إنها تثمر الجميز ، فهاهنا يكون بين قولينا تناقض ،
ويكون على أحدهما أن يثبت للآخر صدق دعواه ...

وتسألنى ياسيدى عن العبارات العاطفية مامصيرها ؟ وأجيبك بأنها تكون
من قبيل الأدب الذى يقاس بمقاييس خاصة تختلف عن مقاييس العلوم ، فلنا
أن نبقى عليها ، شريطة أن نكون على بينة تامة بأنها لا تدخل مجال العقل
والمنطق ، ومن ثم فلا يحق لأحد أن يجادل أحداً فى صدقها أو بطلانها ، لأنه
لا صدق فيها ولا بطلان ، وكل ما فيها هو أن تكون محبة إلينا أو بغیضة ، وإنى
ياسيدى لأعلم بعد المدى الذى ينال به مثل هذا رأى فى أقوال الناس
وعقائدهم ، لأنهم - فى الأعم الأغلب - ينطقون بما يرضى عواطفهم ، ثم
يزعمون لأنفسهم أنهم إنما نطقوا بالحق الذى لا حق سواه .

..... . لست أقل منك حرصا على مشاعر الإنسان وآماله ومثله العليا .

هذه المشاعر والآمال والمثل التي زعمت لى في خطابك الأخير أننى سائر بمذهبي نحو هدمها ؛ كل ما هنالك من أمر في هذا الصدد هو أننى أفرق بين لغة العقل ولغة الشعور ؛ فمن لا يريد أن يتحدث عما يقع في حسه - رؤية أو سمعا أو ما شئت من حواس - مما يتاح للآخرين أن يراجعوه فيه بحواسهم ، فهو لا يريد أن يتحدث بلغة العقل ، وليس في ذلك رفع ولا خفض للغة المشاعر ؛ بل الأمر أمر تفرقة بين نوعين مختلفين من الكلام ؛ فإذا كان المجال مجال علم فلا يجوز للشعور أن يتسلل إلى سياق الحديث بألفاظه الدالة على وجدان ، أما إذا كان المجال مجال أدب وفن فليختر ما يشاء من لفظ ليثير في سامعه المشاعر التي يقصد إلى إثارتها فيه . . فلو تحدثت عن السماء حديث العالم الفلكي فلا ينبغي له عندئذ أن يذكر شيئا عن السمو والعظمة والمجد ؛ ولو تحدثت عن الزهرة بلغة عالم النبات فليسكت عن أحاديث الروعة والجمال . . فلنعت ما للعقل للعقل وما للشعور للشعور ؛ وإني لأزعم أن جزءا كبيرا مما تركه لنا الفلاسفة على زعم منهم أنه نظرة عقلية خالصة ، هو في الحقيقة تعبير عن أمزجتهم وميوهم ؛ نعم إنهم يسرون بخطوات عقلية من نقطة الابتداء التي يفرضونها ، ولكن نقطة الابتداء نفسها تجيء من عندهم مزعوما لها أنها من إدراك البصيرة والحدس الفطري ؛ ولو زعموا عندئذ أنهم إنما يقيمون نسقات عقلية على أساس افتراضى كما يصنع علماء الرياضة ، لقلنا نعم ونعاهم عين ، لأن النسقات الرياضية مغلقة على نفسها لا يدعى لها أصحابها أنها تصوير للواقع ، بدليل أنها قد تتعدد والواقع واحد ؛ ولكنهم يبنون على فرض من عندهم ، ثم يفوتهم ذلك

وينسونه ، ليقولوا آخر الأمر إنهم يقولون ما يطابق الوجود الخارجى مطابقة الصورة لأصلها .

لندن فى فبراير ١٩٤٧ .

... ألقى برتراند رسل علينا سلسلة محاضرات عن المعرفة وتحليلها وردّها إلى أصولها وجذورها ، لم أكن أنخيل هذا الرجل بمثل هذه السرعة النشيطة فى حركات بدنه وفى لفتات عقله ، والعجيب أنه كان يلقى محاضراته فى مدرّج صغير ، مع أن مئات من غير الطلاب ينجثون ليستمعوا إليه ، لهذا كنت ترائى أبادر قبل البدء بمدة طويلة لأجد مكانا قريبا من المحاضر حتى لا تفوتنى كلمة منه - وسمعى كما تعلم قد أخذ يضعف قبل أوان الضعف - إلا مرة واحدة تأخرت قليلا ، فوجدت المدرّج قد امتلأ وأخذ الناس يصطفون خارجه ، فوقفت فى الصف ووقف معى زميل مصرى يدرس علم النفس ، وكان المطر يتزل فوق رؤوسنا برغم محاولتنا وقاية الرؤوس بلصق أجسادنا إلى الجدار ، وتساءلتنى : وماذا كنت تسمع من كلمات المحاضر ؟ وأجيب : لا شىء ، وتعود فتسألنى : وفيم وقوفك فى المطر والبرد ؟ وأجيب : لا أدرى ، فقد أحسست أن تركى للصف أصعب على نفسى من الوقوف فيه بلا رؤية ولا سمع ؟ وقد قلت لزميلى المصرى ضاحكا : اشهد على ما ألاقيه فى سبيل العلم ، بل فى سبيل تقديس العلم ، من عناء ، فقال ضاحكا بدوره : وأنا أحق منك بمثل هذه الشهادة لأنك تقدس فرعا فى مجال تخصصك العلمى ، وأما أنا فقد وقفت فى المطر والبرد تقديسا لكلمة العلم فى ذاتها . . إنها الروح هنا تغريك بهذا وأكثر منه .

وفي هذا المدرّج الصغير نفسه حضرت محاضرة الأستاذ آير الذى عيّن منذ قريب أستاذًا لكرسى الفلسفة فى كلية لندن الجامعية ، وقد كان شاعرًا مدى حين ؛ كانت هى محاضرة الافتتاح كما يسمونها ، يفتتح بها أستاذيته الجديدة ؛ وقد قدمه أحد رؤساء الجامعة بكلمة قال فيها : وقد وقع اختيارنا على هذا الأستاذ الشاب بعد بحث طويل عمن يحفظ لكرسى الفلسفة هنا مستواه الرفيع ؛ وقد قيل لنا تحذيرًا منه : إنه خطر على التقليد الفلسفى وإن يكن ذا أصالة فى الفكر ، فقلنا : هذا هو من نبحث عنه - والأستاذ آير فى عامه السابع والثلاثين .

لندن فى مارس ١٩٤٧

كان الدكتور كيلنج - صاحب الكتاب المعروف عن فلسفة ديكرت - هو أستاذنا فى الفلسفة الحديثة عندما كنت فى « الكلية الجامعة » قبل تحويلى إلى « كلية الملك » ؛ ولم أكن أرى فيه ما يملؤنى إعجابا به ، مع أنه كان أول أستاذ ربطانى ألاقه فى هذه البلاد ؛ نعم إنه ذكى ولملم بمادته إلمام القارئ الباحث الدارس ؛ أما نفاذ البصيرة ومسايرة الحركة الفكرية مسايرة تتفق مع منصبه الجامعى ، فلم أكن أرى فيه شيئا منه ؛ لقد درس فى السوربون بعد أن درس فى إنجلترا ، وهو متزوج من سيدة فرنسية ، وله لحية صغيرة يصبغها بالحناء أو ما يشبه الحناء مما لست أعرفه ؛ وقد دعانى منذ قريب على عشاء فى منزله ، فوجدته منزلا مكدسا بالكتب ، والظاهر أنه لا ولد له ؛ وقد اعتذر لى عن تواضع مسكنه قائلا : إن ببقى الحق قائم فى باريس حيث أقضى أطول وقت مستطاع .

وكان من الأفكار التي تمحس لها أثناء حديثنا - وكان الحديث قد تطرق إلى الأدب المسرحي - أن شيكسبير لا يستحق هذه الضجة كلها التي يثيرونها حوله : فليس هو بشاعر من الطراز الأول ؛ أين هو في ميدان البناء الشعري من راسين أو كورنى ؟ فقلت لنفسى عندئذ ؛ ترى إلى أى حد تجيء آراء الناس انعكاسا لجنسية الزوجة ؟ ! إن كيلنج رجل عليل ضعيف البنية ، ولقد كان يطمع في دعوة توجه إليه من جامعة القاهرة ليقضى في دفة مصر عاما أو عامين ، لعله ينعم بشيء من الصحة ، وحسبني قادراً على أداء هذا الصنيع ، والحق أنى تمنيت يومئذ لو أن بى شيئا مما ظن ، لكن العين كانت بصيرة ويدي كانت أقصر جداً مما ذهب إليه خيال الذين أجروا هذا المثل على ألسنة الناس

٢

لم يكن في وسع زميلنا إبراهيم - أثناء مقامه في بريطانيا - أن يرى ما يراه من الرعاية لكرامة الإنسان فرداً فرداً ، بغض النظر في كل فرد عن عمله وراثته ؛ وأن يرى ما يراه من ولاء هؤلاء الأفراد لوطنهم ، حتى ليستجيبوا لنداءات أولى الأمر منهم في ساعات الخطر دون رقيب ولا حسيب ؛ أو قل إن إبراهيم عندئذ لم يكن في وسعه أن يرى ذلك الذي رآه هناك ، ثم لا ترد إلى ذهنه المقارنات ؛ فكانت تلك هي الفترة التي أخذ يرسل فيها من لندن إلى مجلة الثقافة التي كانت تصدرها في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مجموعة من مقالات أدبية ثائرة ساخرة ، هي من أنقى وأقوى وأصدق ما خطه قلمه : كتب في أول مقالة أرسلها في هذا الصدد ، ساخراً مما نتخبط فيه من خرافة ، فقال فيما قال . . . أنا في جنتي العالم العلامة ، والحير الفهامة ، اقرأ الكف وأحسب النجوم ، فأنبئ بما كان وما يكون ؛ أفسر الأحلام فلا أنخطئ

التفسير ، وأعبر عن الرؤيا فأحسن التعبير ؛ لكل رمز معنى أعلمه ، ولكل لفظ مغزى أفهمه ؛ استفسرنى ذات يوم حالم فقال : رأيت - اللهم اجعل خيرا ما رأيت - رأيتنى أنظر إلى كفى فيغطينى من الأصبع الوسطى طولها فوق أخواتها ، ولا أحتمل الغيظ ، فأتى من مكتبتى بمبرة مرهفة ماضية ، وأجدّ من تلك الإصبع الطويلة ما طال ، وألقى بالجزء المبتور فى النار ؛ وما هو إلا أن أرى شبعا مخيفا يخرج من بين السنة اللهب ، كله أصابع : أصابع فى كتفيه ، وأصابع فى جنبيه ، وأصابع فى قدميه ، وأصابع من رأسه ومن بطنه ومن ظهره ، والأصابع كلها من ذوات الأظفار ، حتى لكأنها المخالب ، أخذت تنقبض وتتلوى ، وتنبسط وتتحوى ، تريد أن تنال منى لتفتك بى ؛ فتملكنى الفزع ، والرعب والجزع ، وكلما اقتربت منى تفهقرت حتى بلغت الجدار ، ولم يعد بعد ذلك مهرب ولا فرار ؛ ثم رأيت دماى تسيل دفاقة من إصبعى الجريحة ، فصحت وصحوت فأطرقت قليلا ثم أجبته قائلا : لقد أضلك الشيطان الرجيم فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكفارتك صيام عام وإطعام ألف مسكين . . . فأصابع كفك هى الناس من حولك تفاوتت أقدارهم وتباينت أرزاقهم بمشيئة ربك الذى يعطى من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب ؛ والمبرة التى أتيت بها من مكتبتك رمز بضلالك بما قرأت ، كأنك « فاوست » غاص فى العلم فأضله العلم ضلالا بعيدا ، . . . فعذتكم النفس الأمارة بالسوء أن تعدل فيما خلق الله وتبدل ، فكان جزاؤك عذاب الدارين . . . وأما الجدار الذى سد عليك طريق الفرار فعناه أن عذابك آت لا ريب فيه ، إلا أن تدعو ربك بالمغفرة لعل ربك أن يستجيب لك الدعاء . . .

هكذا جاءت السخرية من ثقافتنا فيما أخذ يكتبه إبراهيم يومئذ ، فهي ثقافة تأبى في صميمها أن تسوى بين الناس ، ومن حاول هذه التسوية نزلت عليه النقمة ؛ ولعل سخرية إبراهيم من مناخنا الثقافى الذى كنا نعيش فيه . لم تبلغ قمتها بمثل ما بلغته في مقالة بعث بها وجعل عنوانها « بيضة الفيل » أراد بها أن يهزأ من ضروب التفكير الغيبى الافتراضى في عصر كانت القبلة الذرية قد بدأت تنفجر وتهز العالم بدويها ؛ تبدأ تلك المقالة هكذا :

« قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض ؛ والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة تبيض ، فإذا يكون لون بيضتها ؟ في الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء ؛ يقول عمار بن الحارث بن عمار تكون بيضاء . . . ومضى الكاتب في مقالته يدير مناقشة وهمية في مشكلة وهمية ، ومع ذلك فقد أخذت آراء « العلماء » (ألحظ هنا كلمة « علماء ») تختلف ! وراح المتناقشون يدعمون آراءهم بأسانيد يشتقونها من كتب الفقه وكتب اللغة وكتب التاريخ ؛ وأخيرًا حدثت المفاجأة في آخر المقالة :

« وزلزلت الأرض زلزالها ، وقال الشيخ : ما لها ؟ فقيل : هي يامولانا قبلة ذرية ، في لحظة تقضى على الأصل والذرية ؛ قيل : فعجب الشيخ أن كان في الدنيا علم غير علمه » .

وأخذت المقالات تتوالى من إبراهيم وهو في لندن ، على هذا النحو الناثر الساخر ؛ لأنه كان ينظر أمامه فإذا الدنيا قد انتقلت إلى حضارة أخرى غير حضارته ، فيها - فوق العلم - كرامة الإنسان ، ثم ينظر خلفه إلى حالة وطنه فإذا هو غارق إلى قبة رأسه في خرافة ، تزيدها بشاعة ضروب من الأخلاق الاجتماعية تهدر للإنسان قيمته وكرامته

انتهت بإبراهيم دراسته بإجازة الدكتوراه فى الفلسفة عن رسالته فى « الجبر الذائق » ، جاء يوم مناقشة الرسالة ، فلم يكن هناك إلا إعلان وضع أمام المبنى المركزى للجامعة لـندن (وهو نفسه المبنى الذى يضم مكتبة الجامعة ، التى جعلها إبراهيم مكانه الرئيسى فى ساعات العمل) أقول إنه لم يكن هناك يوم الامتحان إلا إعلان وضع أمام ذلك المبنى جاء فيه إن لجنة امتحان ستعقد اليوم فى الغرفة رقم كذا ، لمناقشة الطالب الفلافى فى رسالته التى تقدم بها لتليل شهادة الدكتوراه فى الفلسفة من « كلية الملك » ، ولقد فوجئ إبراهيم بذلك الإعلان وهو يدخل المبنى ، فعرف منه رقم الغرفة التى يتوجه إليها فى الموعد المضروب . وذهب ليجد اللجنة الوقورة جالسة على منصتها ، وقوامها عضوان : الدكتور هاليت الذى أشرف على البحث ، والدكتور ماكمرى ممتحنا خارجيا جاء من جامعة سانت أندروز باسكتلندة ؛ وأغلق باب الغرفة على الأستاذين وأمامها الطالب ؛ فتلك هى طريقة مناقشة الرسائل فى بريطانيا ، فلا جمهور ولا خطابة ولا مظاهرة ولا تصفيق ؟ ودارت المناقشة فى ذلك الهدوء المهيّب ، وخرج إبراهيم من الغرفة وهو الدكتور إبراهيم - واسمه الكامل هو إبراهيم الخولى .

عاد الدكتور إبراهيم بعد فوزه بما أراد أن يفوز به ؛ كان فى محطة القطار الذاهب به إلى دوفر ، لبدأ المرحلة الأولى من طريق السفر إلى مصر ، حين جاءه من مكتب البعثات المصرية فى لندن من يبنئه على عجل بأن يرقية من القاهرة قد جاءت لتطلب من إبراهيم أن يمر على باريس فى طريق عودته ، ليقضى هناك شهراً ونصف شهر فى منظمة اليونسكو ؛ ووقع فى حيرة لم تطل إلا بضع دقائق ، قرر بعدها أن يرسل حقايبه مشحونة لتسبقه إلى الوطن ، لا يبق منها إلا ما يعيش به فترة الإقامة فى باريس ؛ وعاد إلى مسكنه بلندن ليقضى يوما

أو يومين يعد فيها نفسه لهذا الموقف الجديد

ثم جاء يوم السفر ، وكانت غاية السفر هذه المرة هي باريس ليظل بها شهرًا ونصف شهر يستأنف الطريق بعدها عائداً إلى القاهرة ، وركب إبراهيم قطار « السهم الذهبي » . . كثيرون هم أولئك الذين كتبوا عن الصداقة والأصدقاء فوققوا وأجادوا - هكذا كتب إبراهيم في خطاب أرسله إلى يومئذ من الطريق - لكنني لا أحسب أحداً من هؤلاء جميعاً قد كتب شيئاً في نوع من الصداقة عجيب ، يمر في حياة الإنسان مرور الأطياف والأحلام ، فلا يستغرق إلا ساعة أو ساعتين ، أو قل يوماً أو يومين ، ومع ذلك تراه يترك في النفس أثراً قد يبلغ من الشدة والعمق ما لا تبلغه الصداقة الثابتة الدائمة . . فلقد قابلت في القطار فتاة ، ولم نكد نبدأ الحديث حتى خيل إلينا أننا أصدقاء منذ أمد بعيد ، جعلتُ أخبرها وجعلتُ تخبرني كأن حبل الحياة متصل بيننا ، ثم بلغ بنا القطار غايته ، ولعلني كنت أحس بهذه الحاتمة القريبة ، ولعلها كانت نحس ، فأخذت صداقتنا تتكثف وتغزر لحظة بعد لحظة ، كأنما عزّ علينا أن يتبدد هذا اللقاء فتشبتنا ممسكين بقبضتين قويتين على هذا الود الوليد ، لعله يدوم ، لكن القطار بلغ بنا غايته ، وافترقنا إلى الأبد . . .

وفي باريس ، خلال فترة الشهر ونصف الشهر التي قضاهـا ملحقاً باليونسكو ، أراد له الله أن يلتقي بسيدة مصرية جاءت موفدة من القاهرة لتشارك في المهمة نفسها التي طلب منه أن يضطلع بها ، فوجد فيها رمزاً يمثل أرفع القيم التي تتميز بها مصر ، فحمد الله أن قدّفت المصادفة أمام عينيـه بهذا الرمز النبيل ليخفف من غلوائه فيها كان التسرع في الأحكام قد شطّح به إليه ؛ لأنه كان كلما رأى وجهها من أوجه الكمال الحضارى وهو في انجلترا ، أسرع

المقارنة بمصر إلى ذهنه إسرعا يميل به إلى طمس الجانب المشرق الجميل ليظهر الجانب المعتم القبيح ؛ فكان عزاؤه ذلك الحب القوى العميق الذى يكنه لوطنه ، والرغبة المسعورة الجاحمة فى أن يرى ذلك الوطن الحبيب غير مسبوق على الطريق الحضارى الطويل

ولقد قصّ علينا إبراهيم عن نفسه ساعة كان فوق السفينة يعبر القنال الإنجليزى فى أول طريقه عائداً إل مصر : فالبحر هائج مائج ، والسفينة تعلو وتهبط مقدوقاً بها على رموس الموج كأنها الكرة على أقدام اللاعبين المهرة الأشداء ، والراكبون يسقطون من دوار البحر صرعى ، وهو واقف ممسكاً بحاجز السفينة ، مرتدياً معطف المطر يتقى به الرذاذ العنيف الذى يغمره ويغمر عشرات الصرعى إلى جواره ، واقف ينظر ناحية الشاطئ الإنجليزى ؛ ويدس يديه فى جيوبه ، فإذا فى جيبه الأيمن ورقة ، يظل يسأل نفسه قبل أن يخرجها : ماذا ياترى تكون هذه الورقة وهو لا يذكر أنه قد وضع ورقاً فى جيب هذا المعطف ، ثم يخرجها ، فإذا هى قصاصة متزوعة كما اتفق من كراسة قديمة ، ومكتوب عليها بخط ردىء ، خطته يد مسرعة مترددة ، « أحببتك ولم أصرح » والكاتبة هى صاحبة البيت الذى كان يستأجر غرفة فيه .

ولبث إبراهيم ينظر إلى الورقة فى يده ، والرذاذ العنيف يخط رجفه وصدرة ، فأسرعت إلى ذهنه صورة تلك السيدة نفسها ، حين كانت الحكومة أيام الأزمات قد أصدرت تعليماتها بأن تطفأ المدافئ فى كل مكان من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الثالثة عصراً ، توفيراً للفحم الذى قلت مقاديره ، إما بفعل ثلوج الشتاء ، وإما تحت وطأة الحرب - لا أذكر الآن أيهما - فكنت أراها فى الأيام التى أقضى فيها النهار بالمتزل لأكتب فصلاً من الرسالة تجمعت

مادته بين يديّ ، كنت أراها وهي تنظر إلى ساعتها لحظة بعد لحظة ، حتى إذا ما حانت الساعة الحادية عشرة ، دارت على غرف المنزل تطفئ مدايقها ، بغير رقيب إلا من ضميرها الوطني .

طفق إبراهيم وهو يعبر القنال الإنجليزي عائداً إلى بلاده ، يلفّ في رأسه شريط ثلاثة أعوام قضاها في بريطانيا ، لفّاً سريعاً تتداخل به الصور بعضها في بعض ، لا يكاد يقف عند واحدة حتى تزول لتحل محلها واحدة ؛ ثم ازداد الأمر خلطاً ومزجاً حين راح يلف في رأسه - في الوقت نفسه - شريطاً آخر لفّاً سريعاً كذلك ، تتلاحق فيه الصور واحدة في إثر واحدة ، تضع أمام عينيه مشاهد ومواقف مما كان قد مرّ به في مصر قبل أن يغترب عنها للدراسة ؛ فكأنما كان الشريطان عندئذ يتدافعان ويتسابقان ويتشابكان ، فصورة من هنا تستدعى صورة من هناك ، كل ذلك والسفينة تتخطى فوق الموج الصاحب ، وصرعى اللوار يزدادون عدداً ، والرذاذ الحاد يضرب وجهه وصدره كأنه قطع الزجاج .

هذه هي صورة الطالب الإنجليزي « فلتشر » يلقاه في المحاضرات ويتصادقان ويتبادلان الرأي والنظر ، قد كان في نحو عمره ، ويعلم عنه أنه قد أمضى وقتاً ضائعاً حتى انتهت شركة كان يعمل بها عملاً يدوياً مما تصلح له سائر الأيدي ، ويدرك صاحب الشركة أو مديرها أن الفتى موهوب في الفكر النظري ، فيقرر إرساله إلى جامعة لندن على نفقته ، غير مقيّد إياه بشرط العودة إلى شركته بعد إكمال الدرس ، فإذا ينفع دارس الفلسفة شركة تعبئ الزجاجات بما لست أذكر من ضروب السائل ؛ ولم تكده هذه الصورة تعود إلى الذاكرة يغشاها الضباب الأصفر الداكن الذي يكتنف لندن في أوائل الشتاء ، حتى تندفع إلى

صفحة الذاكرة صورة من ماضى الحياة فى مصر : فحيث كان إبراهيم مدرسا ناشئًا جاءه غلام فى صحبة أبيه ومعها خطاب من صديق يوصيه بالغلام خيرًا لأنه موهوب ، ولكن أباه لا يملك من وجه الدنيا قرشا يدفعه أجرًا لتعليمه ؛ ويسألها عن ظروف الغلام فإذا هو فى الشهادة الثانوية من أوائل خمسة ، لكن المدرسة الثانوية التى يريد الالتحاق بها - كأتى مدرسة ثانوية أخرى فى ذلك الحين - تطلب القسط الأول قبل الدخول ، برغم أنها على يقين من أن مجانية الطالب مكفولة له بحكم القانون ، فن أبن للوالد الفقير أن يدفع وهو خادم فى مسجد رزقه الله هذا الولد النابغة ؟ فلا يدري إبراهيم ماذا فى وسعه أن يصنع سوى أن يدخل إلى ناظر المدرسة فى مكتبه ويقص عليه النبأ : « ماذا لو قبلناه بغير مصروفات وخطاب المجانية آت من الوزارة فى حينه ؟ » فيقول الناظر - وقد مسَّ الموقف قلبه الطيب - « ومن ذا يدفع عنى الاتهام إذا جاء من الوزارة مفتش فوجد طالباً لم يدفع أجر تعليمه قبل الدخول ؟ » . . . وخرج إبراهيم ليبلغ الوالد والولد ، فيكى الوالد مردداً كلمة « ياخسارة ! ياخسارة » ويحتضنه الولد ويرت له على كتفيه . « لا عليك يا أبى ، لا عليك ، لا عليك يا أبى ، لا عليك » وإبراهيم واقف على السلمة الأولى من مجموعة السلام القليلة المؤدية إلى مكتب الناظر ، ينظر إلى الوالد والولد . . .

وهذه صور تتلاحق عن نعمة الصلات هناك بين كل إنسان وكل إنسان ، فهل شهد فى أكثر من ثلاث سنوات شخصين يعتركان ؟ أبداً أبداً لم تقع عينه هناك على عراك ، كأنما هم صور تتحرك صامتة على صفحة مرآة ، لا تصطدم منها صورة بصورة : فالزوج والزوجة والبائع والشارى والجار والجار والصديق والصديق وكل إنسان وكل إنسان يلتقيان فى همس ويفترقان فى صمت . . .

تأتيه هذه الصور حتى وكأنه يشهد سينا صامته ، وفجأة يقتحم الشاشة الذهنية صورة من ماضيه في مصر يسكن في شقة من منزل متواضع ، يعلوها مسكن تنزل فيه زوجة وأبناء زوجها ، وأما الزوج فيشتغل في الصعيد ولا يحضر إلا حيناً بعد حين ؛ وتحتها - في فناء البناء الأرضي عند المدخل - غرفة يسكنها صانع بليلة وزوجته ، يخرج الزوج بعربته وعليها إناء ضخم ملىء بالبليلة وتحت موقد النار والدخان المخلخل يتصاعد منه ، أقول إن الزوج يخرج بعربته تلك ليعود مع المساء ؛ وحدث ذات ليل بعد أن انتصف ، وهدأت الحركة في البيت والشارع ، وسكنت الأصوات إلا من ديب المارة على فترات متباعدة ، أن انفجرت معركان في آن واحد : إحداهما في الشقة العليا والأخرى في الغرفة السفلى ، فن أعلى جاءت أصوات تشق هدأة الليل :

- الشاب ابن الزوج : لا بد أن أقول لأبي متى تخرجين ومتى تعودين .
- الزوجة : امش ! اخرج من بقي .
- الشابة ابنة الزوج مع أخيها في نفس واحد : هذا بيت أبي ، اخرجي أنت إلى حيث كنت .

- الزوجة تنادى الخادمة : اخرجيهما بالقوة يامبركة .
- الشاب ابن الزوج : اخرجي وإلا قذفت بك من النافذة .
- الزوجة : إما أنا وإما أنتما في هذا المنزل بعد الآن .
- الشاب ابن الزوج : أين تبدين النقود التي يتركها لنا أبي ؟
- الزوجة : اسم الله على أبيك ونقوده يأسعده البك ! نقود أبيك لا تكفيني لشراء الملح . .

وفي هذه اللحظة نفسها انفجرت القبلة الثانية من أسفل ، وكانت أفدح

خطراً ، فقد عاد بائع البليلة في هذه الساعة المتأخرة من الليل مخموراً لا يعي شيئاً ولا يستطيع النهوض بجسده ، فرافقه زميل له في الخمر يتساندان ، حتى أوصله الزميل إلى منزله ، وخرجت إليها الزوجة القلقة هائبة من غرفتها زاعقة في الصديق قائلة كيف كان زوجها كالملائكة يذهب إلى عمله ويعود إلى بيته ، حتى عرف طائفة الأبالسة التي ترافقه هذه الأيام ، ثم راحت تدعو الله :
- الزوجة : إلهي وأنت جامي وجاء «الولاي» يارب ، تنتقم منهم لقاء ما أفسدوا من زوجي .

- الصديق المخمور : هو ذا زوجك بين يديك ، دُفِّيه واصنعى منه «كفتة» ! ها ها ها (وانصرف) .

- الزوج المخمور بعد فترة مليئة بأصوات حركة غير مفهومة للساكن في أعلى : تشتمين أصحابي ، تشتمين أصحابي ؟

فتصرخ الزوجة مستغيثة لأن زوجها السكران يهاجمها بالسكين ليقرر بطنها جزءاً ما اقترفته من شتم صديقه ، وأطلت الزوجة المعتركة مع أبناء زوجها ، أطلت من نافذة « المنور » لتقول للزوجة المنكوبة إنها آتية لنجدتها ، ويمضى الزوج السكران في سؤاله الاستنكاري : تشتمين أصحابي ؟ تشتمين أصحابي . ١٩ واستيقظ السكان جميعاً في عاصفة من أصوات فازعة ، وحركة أقدام على السلم مسرعة في هبوطها لتنقذ الزوجة من براثن زوجها المخمور .

ويكرّر شريط الصور في رأس إبراهيم وهو على سفيته ، من هناك صورة ومن هنا صورة :

هذا هو الوزير الإنجليزي « نويل بيكر » يقف في الصف وفي يده فنجان

ينتظر دوره ليملاؤه بالشأى ، وأمامه رجل يرتدى رداء ساعة الدواوين ، فلا الوزير يفكر فى التقدم قبل دوره ، ولا الخدم من أمامه يفكرون فى التنازل عن مواضعهم ، فالساعة ساعة الراحة له ولهم بين جلسات جمعية الأمم فى أول انعقاد لها فى لندن - قبل رحيلها إلى نيويورك - وتذهب هذه الصورة لتحل محلها صورة الوزير المصرى الذى كان ينتظر منه ألا يكون كسائر الوزراء عتاً واستبداداً ، لأنه كان دونهم إماماً بيننا من أئمة الأدب والفكر والحركة الحضارية بصفة عامة ، ومع ذلك فقد رأيت وهو على كرسى الوزارة كيف يتعنت وكيف يستبد ، كأنما أصحاب الحقوق الواقفون أمام باب حفة من الغم ، بينها وبين الراعى الأسير صفان طويلان من الذئاب ، على نحو ما كان المصريون الأقدمون يقيمون صفوف الأسد أو الكباش أمام المعابد لتحرسها من هجمات الشياطين .

وبعض إبراهيم على شفته بأسنانه عضة من اعترم أمراً ، وألقى بالورقة التى كانت فى يده إلى موج البحر الصاحب ، فما تزال السفينة تنقذف بين الموج الثائر من قة إلى وهدة فألى قة من جديد ، والرذاذ يلطم وجهه وصدره كأنه الرصاص ، وصرعى الدوار من حوله صفر الوجوه كأنهم الموتى فى وباء كاسح ، لقد اعترم الدكتور إبراهيم فى تلك اللحظة ألا ينزل لأحد بعد اليوم قيد شعرة عن كرامته ، لقد أحس بفرديته وقد انتفضت ، وصمم على أن يقف بها عند عودته كما يقف الجبل الأشم من رعوس الناطحين .

٣

عندما سافر إبراهيم الخولى إلى إنجلترا دارساً ، كانت تعتمل فى نفسه قوتان متصارعتان : إحداها إرادة مصممة على بلوغ الهدف مهما كلفه ذلك من

عناء ، والهدف المقصود الذى أخذ يسمى إليه منذ صدر شبابه ، هو أن يكون له دور ملحوظ فى الحياة العلمية والثقافية ؛ وأما الأخرى فهى حالة دفينة من اليأس أن يحقق نفسه مما أراد شيئا ، فهو عندما سافر كان بالفعل قد بذل جهودا لم يعرف مداها إلا هو ، وأما أقرانه وأصحابه ومن كانوا يكبرونه ومن كانوا يصغرونه ، فلم يكن أى منهم على دراية بما بذله إبراهيم ؛ فكل من هؤلاء قد يعلم عنه شيئا وتفاوته تسعة أشياء ، وحتى الذين عرفوا عن جهوده ذلك القليل ، فقد ندر منهم جدًّا من حمل له التقدير ، أو ربما حمل التقدير فى نفسه سرًّا مكتوما ولم يفصح عنه بالقول أو الكتابة .

كان إبراهيم يعلم ذلك جيدًا ، وكانت تغمره موجة القنوط آنا بعد آنا ، لكنه بالقوة الأخرى فى نفسه ينهض من قنوطه ليعمل ، وليكن بعد ذلك ما يكون ؛ وفى إحدى لحظات اليأس - وهو فى لندن - خرج عصر يوم من أيام الآحاد لينشق الهواء فى هايد بارك ؛ وهايد بارك منتزه فسيح يقع فى قلب مدينة لندن ؛ له خصائص يتميز بها فى أذهان عارفيه ؛ منها هؤلاء الخطباء عند مدخله ؛ يرتقون المنابر ليخطبوا فى أى موضوع شاء الخطيب أن يتحدث فيه ، وليسمع من أراد من رواد المنتزه أن يسمع ؛ والأغلب أن يتحلق حول كل خطيب مجموعة من هؤلاء . الرواد - تقل أو تكثر تبعاً لموضوع الحديث - وهم إنما يتحلقون حول الخطباء تفرجاً عن أنفسهم ، وإزجاء لأوقات فراغهم ؛ ولكن إبراهيم إذ قصد إلى هايد بارك عصر ذلك اليوم ، فإنما أراد الهواء النقي ولم يرد أحاديث الخطباء ، غير أن شيئا لم يكن فى حسبانته غير وجهته . . . وأترك لإبراهيم نفسه رواية ما حدث :

» . . . استوقفنى من الخطباء منظر عجيب : خطيب من هؤلاء رأيته قائما

على منبره يخطب ولا من سميع ! لم يقف أمام الرجل إنسان واحد يستمع إليه ، ومع ذلك مضى المسكين في خطابه ، يرفع صوته ويخفضه ، ويشير يمينه تارة ويسراه طوراً ، وينحن ويستقيم ، ويضرب النضد الصغير الذى أمامه بيده ، مقبوضة مرة مبسوطة أخرى ، دنوت منه ، ووقفت إزاءه : أنظر إليه ؛ وما هو إلا أن طاف برأسي خاطر عجيب ، إذ خيل إلى أنى أنظر إلى نفسى فى مرآة ؛ وإنها لفرصة نادرة الوقوع أن تجد لنفسك مرآة تصورها لك فتهديك بعد ضلال ، فما أهون أن تنظر إلى وجهك فى مرآتك ، لتصلح ما اختلط من شعرات رأسك ، وتهذب ما هاش من شاربك ؛ لكن أنى لك مرآة تجلوا أمام ناظريك ما خفى من شعاب نفسك ، لتصلح منها ما اعوج إن كانت بذات عوج ، أو لترهى بها إن كانت قبيحة بالإعجاب ؛ ولقد رأيت فى ذلك الخطيب مرآة لنفسى ؛ وأخذت دقة الصورة تزداد فى عيني جلاء ووضحا ، فابتسمت ؛ ثم ضحكت فى نبرة مسموعة .

قال الخطيب : ما يضحكك يا صاحبي ؟

قلت : يضحكنى أننا شبهان .

قال : شبهان ؟ !

قلت : نعم ، وليس الشبه فى هيئة الجسم . . . فكلانا يبعثر فى الهواء طاقته . . . كلانا يبذل الجهد ، فيذهب الجهد أدراج الرياح .

عجيب هذا الضوء الذى تلقىه تجارب الأيام على القول المكرور المعاد ! فقد تردد العبارة الواحدة ألف مرة ، ونحسب أنك قد فهمت معناها ، لأنك عرفت معانى ألفاظها كما تشرحها القواميس ، ماذا بك تنطق بها مرة أخرى فتلمس فيها حياة نابضة لم تعدها من قبل ؛ فكأنما أشرق عليك منها معنى

جديد ، لأنها في هذه المرة كانت قطعة من حياتك وقبسا من روحك ، ولم تكن ألفاظا مرصوفة يقولها الناس فيرن صداها بين شفتيك ، فكلم رددت مع الناس قولهم « لا في العير ولا في النفير » ولم أكن أدري أنني إنما أرددها ترديد البيغافات عن غير فهم حى صحيح ، حتى قلتها منذ قريب فأحسست لها هزة تشيع في وجودى ، وأدركت أنها لم تعد مثلا يقال ، بل أصبحت جزءا من صميم الحياة ، وحدث مثل ذلك حين قلت لصاحبى الخطيب إننا نبذل الجهد ، فيذهب الجهد أدراج الرياح .

... رأيت ياخطيب الهواء سيارة أمسكها الوحل فأخذت عجلاتها تدور ، وهى في مكانها لا تتحول ؟ لو كانت هذه السياة تنطق لزعمت لك أنها طوت من الأرض فراسخ وأميالا ، لأنها تحس في حر أنفاسها حرارة الجهاد ، وتحس عجلاتها تدور ، فهيئات أن يقع في ظنها أنها تدور في غير سير إلى أمام ، إيماننا منها بأن ذلك ضد طبائع الأشياء ، وما تدرى أن هذا الوحل الذى يأذن لعجلاتنا أن تدور ثم يمك جسمها عن السير هو أيضًا من طبائع الأشياء . نحن أيها الخطيب شبهان ، كلانا أدرك الهدف وأخطأ سواء السبيل ؛ أراد لنا نحس الطالع في صباننا أن يخذعنا المعلمون - والمعلمون أحيانا ما يخذعون ، ويشرون بما لا يؤمنون - فأوصونا بأن نجعل من النجم غايتنا ، فأبت علينا الأمانة البلهاء إلا أن نكد ونكدح لنبلغ النجم ، وفاتتنا الحيلة التى يدركها الألوف إدراك البداة في غير عسرولا عناء ، وهى أن نلتمس النجم في صورته على صفحة الماء ، وأولو الأمر لا يفرقون بين النجم وصورته . فكلاهما في أعينهم لامع للألاء ، وبرك لا تقلل إننا إذ نروم النجم في سماءه تستقيم منا الظهور ، وتشرب الأعناق ، وتشمخ الأنوف ، أما إذا أردنا الصورة فلا بد

من « النخاء » ، فتلك حكمة القدماء ، والحكمة إنما تسير وسائل النقل في تطورها ، فلا ينبغي أن تكون حكمة الطائفة مثل حكمة « الحمار »
كانت تلك الأسطر بعض ما كتب إبراهيم في إحدى لحظات يأسه ، والحق أنى حين قرأتها ، تبينت فيها ما يشبه نبرات الأجدب فيها يكتبه ، وكثيرا ما يختلط على الأمر فلا أدري من منهما الكاتب لما أقرؤه ، إذ تكون النغمة نغمة أحديّة ، وأما المضمون فيوحى بجوانب أعرفها من حياة إبراهيم .

٤

إن ثلاثتنا - الأجدب وأنا وإبراهيم - لم نجتمع قط حتى الآن في مكان واحد وفي لحظة واحدة لتتفق معاً أو لنتخلف على شيء بعينه ، فكل منا منصرف في ديناه إلى ما خلقه الله له : الأجدب في مجال اهتماماته الأدبية قراءة وكتابة ، وإبراهيم في حياته العلمية دراسة وشهادات ومؤلفات ، وأنا في سعيي إلى كسب العيش والتعامل مع الناس وفق ما تواضعوا عليه من نظم وقواعد ، لا ، لم يحدث لثلاثتنا قط حتى الآن أن تم لها لقاء يجمعها ، لكن كل واحد من الثلاثة قد أصبح على وعى بوجود الزميلين الآخرين ، وما يربطها به من خيوط كانت تلك هي الصورة عندما عاد إبراهيم (هو الآن الدكتور إبراهيم الخولي) ، عاد إلى مصر واثقا من نفسه ، مؤمنا بدعوة إلى ثورة علمية في حياتنا ، تتناول منهج النظر ، فتحوله من قراءة الكتب لاستخراج الأحكام من بطونها ، إلى قراءة المشكلات الحية على « الطبيعة » لالتباس حلولها من واقعها ؛ كان إبراهيم عندما سافر في بعثته العلمية خلواً من هذين العنصرين معاً ، فلا هو على ثقة من نفسه ، ولا هو ذو دعوة محددة المعالم والأهداف .
لكنه لم يكذب يضع أصابع قدميه في ميدان العمل ، حتى نزلت عليه

اللحكات واللططات أشكالا وألوانا من هزه وسخرية وازدراء وتصغير ، وها هنا ارتد إلى طبيعته التي لازمته منذ السنوات الأولى من عمره ، وها هنا كذلك جمعته المصادفة المبصرة مع صنويه الأحذب وأنا لأول مرة ، ولم يطل بينهم إجراء التعرف بعضهم إلى بعض ، لأنهم أحسوا جميعا - وفي لحظة خاطفة - أنهم إن لم يكونوا إخوة توأم فهم كالأخوة التوأم ، يختلفون فيما بينهم اختلافا بعيدا ، لكنهم جميعا يتفقون على محاور رئيسية ، هي نفسها المحاور التي أشرت إليها الآن حين قلت عن إبراهيم إنه ارتد إلى « طبيعته » الأولى التي لازمته منذ السنوات الأولى من عمره ، والتي كان من أهم عناصرها أمران : أولها اندفاع نحو المجهول بشجاعة ظاهرة ، والثاني فرار إلى انطواء في جحره ليحتمى في ظلمته وبين جدرانه ؛ فهذان العنصران اللذان يبدوان وكأنهما نقيضان ، وهما في الحقيقة متكاملان ، وهما اللذان تجتمع عليهما طبائع الأشخاص الثلاثة ، ثم يختلفون بعد ذلك ما شاء لهم الاختلاف أن يتابعوا .

عاد إبراهيم من إنجلترا واثقا من نفسه ، مؤمنا بدعوته ، فاندفع في دنيا العمل شجاعا ، فتلقي ضربات من هوان ، فكان مسرعا بانطوائه في عزلة أو ما يشبه العزلة ، وحاول - وهو في تلك العزلة أو ما يشبهها - أن يحافظ على ثقته بنفسه وعلى نشر دعوته من وراء الجدران ؛ فلما حدث أن اجتمع بصنويه لأول مرة ، اجتمع الثلاثة جميعا على أن تكون لهم هذه الوقفة الواحدة - كل في مجاله وفي حدود كيانه - وهي الوقفة التي تحتمى في حصنها وتهاجم على الورق ، ومن هنا جاء التكامل بين التوأم الثلاثة : إذا كتب الأحذب بنبرته الحادة الساخرة ، وإذا كتب إبراهيم بتحليلاته الهادئة العلمية الموضوعية ، وإذا سلكت أنا في مسالك الحياة العملية منخرطا في قوالها وتقاليدها ، فالصور الثلاث كلها

تنطوى على جوهر واحد ، قوامه العمل على التغيير بالثورة الصامتة أو هو المهاجمة من أبراج القلاع التى يلفها الضباب ، بما يشبه ما تصنعه القبرة التى أنشد لها الشاعر « شلى » فقال عن تغريدها الذى يسمع وكأنه آت من وراء الحجب ، إنه يسمع من مصدر مجهول لا تراه الأبصار ، أو قل إن الجوهر الذى نلتقى عنده ثلاثتنا ، هو كحقيقة البحر المحيط عندما يسكن ماؤه ولا يحتاج بموجة القوى الخفيف ، فإن ليونة الماء وسيولتها - عندئذ - تغرى حتى الأطفال باللعب بها واللعب على ظهرها وعند أطرافها ، فهم لا يرون ما وراء ذلك الضعف البادى ، من قوة يدأب بها البحر المحيط - حتى فى سكونه - على إذابة الحديد وتفتيت الجلاميد .

عاد الدكتور إبراهيم الخولى من إنجلترا واثقاً بنفسه مؤمناً بالدور الذى يعترزم القيام به ؛ لكنه وجد نفسه محاطاً بجماعة من أصحاب النفوس الفقيرة ، التى تعرض خواءها الداخلى بقتل من يصادفها فى الطريق ممثلة بدفعة الحياة ؛ إنها نفوس عاجزة ويعزبها عن عجزها أن ترى العجز فى الآخرين ؛ إلا أن للفقر صوراً شتى : فمنها اليباب القفر الذى تلتهب رماله بوقدة الشمس ، ومنها الصخر الأجرد الذى صلد صدره وتصلبت أطرافه ، ومنها السماء لا تجود بالغيث ، ومنها الوردة تذبل وتذوى ، ومنها الجيوب تخلو من المال . . . لكن لا اليباب القفر ، ولا الصخر الأجرد ، ولا السماء اليابسة ، ولا الوردة الذابلة ، ولا الجدول غيض ماؤه ، ولا الجيوب الخالية من المال ، بمستطاعة أن تصور الفقر بأقوى مما تصوره النفوس الفقيرة ؛ ولقد وجد إبراهيم نفسه محوطاً بزمرة من تلك النفوس التى لا تملك الخنوصية لئام الزرع فتفتك بكل زرع تراه نامياً ، وهى نفوس جماعة من الكبار الصغار : كبار الأجسام والأعمار صغار الهمة

صغار الأحلام ؛ أقصى قدراتهم أن يصنعوا صنيع التلاميذ في استذكار دروسهم كما هي مكتوبة في دفاتر ، فكذلك هؤلاء العاجزون : أقصى ما يطمحون إليه أن تعبث أفهامهم المحدودة بأسطر يقرأونها قراءة العاجزين ويدركون مراميها إدراك العاجزين وهؤلاء هم الذين أحاطوا بإبراهيم وضجوا حوله بالطين ، ولما كان من طبيعة إبراهيم منذ أول نشأته تلك الحساسية الشديدة التي تدفعه أمام ندالة النذل وجهالة الجاهل وعدوان المعتدى ، أن يسرع فينطوى ، على أن يضرب بسهامه من وراء الجدران ، كان ذلك هو الذى حدث له بعد عودته بقليل ، وربما استمر معه حتى يومه الراهن .

وكانت تلك السهام من إبراهيم إلى أعدائه ومنافسيه ، حجاجاً عقلياً يدور كله نحو ترسيخ النظرة العلمية في كل ما ليس متصل بالذات ووجدانها ، والهدف النهائى من معركته مع معارضيه هو الدعوة إلى بعث جديد في الفكر العربى ، لا يتاح له أن يتحقق إلا باصطناع منطق جديد ومنهج جديد .

٥

أما هنا فلنوجه أنظارنا نحو الأحذب صاحب الوجدان الملتهب ، لنرى ماذا كان يكتب ، وكيف كان يحيا ، فى الوقت نفسه الذى كان صنوه إبراهيم يقاتل من يقاتله فى مجال الفكر العلمى .

الهدف البعيد للتوائم الثلاثة - كل فى ميدانه وبأسلوب حياته - هو الإسهام فيما يودى بمصر خاصة ، وبالوطن العربى كله عامة ، إلى بعث جديد نواكب به العصر وفكره وحضارته ؛ فإذا كان الدكتور إبراهيم الخولى بحكم دراسته قد تصدى لنصرة العقل ومنهجه ، فقد كان نصيب رياض عطا (الأحذب) بحكم عاطفته الحادة وحساسيته المزهفة ، هو التصدى لنصرة الضعيف المحروم ؛

وكان سلاحه في ذلك أن يعيش هو نفسه عيش الضعف والحرمان ، حتى ولو توافرت له أسباب القوة والمتاع ، لأن ذلك من شأنه تغذية القلم بمداده إذا كتب .

وكذلك مما يميز الأحذب من إبراهيم ، أن إبراهيم إذا جاءه النقد أو جاءته إهانة أو استهانة من آخرين ، فإن المرجح لشخصيته أن ينظر إلى الأمر بينه وبين نفسه بشيء من الإنصاف ، ليرى إذا كان الآخرون على حق فيما قالوه أو فعلوه أو كانوا على باطل ، وأما الأحذب فإذا أودى كان الأرجح عنده أن يتوجه إلى نفسه باللوم والتقريع ، اعتباراً منه بأن نفسه تلك لابد أن تكون معيبة على النحو الذي أوحى للآخرين بما أوحى من ضروب الإيذاء ، إنه نوع من الرغبة الدفينة في نفس الإنسان يريد أن يتزل على نفسه العذاب والألم ، وهي رغبة تتفاوت عند الناس ضعفا وقوة ، ويبدو أن للأحذب منها نصيباً موفوراً .

« . . . هذه هي نفسى أضعها أمامك عارية . . لن أستحي من مكنونها وخبيثها مهما يكن خبيثاً ؛ فكل الناس هذا الخبيث - لكنه الرياء يستروني . . رأيت ظهر اليوم غلاماً أمام الدار يلعب « بالنحلة » فيلف طرف الخيط حول نخلته الخشبية ، ثم يقذف بها ، فتدور النحلة على سنّها فوق بلاط الإفريز دوراناً شديداً ، لكن الغلام يخشى على دورانها الفتور والضعف ، فيظل يضربها بعذبة سوطه ضرباً متلاحقاً ، حتى تدور ولا تكف عن الدوران ، وعدت إلى مجلس من الدار ، فما هي إلا أن تتروى بنفسى الخواطر المثيرة ، إذ صوّرت لنفسى فلاناً وقد قذف بي على الأرض قذف الغلام لنخلته ، وراح يلهني بعذبات سياطه حتى أدور ولا أكف عن الدوران لنفعه هو ولا عليه بعد ذلك أن أتعب وأدوخ . . . إنني تلك النحلة الدائرة لمتعة اللاعبين ، أضرب بالسياط لثلاث

أكف . . . أطلقت خواطرى متلاحقة سوداء قائمة ، كأنها أسراب الغربان تحوم في الهواء . . . رأيت الناس معذبًا بعضهم بعضا ؛ كذب ونفاق هذا الذى يكتبونه في الكتب ، ويعظون به في المحافل ، من أن الإنسان يريد لنفسه ولغيره الراحة والخير . . . وخطر لى خاطر عجيب ، وهو أن أمزق كتبنا عندى تمتلئ صفحاتها بمثل هذا الكذب . . . » .

كان شعور الأحذب بالعزلة موحشًا في كثير من الأحيان ، حتى ليحس كأنما هو وحده مهما يكن حوله من كثافة الزحام ، ومن يلحظ نفوره من الناس - ونفور الناس منه أحيانًا تبعًا لذلك - ثم من يتعقب كتاباته ، يقع على إشارات كثيرة تشير إلى بعض الأسباب التى أدت به إلى ذلك ، وهى أسباب يرجع بعضها إلى أيام الطفولة الباكرة ، لكن بعضها الآخر يشير إلى أحداث وقعت له على امتداد سيرة حياته ، ، وفيما يلى أسطر مقتبسة من مقالة كتبها ، وأرسل نفسه فيها على سجيته ، وتتبع خواطره في مجرى شعوره الباطنى كما وردت ، لا يربطها إلا الروابط التى تصل الأجزاء المتتابعة في أحلام اليقظة ، قال :
« . . . لقد حز في نفسى أن يكلمنى «ع» وهو يركب السيارة كأنما هو

يخاطب حفنة من هواء . . . لماذا لم أحسم الأمر حين ازورت بوجهها أول مرة ؟ أقسمت لى أنها لا تضمر السوء ، وَصَدَّقْتُهَا . . . كنت أخشى دائما أن أسىء إليها ، فكيلت لى الإساءة لطمات بعد لطمات كانت غاية في الرشاقة حينما رأيتهَا ، لماذا خفق قلبى لها وما كان ينبغى له أن يفعل ؟ يابنى لا تتحدث حديث القلب ، فهذه لغة الشباب ولم تعد شابا ، ألا ما أشد غرورها ؛ ليتنى أجد الشجاعة عندى فأسىء إلى من يسيئون إلىّ بمثل ما أساءوا . . . كانت نغمة كلامها في التليفون أخاذاة ، لكنها إبليس في صورة البشر ؛ إنها الشر كله في

صورة إنسان ؛ إني لأعجب كيف يكون هذا الشر كله في هذه الرقة كلها . آه لو رددت الإساءة بإساءة مثلها ، إذن لما عانيت شيئا من لدغ الضمير الذى يؤرقنى ويعذبنى . . حسبونى أبله ساذجا ، هم مخطئون ؛ لئن أكن قد أمسكت عن الردود الصحيحة فى المواقف المختلفة ، فإذاك إلا حياء ؛ لم يكن بلاهة ولا سذاجة ؛ إن الماضى لا يعود ، وجرحك سيظل إلى موتك دائما . . . » .

قلت لنفسى وأنا أقرأ للأحذب هذه المقالات : هذان - إذن - عاملان أثارا فى المسكين كوا من نفسه ، فألحقا به من الإحساس بالصغر ما كانت نشأته قد هيأت له الجود والتربة ، فما على الظروف بعدئذ إلا أن تلقى ببذرة فتنمو فى نفسه وتورق بين يوم وليلة ، وهذه هى الظروف قد ألقت بذرتين لا بذرة واحدة ، فلا أرباب القلم الذين قبلوه كاتباً قد أكرموه إنسانا ، ولا هذه الفتاة التى يشير إليها والتى قد قبلته إنسانا قد قبلته رجلا . .

لقد راجعت بنفسى كثيرا جدًّا مما كتبه الأحذب ، لعل أقع على بينات تكشف عما يتعلق به اهتمامه ويحفزه وبثيره ، وأحسب أن فكرة « العدل » ربما جاءت عنده فى المقام الأول ، أو قل إنه لا يسبقها فى رأيه إلا « الحرية » ، فهذا الرجل المتزوى فى ركن معتم ، والمتطوى على نفسه انطواء يوشك أن يغلق كل نافذة قد تصله بالضوء والهواء ، يثور ثورة عارمة إذا ما مسه - أو مس أحدا يقع فى دائرة اهتمامه - شئ من الغبن ، كأنما هو يتوقع من البشر أن ينصبوا موازين لا يفلت من دقتها مثقال ذرة ؛ ولما كان الإجحاف فى حياتنا الجارية أمرا مألوفا وشائبا ، حتى تستطيع أن تعده جزءا من كيانتنا الاجتماعى ، فالظالم لا يكاد يحس أنه ظالم ، والمظلوم يعلم مقدما أنه سيصبح مظلوما بين كل عشية

وضحاها ، أقول إنه لما كان هذا يشبه أن يكون جزءاً من نسيج حياتنا ، رأيت الأحذب يتعرض لانفعالاته الحادة كل يوم ، ولا يعرف قلمه كيف يكتب إلا أن يكشف عن هذه الثقوب والعيوب التي لا تغمض العين لحظة إلا لتفتتح على ثقب هنا وعب هناك .

على أن جانباً معيناً من جوانب الظلم الذى يكتنف حياتنا ، يشغل باله أكثر من سواه بدرجة ملحوظة ، ألا وهو قسمة الحظوظ فى دينا المثقفين عندنا ، فالمشهد كما يراه الأحذب هو أن الريادة الثقافية تتناسب تناسباً عكسياً مع الإنتاج الثقافى ، فإذا كان الإنتاج صفراً عند زيد كان مرجعاً أن يكون هو الكاهن الأعلى ، وإذا كان الإنتاج متلاحقاً وغزيراً عند عمرو ، فالأغلب أن يوضع عمرو بين « الأنفار » و « الفعلة » يؤمر ولا يأمر ، وبين تلك القمة الصفرية العليا ، وهذه القاعدة السفلى من الفاعلين العاملين ، يتدرج المثقفون درجات على الأساس السابق نفسه ، وإنى لأبيع لنفسى أن أضع بين يدى القارئ قطعة أدبية كتبها الأحذب فى هذا المعنى ، وعنوانها « قرصنة فى بحر الثقافة » لأنى أراها رائعة من روائعه :

لم أكد أصدق سمعى ، حين أخذ صديقى عالم الآثار المصرية يقرأ لى نصاً قديماً من لفائفه البردية ، كتبه كاتبه فيما يقرب من القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ليصف به حياة الثقافة والمثقفين فى عصره ، وصفاً لو أزلت منه أسماء الأعلام ومعالم الأحداث ، لتضع مكانها أسماء المعاصرين وأحداثهم ، لظننته قد كتب عن عصرنا الراهن هذا بعلمائه وأدبائه ، نعم ، لم أكد أصدق سمعى - لأننى وقد كنت أعلم أن خصائص الشعوب تخرق حجاب الزمن ، فتصل حاضر الشعب بماضيه - لم أكن أعلم ، مع ذلك ، أن هذه الخصائص العنيدة

المكافحة في سبيل بقائها تمتد رقعتها وتتسع لتشمل صفات كنت أحسبها من التوفاه التي تظهر وتمتحن مرهونة بظروفها ؛ فليس عجيباً أن يحىء الأحفاد أشباهاً لأجدادهم في احتفالات الميلاد وفي شعائر الموت ، لأن هذه أمور موصولة بشرايين الحياة نفسها ؛ أما أن يتشابه أولئك بهؤلاء في الطرق التي يتخاطف بها العلماء والأدباء ثمرات جهودهم ، بحيث يكون الحاصدون أناساً غير الزارعين ، فذلك حقاً هو موضع العجب ؛ لأنه من التوفاه التي لم يكن ليجدر بالزمن الوقور الجليل ، أن يحفظها ويصونها لتنتقل على ظهور الأجيال من الجد إلى الحفيد .

وكاتب البردية التي أخذ صديقي عالم الآثار يفك لي رموزها ، هو كاهن من معبد آمون في مدينة طيبة ، والظاهر أنه كان ذا مكانة مرموقة بين كهنة المعبد ، لأنه يتحدث حديث الواصل بنفسه ، تسرى في كلماته رنة العظماء حين يتحدثون إلى من يصغرونهم منزلة وقدرًا ، اسمه - فيما أذكر - حريحور أو ما يجري مجرى هذا الاسم في الوزن والنغمة ؛ وقد بدأ رسالته هذه بذكر المكان الذي خطها فيه ، فإذا هو قد كتبها في مركب ألق به من طيبة إلى مصر السفلى ، إذ هو في طريقه إلى البحر الكبير ، قاصداً إلى بيلوس على الشاطئ اللبناني ، في مهمة لم يفصح عنها .

أخذ الكاتب يدون تفصيلات من حياته اليومية : ماذا كان يأكل وأين ترسو به السفينة ، وكيف يعترك النوبة أنا ويسمرون في صفاء آنا ، ثم انتقل إلى تسجيل ما أراد تسجيله ليروي لنا عن معركة كلامية دارت بينه وبين كاتب قليل الشأن ، كان لا يزال من السلم الكهنوتي في أدنى درجاته ، ومع ذلك اجتراً هذا الصغير على مجادلة حريحور الذي كان يعلوه في مراتب الكهنة بدرجات كثيرة .

فى أمسية مقمرة من أماسى طيبة الجميلة فى شهر يقع فى مستهل الصيف ، كان حريحور - وهو كاتب البردية يروى فيها عن نفسه - جالساً فى بهو مكشوف من أبهاء المعبد ، وإذا بشيخ إنسانى يقترب منه فى سكون خاشع ، حتى إذا ما واجهه استأذن فى الجلوس لأن عنده أمراً يريد أن ينفضه عن نفسه ليستريح ؛ وما هو إلا أن أشار له الكاهن الشيخ ليأذن بجلوسه ، وينحنى تجاهه انحناء خفيفة لسمع ، فطلق الكاهن الشاب - ولم يذكر اسمه من أول البردية إلى آخرها ، مكتفياً بالإشارة إليه إشارات لا تخلو من معانى التصغير والتحقير - طلق الكاهن الشاب ، فى لعنة أول الأمر وفى طلاقة بعد ذلك ، طفق يشكو من أن حريحور قد نسب إلى نفسه قصيدة من الشعر ، وتلاها على ملأ من الناس وكأنها من صنعه ، فلم يشأ الشاب - وهو ناظم القصيدة الأصيل - لم يشأ أن يعترضه أمام الناس ، وهاهو ذا قد جاء إليه ليطلب منه أن يصحح للناس هذا الخطأ ، وهو خطأ لا بد أن يكون قد وقع سهواً من الكاهن العظيم .

ويروى لنا حريحور كيف صقع لهذه الجراءة النادرة من صغير مغمور يواجه بها عظيماً مشهوراً ؛ وحاول أن يفهمه بأن الملكية فى ثمار الفكر هى للجماعة لا للفرد ، على أن يظفر بفوائدها أطول الناس ذراعاً وأجهرهم صوتاً وأرفعهم منبراً ؛ فأقل شىء فى مجال الفكر هو أن تخلق الفكرة وتبدعها ، أما الأهمية كلها فإنما تكون لمن استطاع أن ينشرها ويذيعها : هب أنك يابنى قد تركت لقصيدتك . لا تجد اللسان البليغ الذى ينشدها ويذيعها : فما قيمتك عندئذ وما قيمة قصيدتك هذه ؟ وهنا أراد الكاهن الشاب أن يقول شيئاً ، لكن الكاهن العظيم قد ضاق به صدرًا فنهرو وطرده من المعبد .

ولقد بدأ حرمحور في برديته بذكر هذه الحادثة ، لا لأن لها عنده خطراً في ذاتها ، بل ليستهل بها حديثاً يريد أن يثبته ، لعله يرسى به للأجيال القادمة أصولاً ومبادئ تكون هي العباد كلها أشكال عليهم أمر في أخلاقية العلم والأدب .

ففي شريعتنا - هكذا كتب حرمحور - لا تقتصر البلاغة على الكلام المنطوق ، بل هي صفة تصف الصمت قبل أن تصف الكلام ، فالصمت عندنا أبلغ وأفصح ؛ لكن الصامت البليغ ليس هو كل صامت ، وإلا لجاز أن نصف بالبلاغة جلاميد الصخر وسم الجبال ، وإنما تكون البلاغة للصمت عند وجهاء القوم وعظماهم دون السفلة منهم والسوقة والرعاع ، فاظفر لنفسك أولاً بمقعد كبير وثير ، تحيط به الحاشية الخادمة المطيعة ، قبل أن يحل لك أن تسلك في زمرة أصحاب الصمت البليغ ، وينتج عن هذا المبدأ الأول مبدأ ثان ، وهو أن الأديب لا يشترط فيه أن يقول أدباً أو أن يكتب أدباً ، لأن شريعتنا تعطى الصدارة في دنيا الأدب لمن كسب لنفسه البلاغة الصامته ، فلا يسأل أديب عن أدبه إلا إذا كان أديباً ناشئاً صغيراً ، أما ذو الجاه العظيم فهو أديب بسحته وملاحه وطريقة قيامه وقعوده ، وهاكم تاريخنا الأدبي كله شاهداً على صدق ما أزعم ، فكلما علا الأديب وصعد ، قل إنتاجه حتى إذا بلغ قمة المجد كان إنتاجه صفراً ، وسر في هذا المنطق إلى نهايته ، تجد أن العلو والصعود - كمحروش الأباطرة والملوك - قد تجيء أصحابها بالورثة لا ببذل الجهود ، فحين يكون الأديب - في ملتنا - أديباً أصيلاً عريقاً ، نغفيه من قول الأدب وكتابته ، فلغيره من الصغار العاملين أن يكتب وأن يقول ، وله هو الريادة والقيادة ، فأنى له بطول الزمن الذي يسع أن ينتج الأدب وأن يرود ويقود في آن معاً ؟ إنه إما هذه وإما تلك ، ولا جمع بين الضدين في أمثال هذه الأمور .

إن هذا الكاهن الصغير حين اجتراً على بيذاته في سكون المعبد وجلاله ،
وقد فاته ما قد خطته الأقدار للناس من حظوظ ، فللمرضى عليهم أن يعيشوا في
رفعة ونعيم ، وأما المغضوب عليهم فلزام أن يعملوا كادحين ؛ وهذا مبدأ حكيم
مهما اختلف مجال التطبيق ، فإذا كان فلاح الأرض يزرعها وصاحب السيادة
يأكل الزرع ، فكذلك على صغار الناس في دنيا الفكر والأدب أن يكتبوا
وينظموا ، ليكون الحصاد من نصيب الكبار ، تلك هي عدالة السماء التي
لا تنحرف عن الجادة ولا تجور .

وهنا يستقل حرمحور ليضرب المثل بالتجارة والقرصنة ، قائلاً في يقين من
لا تخالجه خلجة شك واحدة ، إن التجار هم الذين يجوبون البحار بتجارهم
التي اشتروها بالمال ، وأرادوا من وراثتها الربح بالكد والكدح والعرق ، لكن
فوق هذه الطبقة طبقة أعلى وأرفع - إذا قيس الأوضاع بمقاييس السماء
العادلة - وأعنى فئة القراصنة ، الذين لا يطلب منهم إلا شيء من مهارة وبراعة ،
فيعلمون كيف يياغتون وآين ؛ لتكون ثروات التجار من نصيبهم هم حقاً
مشروعاً حلالاً ، ويتعجب حرمحور ممن يأنفون من تطبيق أصل القرصنة ومبادئها
على دنيا الفكر والثقافة ؛ فإذا يمنع أن تفكر أنت وأسعد أنا ؟ ماذا يمنع أن تشق
أنت وأنعم أنا ؟ ماذا يمنع أن تهبي أنت الطعام لآكل أنا ؟ تلك هي سنة الله في
خلقه ، لا فرق عندها بين زراعة وتجارة وثقافة ؛ أليست الأرض مليئة بمن
يعملون ولا يأكلون ، وإلى جوارهم من يأكلون ولا يعملون ؟ إذن فهذه قسمة
واجبة معقولة ، كائناً من كان العاملون والآكلون .

إلا أنها لبدعة وضلالة من هؤلاء الصغار أن يستنوا للأشياء طبائع غير

ما أراد لها الله من طبائع ؛ هي بدعة وضلالة ينبغي وأدها في مهدها قبل أن يستفحل أمرها ، وتلك هي أن يظن الكاتب أو العالم أو الفنان أن ثمرة جهده عائدة عليه بجاه وسلطان ! من هو الفنان الذى نحت في الجبل هيكلًا وشاد فوق الأرض معبدًا ؟ من هو النحات الذى نحت التماثيل وأقام المسلات ؟ من هو الكاتب الذى أنشأ كتاب الموتى ؟ من هو العالم الذى حسب الحساب بأرقامه عندما شيد الهرم ؟ هل سمع بأسمائهم أحد ؟ لكن الأسماء المسموعة هي أسماء الملوك والأمراء الذين من أجلهم أقيمت الهياكل والمعابد ، ونصبت المسلات ، ونحت التماثيل ؛ فن ذا الذى خدع ذلك الكاهن الشاعر ، فأوهمه بأنه مادام هو الذى نظم الشعر فن حقه أن ينم هو بالمرّة والعائد ؟ إن قسمته في اللوح المحفوظ هي أن ينظم الشعر ، وقسمتنا نحن القادة الرواد هي أن نوجهه كيف شئنا ، وأن نضعه أين شئنا ، وأن تكون القطوف نصيبنا ؛ لقد خرجت الفراشة الجميلة المزهوة بألوانها وزخارفها من دودة حقيرة ، فهل يحق لهذه الدودة أن تقاسم الفراشة زينتها وزخرفها ؟

إن هؤلاء العاملين الصغار عليهم تحميل السفن بأنقالها ، ولنا نحن الكبار حق القرصنة لنأخذ الأحمال معبأة بمجهزة ؛ وبالقرصنة - لا بالتجارة - بنيت دول وأقيمت عروش ؛ نحن الغزاة الفاتحون وهم الأسلاب ؛ فهل سمعتم بغزاة يقولون ويفاضون ويقاسمون بالقسطاس ؟ ألا ترون الغزاة ينقضون على الفرائس انقضاضًا ، فتكون لهم الغنيمة ، وللغرائس الذل والهزيمة ؟ إن ثمرات التين الناضجة لها الحلوة كلها ، صنعت لها ولم تصنعها لنفسها ؛ صنعتها لها الجذور والجلودع والأوراق والفروع ، فهل نقول في نهاية الأمر إنها حلوة التين ، أو ترانا ننسب الحلوة إلى صانعيها ؟ ألا فليعلم هؤلاء الصغار أن الكتاب

يكتبون والملوك يوقعون ، وتلك هي الحياة كما أراد الله أن تكون على الكوكب الأرضي ، فعلى الناقلين الثائرين أن يرحلوا - إذا استطاعوا - إلى كوكب غير هذا الكوكب ، ليلتمسوا لأنفسهم أوضاعاً جديدة ترتب على أساس الجهد المبذول ، لا على أساس الأبهة ذات الطنين .

لقد أكثرت من كلمة « الصغار » وأخشى أن ينصرف اللفظ إلى صغار العمر ، بحيث يظن أن القسمة في شريعتنا هي قسمة بين صغار الأعمار وكبارها ؛ فقد أردت بالصغار صغار الوزن والحيز ، إذ قد تكون صغير السن لكنك ذو حيز ضخم ووزن ثقيل ، كما قد تكون كبير السن لكنك خفيف تافه ضئيل .

فلما بلغ صديقي عالم الآثار من برديته هذا المدى ، وجدها مهراً محترمة مطموسة المعالم بفعل الزمن ؛ فأخذ يلفها بسبابتيه في رفق ، إلى أن ظهر منها جزء آخر تسهل قراءته ، فاستأنف القراءة ، فإذا الكاتب قد دخل في روايات يروىها عن أشخاص عرفهم أو سمع عنهم ، ليؤيد بأخبارهم صدق مبادئه ؛ فكم من عامل مرهق ذهبت جهوده عرقاً على جبينه ، وتيجاناً على جباه الآخرين ، وكم من رجل جاءه المجد منحة سماوية لم ييذل في سبيله ساعة من عمل .

أخذ حريحور في برديته يروى عن مجلس الكهنوت في مدينته طيبة ، ويستعرض تواريخ أعضائه ، ليطمئن إلى سلامة حكمه وسداد حكمته ؛ فهذا عضو من أبرز أعضائه منزلة وأعلامه مكانة ، ماذا عنده إلا مقدرته الفائقة في اختيار أماكن الجلوس كلما أقيم للناس حفل في هيكل أو معبد ؟ إنه يحمي إلى المكان مبكراً ، ويقف عند الباب لحظة ، يتلفت فيها بمنة ويسرة وإلى أمام ، ومجلسه الصادق يعرف أين مكان الكاهن الأعظم ليختار هو أقرب المقاعد إلى

حضرتة ونظرتة ، بحيث يصبح على يقين من أن نظرة واحدة من نظرات الكاهن الأعظم لن تضيع عليه سدى ، وأن الكاهن الأعظم ليعجبه من رعيته مثل هذه البصيرة النافذة والاختيار المتروى ، فهل يسهه عند تعيين الحاشية إلا أن يجعل صاحبنا هذا فى مقدمة التابعين ، فما إن يجلس على كرسى الحاشية حتى تتلخع عليه أردية العلم والفقه ، علم الدنيا وفقه الدين ، وإن حرمحور ليروى عن صاحبه هذا ليبين للناس صدق الحكمة القائلة إن المرء حيث يضع نفسه ؛ يضع نفسك على مقاعد الرئاسة تكن رئيساً ، وعلى مقاعد العلماء تكن عليمًا ، وعلى مقاعد الأدباء تكن أديبًا ؛ فهل شهدتم حقيقة أوضح من هذه الحقيقة وأجلى ؟ ولست أدري لماذا لم يذكر لنا حرمحور اسم صاحبه ذاك ، أو لعله قد ذكره فى الجزء الذى أصابه الزمن بالطمس والحو ، وأقول ذلك لأنه انتقل فى حديثه إلى الرواية عن عضو آخر فى مجلس الكهنوت ، قال إن اسمه أمينتون سلك طريقه إلى المجلس عن طريق المريدين والأتباع ؛ فالطريقة هنا هى عكس الطريقة الأولى ، كانت الطريقة الأولى هى أن تختار لنفسك أن تكون تابعاً ، وكل ما فى الأمر أن تحسن اختيار الرائد المتبوع : أما هذه الطريقة الثانية فهى أن تختار لنفسك أن تكون رائداً متبوعاً ، ثم تعرف كيف تجمع حولك الأتباع ؛ لأنه إذا كثر الأتباع وازدحموا وملأوا الهواء بضجيجهم ، كانت الحصيلة المؤكدة المحتومة ، هى أن يقول الكاهن الأعظم لنفسه : إن لهذا الرجل لقدراً عظيماً فى دنيا الفكر والأدب والعلم والفن ، فهاتوه فى مجلسنا عضواً ليشرف المجلس بوجوده .

وينتقل بالرواية إلى عضو ثالث ، يقول إن اسمه جبحوت ، قد سلك إلى المجلس طريقاً ثالثاً ، فلا هو اتبع أحداً ولا استتبع أحداً ، إنما طريقته أشبه

ما تكون بعالم السيمياء الذى يحيل النحاس ذهباً ، فلا تدرى كيف يغرى صغار الكتاب بأن يقدموا إليه أعمالهم ليهديهم فى أمرها سبيل الصواب ، فتقع عيناه الماهرتان المدربتان على ما يصلح من هذه الأعمال للصهر فى معمله ، فتراه يخفيها عن أصحابها فى جب معتم ، ويماطل أصحابها ويماطل ، ثم يفعل النسيان فعله ، فإذا هو يخرجها من محابسها لينشرها فى الناس ملكاً له حلالاً ، ولست أرى فى ذلك شيئاً من الظلم على أحد ، لأن العبرة بمن استطاع أن يطالع الناس فى نور الشمس ، لا بمن أخفى عمله فى ستر الظلام .

وعلى ذكر الظلام وستره نقول : إن القراصنة لم يكونوا دائماً ممن يباغتون السفن فى وضوح النهار ، بل منهم - ولعل هؤلاء أعتاهم - من يفضلون التسلل إلى مدن الشواطئ فى عتمة الليل ، ينهبون ويأسرون ، ويخرجون بالغنائم والسبايا ، وما يزال الليل « منشور الدواب » ، وعندنا فى مدينة طيبة ، ومن أعضاء مجلس الكهنوت أنفسهم ، قراصنة الليل وقراصنة النهار ، كل فى مجال تخصصه يحول ويصول .

ويعضى حرمحور فى برديته مصوراً للماذج القراصنة فى بحر الثقافة على عهده ، فيلفت أنظارنا إلى قرصان يأبى عليه ضميره الحى أن يبقى السلعة المنهوبة على شكلها ، لأنه يرى فى ذلك خروجاً على مبادئ الأخلاق ، فتراه يعمد إلى تشويهها لتختفى ملامحها ، كلها أو بعضها ، لعل ذلك أن يكون له شفيعاً ، وأعسر مشكلة تصادف هذه الطائفة المهذبة من القراصنة ، أن السلعة المنهوبة المراد تغييرها ، كثيراً ما تكون مفرطة فى حيويتها ، حتى لتراها كلما مسها إزميل التشويه ، اختلجت يد القرصان العامل فيها بإزميله ، وطفقت تنتفض هنا وتتلوى هناك ، حتى يتركها قرصانها وعلى جسدها ملامحها الأولى ، يعرفها بها

أصدقائها القدامى إذا ما صادفتهم في بعض الطريق .

على أن أبرع القراصنة جميعًا في دنيا الفكر والأدب ، جماعة شأنها عجب من عجب ، لأن الواحد منها لا يجاهد ولا يسعى ، إن له طريقة عجيبة في اصطناع السحنة التي تشع هبة ووقارًا ؛ إنه لا يمالئ أحدًا ولا يدع أحدًا يمالئه ، إنه لا ينهب شيئًا من ير أو من بحر ؛ إنه في جلسته الوقورة الهادئة ، أو في مشيته البطيئة الثابتة ، أو في نبرات حديثه الواضحة المتأنية ، يجذب الأضواء ويعكسها رائعة وضاحية ؛ كما يتلقى القمر ضوء الشمس فيعكسه ، فيروع الناس بهيماله ، هل يجوز لأحد أن ينكر على القمر روعة ضيائه لكون هذا الضياء منعكسًا على سطحه الظاهر ، وليس منبثقًا من فطرته وطويته ! كذلك قل في هذا النوع الجليل من قراصنة الفكر والأدب ؛ لا يجرو مجترى أن يسأل عنهم ماذا قدمت للناس رءوسهم وبأى شيء جرت أقدامهم ؛ وإذا سأل سائل مثل هذا السؤال عن أحدهم ، كان هو الحقيق عند القوم باللعنة ؛ وإن هذه الطائفة من القراصنة غالبًا ما تكون لهم الريادة والقيادة ، مؤهلهم الوقار الجاد ، وشهادتهم الرصانة الرزينة ، ولا عجب - إذن - أن يكون معظم أعضاء المجلس الكهنوتي في طيبة من هذا الصنف النفيس .

ومرة أخرى بلغ صديقي عالم الآثار من برديته موضعًا نال منه الزمن بالبلى ، فهتكت فيه الأسطر وعجيت الكلمات ؛ فنظر إلى صديقي ونظرت إليه ، وتوقع كل منا أن يسمع من زميله شيئًا ، ودام هذا الصمت المتعجب لحظة ، لفظت أنا بعدها زفرة المبهوت لما سمع ، فسألني صديقي : ماذا ترى ؟ فقلت : ما أراك إلا رامزًا أوضح الرمز بماض غابر إلى حاضر مشهود .

لم يكن الثلاثة - الأحذب وإبراهيم وأنا - إخوة ولا أولاد عم وخال ، فليس بين أى منهم والصنوين الآخرين من التشابه بقدر ما بينه وبينهما من الاختلاف ؛ ولكنهم برغم ذلك - كما أسلفت القول عنهم مرارًا - متواصلون مترابطون على نحو حيوى عجيب ؛ فقل إن شئت إنه نوع من التكامل ، بحيث تتألف من ثلاثتهم وحدة واحدة كان يمكن أن تتوافر للفرد الواحد لو أنه جاء ثلاثتهم وحدة واحدة كان يمكن أن تتوافر للفرد الواحد لو أنه جاء فردا مترن الفطرة والسلوك ؛ فالأحذب هو « الطبيعة » أو هو « الحيوان » من الكيان البشرى ؛ هو الجهاز الفطرى من الإنسان ، الذى لولاه لما وجد الأساس الذى يقام عليه الإنسان بعد تحضر وتهذيب ، ومن هنا جاءت قوته وكان ضعفه فى آن معا ، فيه قوة الطبيعة وفيه ضعف البدائية ؛ إنه كائن منفعل أكثر منه كائنا مفكرا ؛ وأما إبراهيم فهو العقل الدارس الذى لا يكاد يتميز بخاصة تجعل منه إنسانا بغير شبيه ؛ لأن كل عقل دارس هو ككل عقل دارس ، مادام موضوع الدراسة معينا محددًا ؛ حتى لو كان لإبراهيم رأيه الخاص فى مجال دراسته ، فهى خصوصية كان يمكن أن يتميز بها رجل من الهند أو رجل من البرازيل ؛ لأنها ليست هى الخصوصية التى تنبع من الروح وهو مرسل على سجيته ؛ ولذلك فلا يحدث قط أن يكون إبراهيم هذا أو من يماثلونه من سائر البشر الدارسين دراسة علمية موضوعية ، موضعا لحب الآخرين أو موضعا لسخطهم ؛ فقد يوافق الآخرون على موقفه العلمى وقد لا يوافقون ، لكن الأمر على كلتا الحالتين لا يقتضى حبا أو كراهية ، ولا كذلك الأحذب ومن يماثلونه ممن يحبون حياة العاطفة ، فهانئا تكون الخصوصية المميزة حقا ، وهانئا يقف الآخرون من

صاحب تلك العاطفة وميوها ، مواقف الحب والكراهية والرضى والسخط والطمأنينة والغضب .

وأما أنا - فوزى الراوى - فأتميز دون الآخرين بسهولة الانخراط فى قوالب المجتمع بكل ما فيه من عرف وتقليد ومجاملة وصداقة وزواج ومواطنة وانتماء فقد يكون لدى شىء من عاطفة الأحذب ، دون أن تفصل تلك العاطفة بينى وبين سائر الناس ؛ كما قد يكون لدى شىء من عقلانية إبراهيم . ولكنها عقلانية لا ينشأ عنها اعتزال وانفراد .

لم تكن هذه الفواصل بين ثلاثتنا واضحة عندما كنا صغارا - وهذا القول هو من قبيل الافتراض المحض ، لأننا لم نستطع أن نعود بذكرياتنا إلى قيام علاقة بيننا ونحن فى سن الطفولة ، بل إنها علاقة لم نستطع تبيينها فى مرحلة المراهقة وأول الشباب - ويبدو أنها فواصل أخذت فى النشأة والظهور منذ بدأنا التعرف بعضنا على بعض ، وهى الفترة التى بدأنا فيها حياتنا العملية ، وبلغت أوضح حالاتها منذ ظهر الأحذب كاتباً ، وسافر إبراهيم فى بعثته الدراسية .

كان يسيراً على أن أكون الصداقة مع من يتجانسون معى فى ناحية أو أخرى من نواحي الحياة ؛ ولقد مرت خلال حياتى الناضجة بمجموعتين من الأصدقاء ؛ كانت الأولى مكونة من زملاء الدراسة ، وجاءت الثانية بعد ذلك بنحو عشرين عاماً ، ويربط بين أفرادها نوع من التقارب الفكرى ؛ كنت بين المجموعة الأولى أسعد نفساً منى بين المجموعة الثانية ؛ كانت الأولى من ذلك النوع الذى يقال عنه حقاً إن الصديق الحق يوسع من رحابة النفس ، لأن الصديق فيها كأنما يضيف إلى نفسه نفوس سائر الأصدقاء ، إذ لا تكون بينهم الحواجز التى تحول دون أن ينفض كل منهم دخيلة نفسه بغير حذر أو حرج ،

وأما المجموعة الثانية فكانت بين الأفراد حواجز وسدود ؛ كان بين أفراد المجموعة الأولى تنافس الأنداد ، وأما بين أفراد المجموعة الثانية فكان فيها التعالي والتفاخر والحذر والكتمان .

وربما وضع الفرق بين المجموعتين إذا قلت عن الأولى إن رجلا في حرارة الأحذب كان يمكن أن ينخرط فيها ، أما إبراهيم فلا أنخيله مقبها على رابطة تربطه بها زمنا طويلا ؛ على حين أن إبراهيم هذا ببرودة عقلانية كان يمكن أن ينخرط في المجموعة الثانية في غير عسر ، لأن الانفصال عنها يتم كذلك في غير عسر ، لأن الروابط ليست قلبية بين أعضائها ، وأما الأحذب فما كان يطبق مع المجموعة الثانية جلسة أو جلستين ؛ لكنني كنت بحكم تكويني الذي أشرت إليه ، أن أكون عضواً في الجماعتين على حد سواء .

ولقد ظهر الفارق بيني وبين الصنوين الآخرين بصورة أجلي في الزواج ؛ أما الأحذب فقد جمد عند حبه لسميرة التي أشعلت في قلبه الجذوة عندما كان في مرحلة المراهقة ، وكان كلاهما - سميرة والأحذب - في تلك المرحلة من العمر ، على سذاجة ريفية أو ما يشبهها ؛ أما هي فقد عاشت بقية عمرها على تلك البساطة الأولى ، لم تدعها ظروف حياتها إلى أن تغير منها شيئا ؛ وأما هو فقد ارتفع درجات في السلم الثقافي ، ولكنه بالنسبة إلى الجنس الآخر ظل على بساطة الفطرة التي كان عليها عندما أشعلت له سميرة النار .

وأما إبراهيم فليس له قلب يسيره ، ولست أدري من أمر زواجه شيئا ، ولكنني على يقين من الطريقة التي يواجه بها شئون الحياة كافة - جنسا وغير جنس - فهو إذا ما أراد امرأة تشاركه الطريق ، لجأ إلى عقله ليصور له تركيبة ذهنية لامرأة قد لا يكون لها وجود ، وعاش مع ذلك الوهم الذهني ، إنه رجل

بضاعته أفكار وتصورات يراعى فى تكوينها ما يظن أنه الكمال ، ثم يقنع من دنياه بهذا القدر .

وأما أنا فقد أنعم الله على بكثير جداً من نعم الدنيا ، وكان أجلها زوجة ربط بينى وبينها كل الروابط التى تربط رجلاً وامرأة على حب ورحمة ومودة ، فقد وجدت معها نفسى بكل حروفها ، من الألف إلى الياء ، إذا كنت فى إحدى لحظات العقل وجدت معى عقلاً يشارك ؛ وإذا كنت فى نشوة من شعر قرأته أو قطعة فنية شهدتها ، وجدت ذوقاً فنياً يستجيب ؛ وإذا غمرتني موجة من شئون الحياة العملية ، وجدت من يحمل معى العبء ، أو يحمل عنى معظم العبء ، وإذا أخذنى غرور بموقف وقفته أو بشيء كتبه ، وجدت من يشبع فى نفسى الضعيفة أوهام الغرور ؛ إنها تستطيع أن تكون لى مجتمعاً بأسره .

وبهذا التكامل النادر بين شخصنا الثلاثة ، اكتملت « نفس » فروى الراوى « قصتها » مجتزئاً من بحر الأحداث فى حياتها بما يقدم للرائى صورة أو ما يشبه الصورة .

الفصل التاسع

شفق الغروب

١

كنا نحن الثلاثة الرفقاء : أنا (فوزى الراوى) والأحدب (رياض عطا) وإبراهيم الخولى ، متقاربين فى العمر ، فلم يكن الذى يفرق بيننا هو التفاوت فى عدد السنين . بل كان اختلافنا فى الطباع ؟ أما أنا فقد كنت دونها معا أسلك نفسى فى قوالب المجتمع بمعظم تقاليده وأعرافه ، ولذلك كنت أكثر منها هدوء نفس وراحة بال ، وأما رياض عطا (الأحدب) باشتعال عواطفه ، وإبراهيم الخولى ببرودة عقلانيته ، فقد كانا على طرفى نقيض أحدهما من الآخر ، ولكنها كانا معا ينبوان عما يرضى عنه جمهور الناس .

لم نكد نحن الثلاثة نعب السنين من أعمارنا ، حتى حدث اختلاف ظاهر فى الصورة التى كانت نجتمعنا معا قبل ذلك فى ثالث واحد ، وبيان ذلك أنى جمدت على الطريق أسلك فى حياى العملية على نحو ما تسلك الكثرة الغالبة من الناس ، داخل البيت وخارج البيت ، وفى حدود أسرتى وخارج تلك الحدود ، وأما زميلائى الآخرون ، فالأمر معها يختلف عن ذلك اختلافا بعيدا ، وكافى بها - واعجابه - يقتربان أحدهما من الآخر ، اقترابا أشك أن يكون دجا لها معا فى هوية واحدة ، بعد أن كانا مختلفين اختلاف العاطفة الساخنة والعقل المثولوج ، وكيف كان ذلك ؟ لقد عهدت كلا منها كاتباً . فأما الأحدب فقد

عهدته يكتب وكأنه ينفث اللهب من قلمه ، وأما إبراهيم فعرفته باسطا لأفكار العقل بمنطق خالص قلما أذفاته حرارة الوجدان ، وأما بعد أن بلغا من العمر مابلغا ، فقد صار الأحذب أقل عاطفة وأكثر منطقا ، كما صار إبراهيم أقل نطقا وأكثر عاطفة ، فتشابه الكاتبان حتى كدت لا أميز بينهما ، فأقرا المقالة أو الكتاب لأحدهما فأظنه للآخر ، إلا أن أرجع ببصرى إلى اسم الكاتب ، فأعرف لأيها أقرأ ، ولهذا فإني فى روائى هذه عنها فى هذا الفصل الأخير ، سأتمجاهل أنهما اثنان ، وسأتحدث عنها وكأنها رجل واحد امتزجت على قلمه العاطفة والفكرة فى كيان واحد .

ولكل سيرة نقطة ابتداء ، ونقطة البدء فى سيرة صاحبنا الجديد - ولنلتقى عليه اسم إبراهيم الأحذب إذا شئنا - كانت هى اللحظة التى روى لى عنها إبراهيم عندما كان يلقي على طلابه محاضرة ، كان يعلم - وطلابه لا يعلمون - أنها هى المحاضرة الأخيرة فى حياته العاملة بالجامعة ، كان ذلك فى الأيام الأولى من شهر مايو ، الذى لم يعد بعده إلا شهر واحد ، ثم يحذف اسمه من قائمة هيئة التدريس لبلوغه سن التقاعد - كما جرى العرف أن يسموه ، كان إبراهيم فى تلك المحاضرة الأخيرة أشبه بالرواى جيمس جويس وهو يكتب رواية يوليسيز ، فينظر إلى ما يدور حوله مرة ، ويفوص إلى باطن نفسه مرة ، حتى اختلط الأمر بين ظاهر وباطن ، فهكذا كان إبراهيم عندئذ ، يحصر ذهنه فى الفكرة التى يعرضها على الطلاب حتى لا يلتاث معه القول وتضطرب العبارة ، لكنه لم يستطع برغم ذلك إلا أن يفوص داخل نفسه ليحس الرجفة الخفية التى كانت تسرى بين أوصاله ، لعلمه بأنه قد أشرف بحياته النشيطة العاملة على نهايتها ، وكأنه كان لا يصدق أن ستين عاما من عمره قد انقضت .

نعم إن الجامعة قد سارعت - مشكورة - فأرسلت إليه مع الخطاب الذى تعلنه فيه بانقضاء عهدها معه أستاذًا فى قائمة الأساتذة ، خطابًا آخر تنبه فيه بأنها تحرص على بقاءه فى ساحتها ، ولذلك فقد عينته أستاذًا غير متفرغ ؛ لكن هذه الرابطة بكل ما فيها من خير ، لم تعد هى الرابطة التى كانت ، فلقد أراد إبراهيم ذات يوم أن يسترد من الجامعة شهادة الدكتوراه لأنها كانت مطلوبة فى ظرف ما ، فأحالوه إلى مخزن بإدارة الجامعة ، خزنت فيه ملفات العاملين ، وهناك طلب من الموظف المسئول استرداد تلك الوثيقة مؤقتًا ، فما كان من الموظف إلا أن جاء له بملف أوراقه ، وفتحها أمامه ، وقال : خذ من أوراقك ما شئت ، خذها كلها إذا أردت ، فلم يعد بين الجامعة وبينك من صلة ؛ لم تعد أوراقك هذه مطلوبة لنا ، اللهم إلا ورقة واحدة ، هى شهادة الميلاد ، وقد أخذناها بالفعل وأرسلناها إلى حيث ينبغى لها أن ترسل .

لم يقل الموظف فيما قال كلمة باطل ؛ كل ما قاله حق ، لكنه حق وقع على قلب إبراهيم وقع الحناجر ؛ لماذا ؟ ألم يكن إبراهيم هذا مفتونا بمنطق العقل - لا يبتغى لنفسه وللناس إلا كلمة حق يقرأها عقل لم تضعفه عاطفه ؟ فما الذى هزه وقلب كيانه من قولة حق ؟ إنه إذن لم يعد هو إبراهيم الذى عهدته قبل ذلك وعهده الناس وفلا بد أن يكون قد تقمص شخصية الأحذب ، فامتزجت فى إهابه عاطفة بعقل ، وعقل بعاطفة .

٣

كان ذلك هو غروب العمر قد حانت ساعته ولاحت بواده ؛ لكن صاحبنا إبراهيم قد أخطأ الحساب ، فلئن كان ذلك غروبًا ؛ فهو إذن غروب قد طالت ساعته وكأنه الغروب لمن يسكن منطقة القطب فى فصل الصيف ؛ وإلا فهل

علم إبراهيم عندما حذف اسمه من قائمة الأساتذة العاملين ، أن مايقرب من عشرين عاما سيحيها بعد ذلك أنشط ذهنا وأخصب إنتاجا ، وأكثر إبداعا للفكر الأصيل المبتكر مما كان في أى مرحلة من مراحل عمره ؟ لكن ذلك هو الواقع الذى كان ، فكأنما سنة التقاعد - كما يسمونه - هى بذاتها سنة مولد جديد ، أو قل إن الشجرة التى دفنت بذرتها فى الأرض ولبثت تنمو بمجدعها وفروعها عقودا متوالية من السنين ، قد حان لها أن تخرج ثمارها وأزهارها . فن لحظة الموت - أو مآلظه إبراهيم يومئذ إيذانا بموت وشيك - جاء بعث جديد ، وذلك أن عرضت عليه وزارة الثقافة بمصر أن ينشئ لها مجلة للفكر ، وأن يتولى رئاسة تحريرها ، فاختار للمجلة أن تختص بأفكار عصرنا الذى يقلنا على أرضه بكل ما تتفجر به من قنابل ، ويظلنا تحت سماءه بكل ما تنزله علينا تلك السماء من سهام الدمار ، لكنه عصرنا ، ويستحق منا أن نحيا به وفيه ، ليحيا هو بدوره بنا وفينا ؛ وعلى بركة الله وبمشيئة صدرت المجلة تحمل فى كل عدد من أعدادها صوتا مسموعا لصاحبنا إبراهيم فى إهابه الجديد . ينادى فى الناس بألا يكون الفيصل فى الفكر إلا النضج والعمق والصدق ، ولنترك سوانا من عباد الساسة ليمرحوا فى العراق بين يمين ويسار .

وأمسك إبراهيم بزمام سفينته الفكرية تلك يسير بها لترسو هنا أو هناك حيث الكنوز ؛ وفجأة وقعت على سفينته صاعقة من الصواعق التى نألفها فى حياتنا المصرية ؛ وذلك أن جاء فى وزارة الثقافة مسئول ، أبى إلا أن يحول شئون الفكر إلى إدارات ومديرين ، فقال : لنجعل لمجلات الوزارة « إدارة » ولنجعل لكل مجلة « لجنة » تشرف عليها ، فهاهنا حاج « الأحذب » الذى مكن فى صدر إبراهيم ، وسأل : إذا كان الأمر كذلك فقيم اختارى رئيسا للتحرير ؟

ولماذا لا أترك مقعدى لأصغر طالب من طلابي ؟ لقد كانت المسألة عنده قبل ذلك « رسالة » يريد أداؤها ، فهل يرضى أن تصبح على يديه أوامر تهبط عليه من مديرين ، وتشرف لجنة على حسن التنفيذ ؟ اللهم لا ، وأرسل إبراهيم برقية في صباح اليوم التالى ، وكأنما الأحذب هو الذى أملى عليه عبارتها ، يتنحى بها عن المضى فى الطريق التى رسمت له ، لكن المسئول الكبير نفسه الذى خطط الطريق ؛ هو الذى اتصل بإبراهيم ليؤكد له أنها « شكليات » لاتعنيه ، فاستأنف إبراهيم سيره على دربه ، ولكن فى كثير من وسوس القلق .

فى ذلك الوقت نفسه الذى وجد شخصيته فيه مشدودة بين قطبين متناقضين : قطب فيها هو شعور إبراهيم باحترامه لنفسه ووثوقه بأنه إنما يضطلع بنحو أمته برسالة ثقافية ، مؤداها أن يترك للعقل - وللعلم بالتالى - أن يحتل مكانه ومكانته فى حياتنا العامة ، وأن ينحصر الوجدان فى دائرته الخاصة به والتى يسترشد فيها الإنسان بقلبه المؤمن العاطف الشاعر ، أقول إن صاحبنا إبراهيم ، الذى امتص فى كيانه عندئذ بعدًا انفعاليًا من رفيقه الأحذب حتى كاد الرجلان أن يندمجا فى هوية واحدة ، إن إبراهيم هذا قد ارتجى بنيانه ارتجاجا عنيفا ، عندما ظن واهما أنه صاحب رسالة ثقافية ، فإذا الكلمات تأتيه من أولى الأمر فى وزارة الثقافة ، لتشعره بأنه بمثابة « موظف » كلفته الوزارة بمهمة يؤديها ، ولذلك فقد عينت « مديرا » ، لإدارة « المجلات (١١) ليكون له التوجيه ، كما عينت « لجنة » ليكون لها الإشراف ؛ ويشاء الله فى اللحظة نفسها أن يحدث حادث آخر من شأنه أيضا أن يرد صاحبنا إبراهيم الأحذب (وهو الاسم الذى أطلقته على شخصية إبراهيم الجديدة) إلى صوابه إن كانت أوهامه قد طارت بصوابه فى عالم الضباب والسحاب ؛ وهو أن صاحبنا كان عضواً فى لجان

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (كما كان يسمى في ذلك الحين) لكنه كان دون سائر الأعضاء كثيرا جدا ما يطلب منه في شيء من الرجاء ، أن يكتب - نيابة عن المجلس - موضوعات تقدم في مناسبات مختلفة كالمؤتمرات الثقافية وما إليها ؛ مما أوحى إلى صاحبنا أنه موضع تقدير خاص ، وإذا به يباغت بموقف أو موقفين عرف منهما كم هو قليل الشأن عندهم في اللحظات الحاسمة ، فاتفعل انفعالة أحدية وأرسل إلى الأمين العام للمجلس استقالته من اللجان التي كان عضوا فيها ؛ فما أسرع - وادهشاه - أن أجابه الأمين العام بقبول استقالته ؛ فلو كان إبراهيم الخولي هو نفسه إبراهيم الخولي الذي عهدته طوال السنين ملتزما أحكام العقل وحده ، لما حزن واضطرب ، لأنه قدم استقالته قبلت الاستقالة ، فأى غرابة في ذلك ؟ لكنه كان قد أصبح شخصا جديدا باندماجه في الأحذب أو اندماج الأحذب فيه ، وبات العقل عنده مبطلنا بعاطفة ؛ نعم ، فلقد حزن إبراهيم واضطرب ؛ قائلا لنفسه : إنه لو كان في منزل الأمين العام طاه طها له الطعام لعشر سنوات كالسنوات العشر التي كنت قضيتها عضوا في لجان المجلس ، ثم قدم له الطاهى استقالة مفاجئة ، لسأله : ما الذى أغضبك يا عم إبراهيم ؟ محاولا بذلك أن يرأب الصدع إذا كان ثمة من صدع في العلاقة بينهما ؛ أما إبراهيم الأستاذ الجامعي والكاتب وعضو اللجان الثقافية ، فلا بأس في أن يستقيل في أية لحظة شاء .

فلا غرابة - إذن - أن تمتلئ نفس إبراهيم الأحذب بوساوس القلق ؛ وكان مما ذكره لى إبراهيم بعد ذلك بنحو شهر ، أن وزير الثقافة يومئذ دعاه لمقابلته ، فلما تم اللقاء ، بدأ الوزير بعتابه لأن إبراهيم لم يزره بمناسبة توليه منصب الوزارة ، فأجابه إبراهيم معتذرا بأنه يعتقد في أن الصواب هو أن ينصرف كل إلى

عمله ، فقال الوزير مامعناه : دعنا من ذلك ، لقد بلغنى أنك استقلت من لجان المجلس الأعلى ، فلماذا ؟ قال إبراهيم : اسمح لى ياسيادة الوزير بعشردقائق أنفص فيها شيئا مما بنفسى من عوامل القلق ، ولن أزيد عليها دقيقة واحدة ؛ إننى أستاذ جامعى بلغ سن التعاقد وأصبحت العلاقة بينه وبين الجامعة هى علاقة الأستاذ غير المتفرغ ، وأريد بذلك أن أقول إنه لم يعد لى مستقبل أرجوه . لأن مستقبلى هو هذا الذى أعيشه الآن ، ومعنى هذا هو أننى بما سوف أقوله من ملاحظات . لا أبتغى لنفسى نفعاً ولا أدفع عن نفسى ضرراً . إننى أنظر فى كل عام إلى الفئة القليلة من طلابى الذين أُلح فيهم الرغبة والقدرة على خوض الحياة الفكرية والثقافية العامة ، لكننى أتساءل : ماذا ياترى هم فاعلون برغباتهم تلك وقدراتهم ؟ إنه من الطبيعى لهم أن يديروا أبصارهم لىروا من الذين يحبسون فى مقاعد الإمارة والإدارة والصدارة فى تلك الحياة العامة ؟ لعلهم يترسمون خطوهم فيصعدون كما صعد أولئك الأفذاذ ؛ وإذا هم يرون عددا ليس بالقليل من أمراء الحياة الفكرية والثقافية قد بلغوا عروش الإمارة بغير كتاب - ولا حتى ورقة واحدة - يمينهم أو يسارهم ؛ فكيف - إذن - أجزى لهم الصعود بغير جواز للمرور ؟ يسأل شبابنا الواعد سؤالاً كهذا ، وسرعان ما ينكشف لهم الغطاء عن حقيقة رهيبة ، وهى أن بلوغ القمم فى دنيا الفكر والثقافة عندنا ، ليس شرطة الصعود على سلم الفكر والثقافة درجة درجة ، بل وسيلته الأولى هى الطيران على رموس تلك الدرجات بمعونة من صاحب سلطان ؛ ومادام الأمر كذلك - هكذا أتصور شبابنا الواعد يهمس لنفسه كل عام - فهيا إلى البحث عن أصحاب السلطان ، وإلى الجحيم بالدفاتر والمحابر ..

كان إبراهيم الأحذب فى مثل هذه الحالة القلقة المتوترة ، فسافر إلى

الإسكندرية لعل هموم نفسه أن تتزاح بسحر البحر وهدير موجه ؛ وكان الوقت هو الأيام الأخيرة من العام ، وكانت المصادفة اللافتة للأنظار هي أن رأس السنة الهجرية الجديدة ورأس السنة الميلادية سيلتقيان معا في يوم واحد ؛ ثم كانت إرادة الله سبحانه وتعالى هي أن ترد إلى رسالة من إحدى الجامعات العربية تدعوني إلى التعاقد معها على العمل أستاذا للفلسفة ؛ فلم أتردد لحظة واحدة ، وأسرعت على جناح البرق لأجيب بالقبول ؛ وبهذا أجد الفرصة التي أنجو بنفسى فيها من الأزمة النفسية التي أوقعتني فيها الأمين العام للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ومن التوتر العصبي الذي أصابني عندما أراد المسئولون في وزارة الثقافة بأن يوحوا إلى بأننى لأصاحب رسالة ثقافية ولا يحزنون ، وإنما أنا عامل بالأجر القليل ، يدار له أمره ويشرف الرؤساء على شئونه .

وما إن أرسلت برقيتى تلك وعدت إلى الفندق الذى أقيم فيه - هكذا روى لى إبراهيم عن تلك الفترة من حياته - حتى خطرت في رأسى خاطرة كانت كأنها لمعة من لمعات الإلهام ، وهى أن التقاء السنة الهجرية الجديدة والسنة الميلادية الجديدة في رأس واحد ، إنما هو رمز أقرأ فيه توجيهها لما ينبغى أن أنصرف إلى عمله عندما يستقر لى المقام فى ذلك البلد العربى الذى دعانى ، وما ذلك العمل إلا أن أبدأ لنفسى فى موقف ثقافى جديد ، أحاول فيه أن أجمع عنصرين معا فى نسيج واحد : موروث الثقافة العربية وحصيلتى من ثقافة الغرب ، فأكون بهذا الجمع عربيا ومعاصرا فى آن معا .

٣

كان إبراهيم الخولى أول ما عرفته - وقد كان ذلك وهو فى أخريات شبابه ،

أعنى حين كان فى نحو الأربعين من عمره - أميل إلى التجريد فى فكره . بمعنى ألا يصب فكره المنطقى الصارم على مشكلات حقيقية مما يعترض الناس فى حياتهم ، ولذلك فكثيرا ما وصفه الواصفون بالصورية التى لا تنفع الناس ولا تشفع له ؛ ولعل تلك الصورية البادية فى نهجه الفكرى عندئذ قد جاءت من حرصه على منطقية الفكر حتى يصبح وكأنه معادلات رياضية ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلعل تلك الصورية قد أحدثتها عنده بعده عن الناس وهم فى معمعان العيش ومشكلاته ؛ وإذا كان ذلك كذلك بالنسبة إلى إبراهيم وهو فى الأربعين أو نحوها ، فليس هو كذلك حين رأيته وصاحبته على مقربة بعد أن اقترب من الستين أو جاوزها ؛ فهأنا لابد أن تكون وجدانية الأحذب قد نصحت على التزعة العقلية عند إبراهيم ، حتى لقد كاد يصبح رجلا آخر ، لا من حيث منطقية الفكر كلما اقتضى الأمر المطروح منطقا ، بل من حيث اختيار الموضوعات التى يجعلها محور تفكيره ؛ فموضوعاته عندئذ تدور فى معظمها حول إنسانية الإنسان ، والإنسان العربى بصفة خاصة ، والمصرى منه بصفة أخص ؛ وإذا كان موضوع النظر هو قيم الحياة كما يعيشها الناس فعلا - فيما مضى والآن - فصعب جدا أن يحىء التفكير صوريا خاويا - أو كالحاوى - من المضمون الحيوى بخصائصه المتينة المتجسدة فى مواقف الواقع .

نعم ، لابد أن يكون للأحذب على إبراهيم فضل غير قليل ، فى أن جعل عصارة الحياة تسرى فى أعواد الحطب فتبين وتختصر وتورق وتثمر .

كان إبراهيم الخولى فى مرحلته الإنتاجية الأولى - بل إلى أن بلغ من العبر خمسين عاما ؛ لا ينزل قيد أعMLE عن العنكس بالفكرة القائلة بضرورة محاكاتنا للغرب فى كل شىء ، لا فرق فى ذلك بين صغيره من الأمور وكبيرة ؛ وحبذا لو

أكلنا كما يأكلون ، وارتدينا الثياب كما يرتدون ، وكتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ، ودع عنك أن نجعل وجهة نظرنا علمية المنهج ملتزمة لحقائق الواقع الصلب كما يجعلون ، ولم يكن إبراهيم الخولى حتى ذلك العهد من حياته يطبق الإشارة إلى العرب وتراثهم ؛ وكان منطقهم فى ذلك بسيطا واضحا ؛ فالغرب قوى ترى واع. بصير. فلماذا لا أسلك كما يسلك لأحقق ماحققه ؟

ولكن أين تذهب الجوانب الوجدانية من هويى ؟ وبأى معنى يحق لى عندئذ أن أحب وطنى وأهلى ولغتى ، وأن أتغنى بمجدى وتاريخى ؟ ربما لو سئل إبراهيم الخولى يومئذ هذه الأسئلة ، لأجاب - وأظنه قد سئل أكثر من مرة وكان فى كل مرة يجيب قائلا : ليست حضارة الغرب مقتصرة على أمة واحدة ، بل إن فيها الإنجليزى والفرنسى والإيطالى .. وكل من هؤلاء يعرف كيف يعيش حضارة العصر مضافا إليها تلك النبرات الوجدانية بأرضه هو وأهله وتاريخه ؛ فلماذا لا ينطبق ذلك نفسه على المصرى (وكان إبراهيم حتى ذلك الحين لا يتحدث عن « العربى ») فيحيا فى مناخ عصره ، ويتغنى كما شاء بمصر وأهلها وتاريخها . لكن جاءت فى حياته اللحظة التى شاء له الله عندها أن تزال الغشاوة عن عينيه فتشرق عليه الحقيقة كما تشرق الشمس فتبدد الظلام ، والحقيقة بسيطة بساطة أعداد الحساب : فشعوب الغرب جميعا لا يملكون بين أيديهم إلا حضارة واحدة وثقافة موحدة الأصول ، وهما الحضارة والثقافة اللتان تطورتا مع الأيام عن جذور اليونان والرومان . بالإضافة إلى ما استعاروه من سائر الحضارات استكمالاً للنقص ؛ وأما نحن فوقفنا مختلف ، إذ أن بين أيدينا حضارتين لاحضارة واحدة ، وثقافتين لثقافة واحدة ، فنشأت لنا مشكلة تريد الحل الذى لا يتحقق بمجرد الهروب من المشكلة وإغماض العين عنها ؛ فأنا مصرى ،

ولكننى أتكلم العربية ، وليست اللغة مجموعة من رموز الرياضة تستخدم للرمز الجرد الذى لا يثير فى القلب عاطفة أو انفعالا ، بل اللغة - فى مفرداتها وفى طرائق بناء تلك المفردات فى جمل - إنما تنطوى فى الوقت نفسه على أغوار ثقافية لبثت تزداد عمقا كلما ازدادت الشعوب المتكلمة بها خبرة بالحياة وممارسة لها ، فكل لغة فيها إلى جانب كونها رموزا تشير إلى مسميات ، جانب آخر هو العمق الشعورى ، أو إن شئت فقل إنه جانب « الشعر » منها ، فإذا كنت مصريا يتحدث اللغة العربية ، إذن فأنا عرى الأغوار والأعماق ، يستحيل على النظر إلى الدنيا إلا من خلال تلك العدسات : لم يعد إبراهيم يشك فى أنه إلى جانب مصريته ، فهو عرى الوجدان وليس له فى ذلك خيار .

ومن هنا انفتحت أمام إبراهيم آفاق جديدة ، إذ نظر فرأى أمامه مشكلة ثقافية نابضة بالحياة . وتفرض نفسها عليه وعلى كل ذى فكر من مواطنيه العرب - أيا كان موطنهم من الوطن العربى الكبير - وتلك المشكلة هى : كيف السبيل إلى حياة نوفق فيها بين الحضارتين وبين الثقافتين ، فنعيش الموروث العربى فى مناخ العصر وعلومه وفنونه ؟ .

وشاء حسن الطالع أن تضع هذه المشكلة نفسها أمام إبراهيم فى روحه الجديدة ، عندما ذهب إلى إحدى الجامعات العربية ، تلبية لدعوته إياه ، فوجد الفراغ ووجد المكتبة ووجد العزيمة ، فكان أن أخذ يعب من ينابيع الأسلاف عبا ، وأمامه هدف ، هو الإجابة - على ضوء ما يطلعه - عن السؤال المطروح بين يديه ، حتى إذا ما توافرت لديه المادة المناسبة ، عرضها على الناس فى سلسلة من الكتب أخذت تتوالى فى الصدور مملوءة الصفحات بفكر جديد . لقد كان إبراهيم قد ظن عند بلوغه الستين من عمره ، أن غروبه قد بدأ

ليسلم نفسه إلى حندس الليل ؛ لكن غروبه قد تغطى بأصلايه حتى الآن ما يقرب من عشرين عاما بعد تلك السن ، وكان لذلك الغروب الطويل شفق وردى جميل ، قد يبدو لإبراهيم نفسه أحيانا أنه أجمل حتى من شمس الضحى في حياته ومن شمس الظهيرة فالأصيل ، ومن يدري ؟ فلعل الناس إذا ذكروه بعدئذ ، فسيذكرونه بما أنتجه في ضوء الشفق - شفق الغروب .

٤

لكن ذلك الشفق الوردى الجميل ، أخذت تجتاحه بقع سوداء تتكاثر في أرجائه يوما بعد يوم ، حتى لتوشك الآن أن تحيله إلى ليل حالك ، لولا بقية من إرادة يحاول بها إبراهيم الأحذب (هكذا أحب أن أسميه في مرحلته الأخيرة التي امتزج فيها عقل بعاطفة) أن يتشل نفسه حيناً بعد حين من هوة العدم ؛ ومن تلك البقع السوداء ما أصاب البدن من علل عشيت بها العين ، وعرجت الساق ، ودارت الأذن بدوار ، ولكن ما كان أفدح من تلك العلل البدنية في البقع السوداء ، غدر الأصدقاء غدرًا يمكن اتخاذه علامة على روح هذه الفترة التي تجتازها بلادنا ، بما أحدثته في النفوس من ضيق وكرب وتوتر ، يغرى الصديق بأن يأكل لحم صديقه ميتا .

فأما العلل البدنية فقد بدأت مع إبراهيم بدوار الأذن ، وكان إبراهيم قد جاوز الستين ببضع سنوات ، وأسرع إلى استشارة الأطباء ، حتى لقد سافر إلى إنجلترا ليعرض حالته على خبير ، وأراد الطبيب الخبير أن يبدأ بسؤال مريضه عن معالم حياته السابقة :

الطبيب : ماهي أهم الأمراض التي أصابتك فيما مضى من حياتك ؟

إبراهيم : لم أمرض قط في حياتي إلا مرة واحدة في سن التاسعة ، وكانت ضربة شمس .

الطبيب : متى ولماذا دخلت المستشفيات ، فيما تذكر من تاريخك كله ؟
إبراهيم : هذه هي أول مرة ألبأ فيها إلى مستشفى .

الطبيب : هل تدخن ؟

إبراهيم : لا

الطبيب : هل تشرب الخمر ؟

إبراهيم : لا .

الطبيب : اذكر لي صنوف الدواء التي أخذتها أو تأخذها .

إبراهيم : باستثناء أقراص الأسبيرين ، لا أذكر أن جسمي قد دخله دواء قط .

هنا ألقى الطبيب بقلمه على مكتبته بحركة عصبية ، قائلا : فليسمع أبناء الغرب ليقارنوا حياة بحياة ؛ بدأ الطبيب فحوصه وتحليلاته لينتهي إلى نتيجة هي أن ليس هنالك ما يدعو إلى القلق ، فظاهرة الدوار مصيرها إلى زوال سريع . وسارت سفينة الحياة بإبراهيم على خير مايرجوه إنسان في مثل عمره ، ونشط في إنتاجه الفكرى على صورة لفتت إليه الأنظار ؛ وفجأة ارتطمت السفينة بحجر ضخيم فتحطمت مقدمتها وبعض جوانبها ، وذلك أنه أمسك بورقة ساعة العصر ، ذات يوم من فصل الصيف ، فإذا حاجز أسود يسد عليه الطريق ، وأسرع إلى منظره ليصح عنه العتمة التي ظنها هناك ، فوجد زجاج المنظار صافيا ؛ ففرك عينيه ، لكن ذلك لم يزحزح شيئا من العائق الذي جاء ليحول بينه وبين الورقة التي بين يديه .. وعبئا بعد ذلك كانت محاولات الأطباء

في مصر وإنجلترا وأسبانيا ؛ ولن يستطيع أحد أن يتصور كم استحال إبراهيم رجلا غير الرجل ، إلا من عرفه كما عرفته ، فعرف مقدار المساحة التي تحتلها القراءة والكتابة من حياته ، فإذا ذهبت عنه القدرة على متابعتها في حياته ، فكأنما هو فقد الحياة حتى ولو ظلت الرئتان تتنفسان ، وظل القلب ينبض . ومع ذلك فلم تقتصر العين على العشى الذي أصابها حتى اقترب بها من كف البصر ، بل تجاوزت بكارنتها حدود نفسها ، فكانت سببا في أن يسقط إبراهيم فتتكسر له ساق ، فجاءت مصيئته الجديدة خفشا على إباله .

لكن الأذن ودوارها ، والعين وعشاها ، والساق وعرجها ، لم ينل منه عشر معشار ما ناله من غدر الأصدقاء .. أصدقاء ؟ ! يالها من كلمة يسهل جريانها على اللسان ، ثم ندير الأبصار بحثا عما تعنيه الكلمة بين الناس ، فإذا هي إذا أشارت إلى شيء فإنما تشير إلى دخان قائم يسد الأنوف والخلوق فلا تتنفس الهواء الطلق في نقائه ؛ أحسب أن الصداقة قد سميت باسمها هذا لما فيها من الصدق ، فإذا لو تكشف لك صديقك المزعوم عن كذب سبقه كذب ولحق به كذب ؟ .. وحسبي هذا فلن أطيل في إعادة ما قصة علينا إبراهيم عما لقيه على أيدي « الأصدقاء » .

وكان ذلك كله مدعاة لإبراهيم أن يعيد النظر الفاحص في نفسه وفيمن حوله - أصدقاء وغير أصدقاء - ليرى كيف يكون بالقياس إليهم وكيف يكونون بالقياس إليه ؛ والذي عرف إبراهيم عن كذب كما عرفته . لا بد أن يكون قد عرف فيه ذلك التواضع الفطري الذي يكاد ألا يكون له نظير فيمن حوله جميعا ؛ ومع ذلك فلم يستطع عند مقارنته الفاحصة تلك إلا أن يشهد أمام ضميره وأمام الله ، أنه بالنسبة إلى معظم أولئك ، إنما هو مايكون عملاق بين

أقزام ، ولعل أحسن صنعا لو أنى تركت الحديث لإبراهيم ليصف رؤيته كما أجراها في مقاله قرأتها له ، جعل عنوانها « حارة الأقزام » وهذه هي : كثيرا ما لجأ الكاتبون إلى تشبيه الناس بالعالمقة حيناً وبالأقزام حيناً ، فالناس في أعين الكتاب عالمقة إذا رأوا فيهم مآظنوه فخامة وضخامة ، وهم في أعين الكتاب أقزام ، إن رأوا فيهم ما يدعو إلى التصغير والتحقير .

ومن أقوى الأمثلة التي شهدتها آداب العالم لهذا التصوير بالعالمقة أو بالأقزام تلك القصة التي لبثت منذ ظهورها ، (في سنة ١٧٢٦) مصدر متعة أدبية ، للكبار والصغار على حد سواء ، وأعنى قصة « رحلات جلفر » التي كتبها جوناثان سويفت ، وهو إنما كتبها ليسخر بها من أوضاع الحياة في وطنه - بريطانيا - إبان عصره ، فلما رآها قد انقلبت وسيلة يتسلى بها القراء ، خشى أن يكون قد ضاع عليه المهدف المقصود ، فكتب لأحد خلصائه يقول ما معناه : لقد استهدفت بالقصة أن أثبت القلق في صدور الناس ، لا أن أسرى عنهم المموم .

وموضوع القصة - كما هو معروف - وصف لرحلات « جلفر » في أرض الأقزام ثم في أرض العالمقة ، أما وهو مع الأقزام فقد وجد نفسه كالمارد ، ستخف بهم ويضحك من سخافتهم ، حتى إذا ما انتقل إلى بلد العالمقة ، كس الأمر ، وأدرك كم هو تافه وضيئل .

وواضح أن الكاتب قد أراد بالأقزام ، بنى وطنه في عصره ، ليسخر من قلة نهم وخفة أوزانهم ، وأنه أراد بالعالمقة تصويراً للنفوس حين تكون كباراً للآمال الناضجة حين تبعد آفاقها وتعلو

خذ مثلاً هذه الصورة الآتية التي صور بها الكاتب نموذجاً لما يهتم به الأقزام

في أرضهم ، لترى معه كم كانوا صغار الشأن في حياتهم ، وهى صورة يقول فيها : كانت الطريقة التقليدية لكسر البيض عند أكله ، هى أن تكسر البيضة من طرفها العريض ، لكن حدث ذات يوم لجد جلالة الملك ، عندما شرع يأكل بيضة - وكان عندئذ لم يزل بعد صبيًا - أن جرحت أصبعه وهوى بكسر البيضة على الطريقة التقليدية المألوفة ، فلم يلبث أبوه الإمبراطور أن أصدر مرسومًا يأمر به أبناء الشعب جميعًا ، أن يغيروا التقليد القائم ، فيكسروا البيض من طرفه الدقيق لا من طرفه العريض ، وإلا تعرضوا للعقاب الأليم ، فغضب الشعب ، ووقف من الإمبراطور الظالم موقف المعارضة ، وينبثا التاريخ أن ست ثورات شعبية أشعلها الناس لهذا السبب ، وفى تلك الثورات المتتالية ، قتل أحد الأباطرة ، وضاع التاج من آخر ، ولقد كتبت مئات الكتب فى موضوع الخلاف . غير أن أنصار كسر البيض من طرفه العريض قد صودرت مؤلفاتهم كما حرموا بحكم القانون أن يتولوا شيئًا من مناصب الدولة العليا .

فماذا يصنع الزائر الرحالة - إزاء هذه التفاهة - إلا أن يضحك ساخراً ؟ لكنه لا يكاد يزهى بنفسه بالنسبة إلى أولئك الأقزام . حتى يريد له الله أن يحد من زهوه ، وذلك حين انتقل إلى بلد العالقة ، وهناك عرف كم هو صغير ضئيل ، إذا قيس إلى هؤلاء الكبار - لا فى ضخامة أجسامهم فقط - بل الكبار كذلك فى نفوسهم وعقولهم وطرائق عيشهم .

أعود فأقول إن تشبيه الناس بالعالقة حينًا وبالأقزام حينًا . أمر مألوف فى التصوير الأدبى ، ولكنى - علم الله - حين أردت أن أكتب هنا عن حارة الأقزام لم أرد ما أراده أصحاب التصوير الأدبى كلما أرادوا التصغير والتحقير ، وإنما هى واقعة حقيقية حدثت ، وأردت أن أروىها كما حدثت ، لا أزيد عليها

حرفًا من عندى ولا أحذف حرفًا .

والواقعة كما حدثت ، هى أن صديقًا أهدى إلى منظارًا يضخم الأشياء إذا ما نظرت من إحدى جهتيه ، ثم هو يصغر الأشياء إذا ما نظرت من إحدى جهتيه الأخرى ، وهو إذ يضخم الأشياء ، يبيدها قريبة كذلك ، وإذا يصغر الأشياء ، يبيدها وكأنها ازدادت منك بعدًا .

وكان صديقى ذاك ، قد سمع منى مراراً ، رغبى الشديدة فى أن يكون عندى مثل هذا المنظار الذى يضخم الأشياء ويقرها (ولم أكن أعلم وقتئذ أن المنظار نفسه إذا ما انعكس اتجاهه ، فهو يصغر الأشياء ويبعدها عن الرأى) ، أقول إن صديقى ذاك كان قد عرف عنى هذه الرغبة الشديدة ، حتى لقد سألتنى يوماً : لماذا لا تشتري لنفسك ماترغب فيه ؟ وأذكر أنى أجبتة بقولى إن هنالك أشياء كثيرة مرغوباً فيها ، لا تنجى إلى الراغبين إلا عن طريق الإهداء ، وأبدًا هى لا تأتى عن طريق الشراء ، ومرت سنوات بعد ذلك الحديث العابر . وإذا به يفجؤنى بهديته .

كانت فرحتى بالمنظار كفرحة الطفل بلعبته ، وحملته على كتنى كما يفعل السائحون ، وأخذت أسير به فى الطرقات أنتقى منها مواقف معينة فأقف ، لأنظر لى الشارع بما فيه ومن فيه ، أنظر إليها وإليهم فى اتجاه التكبير مرة وفى اتجاه التصغير مرة ، ولكم كانت نشوتى كلما أبصرت واحدًا من خلق الله السائرين فى زحمة الطريق ، مرة وهو فى ضخامة رمسيس الثانى فى تماثيله الضخام ، ومرة ثانية وهو يحبو وكأنه الطفل الصغير .

لم يكن فى الأمر - إذن - شىء من خيال ، إنما هو المنظار أنظر خلاله إلى شارع حقيقى وإلى ناس من لحم وشحم يسرون فيه ، فالشارع الطويل العريض

مرة يزداد طولاً وعرضاً ، ومرة أخرى يصغر ويقصر ويضيق حتى كأنه حارة أو زقاق ، والناس السائرون فيه ، يظهرون حيناً وهم عمالقة ، ويظهرون حيناً آخر وهم أقزام ، ولم يكن فى أى شىء من هذا التباين الحاد غرابة أدهش لها ، فهكذا كان المنظار وهكذا كان فعله بتركيب عدساته .

لكن ذلك المنظار اللعين - ليت صديق ما أهدها ، فأساء من حيث أراد الإحسان - قد أفسد على حياتى إفساداً لم أعد أرى كيف السبيل إلى النجاة منه . وذلك لأنه قد عودنى هذه العادة السيئة ، وهى أن أنظر إلى الناس بالنظرتين ، النظرة التى تبديهم عمالقة ، والأخرى التى تردهم أقزاماً فيبولنى الفرق البعيد بين الرجل الواحد وهو فى نظرة التعظيم ، وبينه هو نفسه منظوراً إليه من وجهه الآخر ، ولطالما جزعت لتلك الفروق البعيدة بين النظرتين إلى الرجل الواحد فى حالتيه من عظمة هنا وصغار هناك ، لكنى كثيراً ما طمأننت نفسى من جزعها ، إذ ليس الذنب فى ذلك كله ذنبى ولا ذنب منظرى فهكذا حقائق الناس والأشياء ، لا حيلة لى فيها .

وفيم الجزع إذا رأيت الرجل كبيراً هنا صغيراً هناك ؟ كنت أنت الواهم - هكذا حدثت نفسى - حين ظننت الكبير كبيراً فى كل حالاته ، والصغير صغيراً فى كل حالاته ، ثم جاءك هذا المنظار بوجهيه ، فتعلمت منه الدرس المفيد ، وليس هو بالشىء الجديد ، أن ترى الرجل أسداً عليك ، وأن تراه هو نفسه فى الحروب نعمة ، لأن ذلك الازدواج لم يفت حتى الشاعر العربى القديم أن يراه ولكن الذى ثقل على ضميرى ، ليس هو المنظار فى ذاته وأفاعيله بالأشياء والناس ، بل هو الشيطنة التى لمحتها فى طبيعتى ، حين حملت منظرى وذبحت به إلى شارع العلماء ، فهو من أضخم شوارع المدينة ، أشك أن يكون مقصوراً

على أصحاب التخصص العلمى ، فلقد حلا لى أن أرى كم يكون الفرق عند هؤلاء بين حالتى التعظيم والتصغير ، فإذا هو فرق بعيد بعيد ، أبعد منه فى أى وقت آخر - أو هكذا خيل لى - نظرت إلى أحدهم فى حالة عظمته ، فكأننى نظرت إلى مصارع من الوزن الثقيل برزت فيه العضلات بروزاً مخيفاً فقلبت له المنظار فإذا هو القليل الضئيل ، وطاف برأسى سؤال أضحكنى سخافته ، إذ سألت نفسى قائلاً : أى هذين الحجمين ياترى سيبقى للرجل فى تاريخ العلوم ؟ إنه لو بقى له حجمه الضخم لملأ من التاريخ مجلدات . وأما إذا غدرت به الأيام وأبقت له حجمه الضئيل ، فالأغلب ألا يجد لنفسه فى السجل صفحة واحدة ، بل ربما لم يجد فيه سطرًا واحدًا .

هكذا أخذت أنقل منظارى إلى عالم بعد عالم ، ولا بد أن أثبت هنا واقعة أذلتنى وظننتها من خوارق الأجهزة الآلية التى لا تؤتمن فى كل الظروف ، وتلك هى أننى وقعت فى شارع العلماء على أفراد بدت ضخامتهم من أى الوجهين نظرت إليهم كما وقعت أيضًا على أفراد بدت ضآلتهم من أى الوجهين نظرت إليهم ، فبدأت طريق عودتى وأنا أقول بخواطرى الصامتة إنه لا بأس فى هذه الدنيا ، فى أن يكون العظيم عظيمًا لأنه عظيم دائمًا ، وكذلك لا بأس فى أن يكون الصغير صغيرًا لأنه صغير دائمًا ، لكن البأس المخيف هو فى أن يصغر العظيم ، أو أن يعظم الصغير . لا لسبب سوى طريقتنا فى النظر ، والذى قد يزيد من هول الفاجعة هو أننا ربما رفعنا أسماء أو محونا أسماء ، لا بناء على نظرة مجردة منزهة من انحراف عدسات المنظار ، بل بناء على عادات خلقتها فينا عدسات المناظير ولا تلبث أن تصبح تلك العادات آلية ، تتحكم فى عضلات اللسان وأحبال الصوت بحيث « نكر » القوائم بأسماء العظماء وكأننا نسمع

(بتشديد الميم) قصيدة حفظناها عن ظهر قلب ، بلا وعى بمعانى ألفاظها .
 إننا لنقول - مثلاً - شوقى وحافظ ومطران . نقولها ونحن فيما يشبه الغيبوبة ،
 لأن اقتران هذه الأسماء هو اقتران محفوظ ، لا اقتران أفناه بعد دراسة ، نعم قد
 يكون فى ذكر هذه الأسماء إنصاف كل الإنصاف ، لكن الذى أريد أن أقوله
 هو أننا غالباً ما نصدر فيه عن عادة آليه ، لا عن وعى بمضمونه وكأننا فى هذا
 التلاحق الآلى فى حركات الصوت ، أشبه بفقران التجارب العلمية حين تنطلق
 داخل المتاهات المعدة لها ، انطلاقاً تنعرج به هنا وتستقيم هناك بغير أخطاء على
 الطريق ، لا لأنها « علمت » بعد جهل ، بل لأنها « اعتادت » كيف تسير ،
 ومن هنا كان الحرص الشديد ممن يحرصون على بلوغ الشهرة العلمية أو الأدبية ،
 على أن يسلكوا أسماءهم فى « مسبحة » الأسماء التى يذكروها الحافظون بدفعة آية
 صرف ، فإذا وفق أحدهم فى أن يضع اسمه على حبات المسبحة ، ضمن عندنا
 ما يشبه الخلود .

ويبدو أن العادات الحركية التى تتقاطر بها حبات المسابح فى دنيا الأدب
 والعلم ، لا تقتصر علينا وحدنا ، فكما نقول نحن بحكم العادة الآلية : جرير
 والفرزدق ، البحترى وأبو تمام ، الأفغانى ومحمد عبده ، العقاد وطه حسين ،
 فكذلك يقولون فى بلاد الغرب : راسين وكورنى ، كيتس وشلى ، جيته وشلر ،
 شو وولز .

وهكذا ، وأعيد القول بأن هذه الاقترانات بين الأسماء ، لو أقيمت على
 حسن فهم ، لأفادت ، لأنها قد تنفع فى تحديد المعالم داخل حركة أدبية أو
 فكرية ، لكنها فى حارة الأقرام - كما رأيتها بمنظارى - اقترانات يفاوية
 محفوظة ، تضر وقلما تفيد .

لم أكن قد التقيت بإبراهيم لعدة سنين . ولكنني سمعت عنه وقرأت له ، مما جعلني أتابعه خطوة خطوة وكأني أسايره يوما بعد يوم ، ومن هنا كان علمي بما طرأ على شخصيته من تحول ؛ وهو تحول لم يكن مقصوراً على إضافة بعد وجداني إلى اتجاهه العقلاني الخالص ، مما دعاني إلى الظن بأن للأحذب أثراً لكثرة ماتصاحبها وتجاوزا ، فأختلفا مرة واتفقا مرة ، ولذلك طاب لي أن أسميه لنفسى - كما أسلفت - اسم إبراهيم الأحذب ، على أني حين أقول عنه في تحوله الجديد إنه قد أضاف بعداً وجدانياً إلى نظرنه العقلانية الأساسية ، فليست أعنى أنه كان فيما قبل ذلك كافرًا بجياة الوجدان ، كلا ، فنذ عرفته من عشرات السنين . قد عرفت فيه وقفة راسخة ثابتة تقسم له حياة الإنسان بين مجالين : مجال الوجدان للعقائد والمشاعر والدوق والمزاج ، ومجال العقل لكل ما هو قائم على منهج التفكير العلمي ، وإذن فلم يكن الجديد فيه إضافة وجدان إلى حياته بعد أن لم يكن ، بل الجديد هو - أولاً - اختياره للموضوعات التي يخضعها للبحث العلمي . إذ أخذ اختياره يقع على موضوعات تتصل بطبيعة الذات المصرية والذات العربية مما يجعل النظر العقلي مبطناً بفرشة عاطفية ، و - ثانياً - سرعة إنفعاله حتى وهو في مواقف الفكر العقلي الخالص ، وكأن ذلك يحدث له كلما لقي من الآخرين عننا وإجحافاً .

وقرأت عن إبراهيم في الصحف ذات يوم أنه قد تلقى دعوة من جريدة الأهرام بأن يكون أحد كتابها . تلقاها وهو لم يزل في جامعة بإحدى الأقطار العربية ، لكنه إذ تلقى تلك الدعوة كان يوشك أن يعود إلى مصر بعد غيابه عنها خمس سنوات ؛ ولقد قبل دعوة الأهرام فرحاً بها لأنه ملئ بأفكار يريد

عرضها عرضاً واسعاً على جمهور المثقفين ؛ فلما أن التقي برئيس التحرير لأول مرة دار بينهما حديث ذو دلالة تكشف عن هدفه من الكتابة ، فلقد قال لرئيس التحرير صراحة : إنه يؤمن بأن كتابة الكاتب لا تكون إلا نقداً لما هو قائم ، إذ لو كان الكاتب راضياً بما هو قائم فقيم حملة للقلم ؟ إن ما هو قائم قائم قبل أن يكتب ، فلماذا يكتب ؟ قد يكون من الأهداف المقبولة أن يكتب الكاتب ليلقى الأضواء الكاشفة عن حسنات الأمور القائمة ودفاعاً عنها . خشية أن تكون حقائقها خافية عن جمهور الناس . لكن إبراهيم أراد أن يقول لرئيس التحرير إن أغلب هدفه من الكتابة التي يعترمها نقد لادفاع ؛ فأجابه رئيس التحرير بأنه من أجل ذلك وجهت الأهرام إليه الدعوة ليكون أحد كتابها ؛ والحق أن إبراهيم قد سعد بتلك الدعوة منذ تلقاها وهو بعيد ، لأنه - فضلاً عن رغبته في الكتابة - كان يعلم أن جريدة الأهرام قد استضافت قبله مجموعة من ألع رجال الفكر والأدب والفن ، مما يسعده أن يكون معهم في أسرة واحدة .

وبدأت مقالاته تظهر تباعاً ، ومنها رأيت في أوضح صورة كيف امتزج إبراهيم والأحذب في هوية واحدة : فالفكر ذو أعماق وأبعاد والانفعال الوجداني ذو حرارة ونبض .

وما إن علمت من الصحف بأنه قد ظفر بجائزة الدولة التقديرية في الأدب ، حتى اندفعت إلى التليفون أطلبه لأول مرة في حياتي ، فهنأته من عمق قلبي ، وشكرني بصوت مختنق ، ودعاني في إلحاح بأن أزوره في داره لتبادل الحديث ؛ وهناك أخذ يقص على كيف فوجئ بصديق - وهو في حياتنا الأدبية إمامها - يتصل به خلال الهاتف في نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ليقول له بصوت فرح : مبروك ، فأجابه إبراهيم : شكراً ، ولكن مبروك على ماذا ؟ قال

له : على جائزة الدولة التقديرية في الأدب ، إذ كان الاقتراح عليها هذا الصباح (وكان إبراهيم قبل ذلك بخمسة عشر عاما قد ظفر بجائزة الدولة التشجيعية في الفلسفة) - وسكت إبراهيم قليلا ، ثم قال أتعرف يافوزى كيف كان رد الفعل عندى حين وضعت سماعة الهاتف ؟ بكيت ، نعم بكيت بكاء لم أملك له دفعا ، ولما أن هدأت إلا من دمع أحسسته يبلل أطراف عيني ، سألت نفسى - ربما خجلا من نفسى - فيم هذا البكاء ، إنه يقينا لم يكن بكاء الفرحه لما سمعته ، إذ كانت جوانحى عندئذ ملتاعة بما تضطرب به ، إذن فلماذا؟ ووجدت الجواب : إنه التنكر الطويل الذى انطبع به موقف الزملاء وما يزال ينطبع ؛ الذى ابكافى هو أن التقدير قد جاءنى فى المرتين (فى جائزة الدولة للفلسفة وفى جائزة الدولة للأدب) فمن لم تكن بينى وبينهم صلة الزمالة ولا صلة الصداقة ، جاءنى التقدير فى الحالتين ممن لم يعرفوا عنى إلا ما يقرؤونه عنى كتباً ومقالات ؛ وأما من ربطتنى بهم أواصر الزمالة والصداقة ولقاءات المودة ، فالله وحده عليم بما كانوا يضمرونه نحوى من رغبة فى الإطفاء والإخفاء وطمس المعالم وضيق الصوت ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك هى الصمت الأليم عن كل ما يتصل بعمل أنجزته فى علم أو أدب .. ومرة أخرى اختنق صوت إبراهيم بالبكاء ، وغالب نفسه بكلتا يديه يضغط بهما على وجهه حتى غلبها ؛ وهنا نهض وغاب عنى دقيقة ثم عاد يحمل بين يديه علبة مكسوة بالقטיפه الحمراء ، وفتحها وأشار إلى الوسام الموضوع فى داخلها . وقال : إنه وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ، منحتنى إياه الدولة عن غير طريق الزملاء والأصدقاء ؛ فوزنى عند هؤلاء أخف من الهبأة العالقة فى هواء ساكن ؛ أتعرف يافوزى ماذا كتب لى أحدهم فى خطاب ؟ قال مامعناه : اعلم يافلان بأنك رجل لاقيمة له ، وإذا ظننت غير

ذلك كنت غارقا في أوهامك التي سببتها لك عزلك عن الناس ! ثم أضاف صاحب الخطاب إلى تلك القذيفة أن عبرني ببصرى المفقود ؛ وجاء ذلك كله تنويحا منه « لصداقة » دامت بيننا أكثر من ثلاثين عاما .. إلى هذا الحد يتميز من غيظ مكتوم بعضنا تجاه بعض إذا ما ربطتنا أواصر « الصداقة » ؛ أرايت ماذا أبكاني عندما جاءني تقدير الدولة عن غير طريق الزملاء و « الأصدقاء » .

هنا أسرعت إلى تغيير الموضوع لأخرج إبراهيم من لوعة الأسى التي أخذت تتزايد كلما مضى فيما كان يتحدث فيه ، لم يكن عهدى بإبراهيم أن تصدر عنه تلك النبرة الحزينة ردًا على إساءة من آخرين ؛ إنه الأحذب هو الذي عهدت فيه أمثال تلك المواقف ، وذلك هو ما يحملني على القول بأن إبراهيم الخولى المتزن الرصين ، لا بد أن يكون قد أصابه تغير في صميم كيانه ، متأثرا في ذلك بصحبته في أعوامه الأخيرة للأحذب ؛ ولا عجب في أن يتقاربا ، لأن كليهما كاتب ، ولأن كليهما كذلك متمرد على الشائع المألوف : كان إبراهيم أول الأمر يتمرد بمنطق عقله ، وكان الأحذب يتمرد بدفقة عواطفه ، وهما آخر الأمر قد تقاربا فتشابها .

كان واضحا لي عندما زرت إبراهيم في منزله ، أنه يقيم وحده ، فلا زوجة ولا أطفال ؛ وكنت لأعوام طويلة قبل ذلك لا أدري من أمر زواجه أو عدم زواجه شيئا ؛ أما الأحذب فقد كنت أعلم عنه يقينا أن قلبه قد جمد عند حبسية صباه ، فلا هو قد ظفر بها ، ولا قلبه طاعوه بعد ذلك أن يظفر بسواها .

كنت أجلس مع إبراهيم في غرفة مكتبه ، وقد استوقف نظري في بيته كله ، وفي غرفة مكتبه بصفة خاصة ، نظافة ونظام لم نألّفهما عند غير المتزوجين ؛ ولعل ذلك هو ما أوحى إلى بسؤال أوجهه إليه لأشق به طريقا لأحاديثنا غير ما كنا

تحدث فيه ، عسى أن أخرج صاحبي من سحابة الحزن التي أخذت تغمره عندما دهمته الذكريات بقدر « الأصدقاء » ففاجأته سائلا (وكأنني على يقين بأنه يعيش وحده) : لماذا لم تتزوج يا ذكور إبراهيم ؟ أكانت هي حياة العلم شغلتك عن نفسك ؟ فارتسمت على فمه ابتسامة مصطنعة وقال : لا ، لم تكن حياة العلم لتحول دون الزواج لو أردته ؛ فلقد لبثت خلال الشطر الأكبر من حياتي الرشيدة لا أحتكم فيما أفعله وما لا أفعله إلى حكم عقلي وحده ؛ كان ذلك قبل أن تدب الشيخوخة في عظامي ، وكان « العقل » يتلفت حوله فيمن يعرفهم من الأزواج ، فلا يلحظ بين الزوج والزوجة إلا تضادا ، كأنما خلقت بيوت الزوجية لتجمع أصدقاء بين جدرانها ؛ كان أبو العلاء المعري يقصر هذا التضاد المضحك على رفات الموق في قبورهم ، إذ قال : رب لحد قد صار لحد مرارا ، ضاحك من تراحم الأصدقاء ؛ لكنني وسعت من الدائرة لاضيف البيوت إلى اللحد في تراحم الأصدقاء بين جدرانها ..

فقاطعت قائلا : إن في حديثك هذا رنة من تشاؤم الأحبب ؛ فلقد سمعته مرة يقول : إن رباط الحب قلما يتحقق في زواج ، فالزواج دائما يكون حيث لا حب ، والحب دائما يكون حيث لا زواج ، فالحييان لا يلتقيان إلا قبل أن تنبأ ظروفهما ، أو ظروف أحدهما ، للزواج ؛ أو بعد أن يكون قد تم الزواج من غير الحبيبة أو الحبيب وفات الأوان من هنا رأيت لكل زوج حبيبة كان يود لو كانت له ، ولكل زوجة حبيب كانت تود لو كان لها ؛ إنها أصدقاء تلتقي وتتراحم وتلك هي الحياة .. ذلك ما سمعته من الأحبب المتشائم ذات يوم ، وكأنني بك تردد صداه ؟

فصمت إبراهيم قليلا ثم طفق يقول :

اسمع يا أستاذ فوزي ؛ إن الداء لا يشفيه كتمان ، ومن الأدوية المفجعة في

بنائنا الاجتماعي - وأخشى أن يصدّق هذا على أم الأرض جميعا بدرجات متفاوتة - أن يكون الزواج عقدا يبرمه عقلان ينشدان تنظيم علاقة اجتماعية اقتصادية بينهما ، لا رابطا يربط قلبين يتحابان فيلتئنان في قلب واحد لا ينشد شيئا إلا أن ينبض نبضا سليما ، وطالما لبثت الحال على هذا الوجه فلا بد للقلوب المكلومة أن تلتمس لها سبلا من وراء ستار ، نظام الزواج هو في صميمه اغتصاب يحمي القانون ؛ فإما رجل اغتصب امرأة يحبها ولا تحبه ، أو امرأة اغتصبت رجلا تحبه ولا يحبها ، أو رجل وامرأة يتعايشان ابتغاء مصلحة مشتركة ، بغير حب من أيّ من الطرفين .

إن الناس ليكفيهم من الأمر كله سلامة الشكل دون مضمونه ومغزاه ؛ ولي في ذلك خبرات كسبتها منذ الطفولة ولا بد أن يكون لك ، فها هو ذا رجل يطلق زوجته ثلاثا ، وإنها لفي غربة بعيدة عن الوطن ، فتغضب الزوجة عند غير أهل لها ، إذ لم تكن لها حيلة غير هؤلاء يؤوئنها ، يوما ويوما ويوما ؛ ثم يتفق الوسطاء مع الزوج على رد زوجته ، فيجيئون بالمأذون ، ومع المأذون ابن له صغير ، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ؛ ويتفق على أن يكون هذا الطفل هو الزوج المحلّل لرجمة المطلقة ؛ وتدخل الست أم حامد - فهكذا أذكر اسمها برغم تقادم العهد - تدخل مع زوجها الجديد في غرفة معزولة عند آخر الفناء الفسيح ؛ ويظل الوسطاء من رجال وسيدات ينتظرون ، وتخرج الست أم حامد لاتقوى على أن تواجه أحدا بنظرة ، ويتصاحك السيدات ويسألنها ، فتقص عليهم كيف أخذت هي تلهو بالطفل وهو يبكي في غير فهم لمهمته ؛ المسكينة قصتها بما يشبه الابتسام ، ثم ختمتها بمر البكاء .. لكنها عادت إلى زوجها حلّالا بلالا ؛ وذلك هو عندهم زواج !

ولعل امرأة سودانية أخرى كانت على سذاجة الفطرة البريئة ، لعلها أن تكون أسلم من هؤلاء نفسا وأصنى ، لأن لها ولدا يشغل بقيادة السيارات ، أحب امرأة عامل ، وعلم الزوج بما بينها فطلق الزوجة ، لتذهب فتعيش في كنف العاشق بغير زواج ؛ لكن العاشق لم يكفه هذا ، بل راح يحمل المعشوقة المطلقة على دراجة بخارية ، فجلس وراء ظهره مطوقة وسطه بذراعيها ، وينطلق الفاجر بدراجته وعشيقته أمام دكان العامل جيئة وذهابا ؛ فتأخذ النخوة من العامل مأخذها ؛ ويهاجم العاشقين في سواد الليل ليقتل غريمه بخنجره ؛ فإذا تعمل الأم الشكلى وقد علمت أن معشوقة ابنه تحمل في جوفها حملا ؟ إنها تصمم على أن تأخذ المأذون إلى قبر ابنها ، ويضحك منها الناس فتقول والدموع تملأ عينيها : م تهزأون ؟ أريد أن أعقد قرانه على قبره ، ليحىء ابنه « جنى حلال » .. وهو تصور لا يبعد كثيرا عن تصور سائر الناس لحقيقة الزواج . قلت : ربما أصبت في أن الزواج غالبا ما يكون شكلا بغير مضمون ، لكن للشكل أهميته .

قال : نعم له أهميته في ساحات القضاء ، لكن ليس له أدنى الأهمية بحساب المشاعر .. من لى بهزة عنيفة لأرجّ الناس رجاء فأبعد بين كل ضدين اجتماعا على مصلحة ، وأقرب بين كل حبيين افتراقا بحكم الظروف . وأراد لى الله أن تأييد عندى فكرة الأحذب ، من أن الزواج لا يكاد يجمع إلا الأضداد ، فقد دعانى فريد على عشاء فى منزله بجلوان ، ولم تكن قد مضت على زيارتى له إلا أيام قلائل ؛ لأنه أراد - كما قال - أن يحدد عهدى بجماعة الإخوان .

كنا تسعة أشخاص ، أربعة أزواج وأربع زوجات ، وأنا ؛ فقد حضر

صبرى وزوجته فوقية ، وتوفيق وزوجته سعاد ، وصالح وزوجته سعاد أيضا ؛ وبالطبع كان هناك المضيفان فريد وعفاف ؛ وقد كنت أعرفهم جميعا ظاهرا لباطن وباطنا لظاهر ؛ لكنى مع ذلك أخذت تلك الليلة أمعن النظر فيهم زوجا زوجا ، وكان حديث الأحذب لى عن تضاد الأزواج ما يزال ىرن فى مسمى ؛ ولم أجد عناء كبيرا فى أن أصنفهم لنفسى على أساس الميل الغريزى الذى يبدونه فى أحاديثهم تصنيفا بعيدا كل البعد عما هو قائم .

فصديقنا فريد ، ينجوحه نحو طرائق « أولاد البلد » فى عاداته الفردية والاجتماعية ، والذى كان بسبب هذه العادات ثقيلًا على قلب زوجته عفاف ، كان هو الفارس الذى يخطف بلب فوقية ، لأنها كانت تريد رجلا يهجم على المرأة بغزله الذى لا يراعى فيه الاحتشام المائع ، ويكون من ضخامة الجسم طولا وعرضا بمثل ما كان لفريد من ذلك ؛ إنها لاتكف عن الضحك لكل نكتة يقولها وتتبعه بنظراتها أينما سار وحيثما جلس ؛ ولعلها كانت تقارنه عندئذ بزوجها الوديع المسكين الصامت ، يحسمه الطرى المرتخى فتقول لنفسها فى سرها : ما أبعد المسافة بين رجل ورجل ؛ نعم إن زوجها صبرى مهندس لامع ، تختاره الحكومة فى كثير من لجانها الفنية ، وتملأ صورته الصحف ، وإذا تكلم فإنما يتكلم هندسة فى هندسة ومشروعات فى مشروعات ، لكن مالها هى ولكل هذه البراعة الفنية إذا لم يعثرها رجلا ؟ لا ، إن هواها كله مع فريد ولا أدرى إن كانت عفاف قد أدركت ما بينها ، لكنى أشعر أن لو أدركت لكان لسان حالها يقول : تفضلى هنيئة به ! وأما صبرى فى وداعته واستكانته وصمته والتزامه جانب الحذر فما كانت أنسبه لإحدى السعادين ؛ فسعاد وسعاد فى هذه المجموعة بينهما ما بين السماء والأرض من تباين ، إحدهما انطفأت فى عينها جذورة

الحياة ، وخمدت في وجتها شعلة الجنس ، وأصبحت في حركتها المقيدة المكبلة كأنها العنثال الشمعى ، لاتنطق لفظة إلا وقد حسبت حسابها ، فلماذا لا ينظر إليها صبرى المهندس بعين الإعجاب ، أين كانت هذه الوداعة القانعة العاقلة المترنة يوم أراد الزواج ! .. ولكن من ذا يكون زوج سعاد هذه ؟ إنه صالح الغارق في مجونه إلى أذنيه ، الذى لم يكن يريد فى دنياه إلا امرأة تقدر لذة الحياة الماجنة وتفهمها دون أن تدخل فى الأمر قواعد الأخلاق ومستويات الحضارة والتهديب ، يعلم عنه أصدقاؤه المعاصرون له والمسايرون له فى أطوار الحياة ، أنه أيام شبابه لم يتورع عن فعل يشتهيه بغريزته ، مها تكن العوائق فى سبيل أدائه ، لم يتورع أن يتعلق بمؤخرة عربة نقل فى الطريق إذا كانت عليها امرأة يريد مضاحكتها ، لم يتورع أن يلبس ثياب أبيه العربية ، جبة وقفطان وعمامة ليسير بها فى زحمة المولد والمسبحة فى يده ، ليفاجئ أسرفلاحين بزعمه أنه مواطن لهم من بلد قريب من قريتهم ، وأنه يعرفهم فكيف لا يعرفونه ؟ فتقع الأسرة الريفية : زوجا وزوجة ، فى حيرة وريبة ، وعندئذ يوجه سهامه إلى الزوجة إذا لمح فيها مسحة من جمال الريف ، لا ، إنه لم يتورع عن فعل مها يكن فيه من جرأة مرضاة لشهوته ، فإذا نجح كان بها وإلا فهو « فصل » طريف يروى للأصدقاء فى جلسات السمر .. أياكون هذا الفاجر هو زوج سعاد التى لاتحرك يدا ولاقدميها إلا بحساب ؟ نعم إنها بهذا السكون المميت قد قتلت حيوية جسدها قتلا ، وكان يمكن أن تعدّ من الجميلات ، لكن فكرة الأنوثة بكل خصائصها من جمال أو قبح لم تعد تردّ على خاطر الناظر إليها ، فهى تمثال شمعى كالتماثيل المعروضة فى متاحف الشمع ، تقف أمامه لالتسرى الحيوية منه إليك ومنك إليه ، بل لترى إلى أى حد يشبه العنثال صاحبه ، وكذلك تنظر إلى هذه

المرأة الساكنة الميتة لتتظر إلى أى حد هى تشبه الإنسانة الحية ؛ فأين هذه الزوجة من زوجها الجامح ؟ إنها ربما صلحت زوجة لصبرى المهندس ، فيلتقى هدوءه بهدوئها ، وصمته بصمتها ، وهموده بهمودها فيكون شَنُّ قد وافق طبقه - كما يقول المثل العربى القديم ؛ أما أن يقع صبرى النعسان على فوقية اليقظانة الصاحبة ، وأن يقع صالح الداعر على سعاد الراهبة ، فذلك كوقوع الضد على ضده فلا بد لأحد الضدين أن يفر العاسا لأشباهه .

ولم يكن صالح بحاجة إلى شطح بعيد ليجد بغيته على بعد قدم واحدة منه أثناء تلك « السهرة » الصاحبة ؛ ففي الجماعة سعاد أخرى قد لا يدل ظاهرها على حقيقتها إلا لمن كان ذا عين بصيرة بالنساء كعين أخينا صالح ؛ فسعاد الثانية هذه قد تبدى لك سحنة مستعلية على الرجال ، تجلس واضعة ساقا على ساق ، معتدلة بظهرها ، بحجية من يحدثها إجابة المالكة لزام نفسها ، لكن وراء هذه الصلابة الظاهرة أمنية ترقد فى أعماق طبيعتها ، وهى أن تجد الرجل الذى يعرف كيف يدوسها بقدميه من جانب الغريزة فيها ، شريطة أن يبقى لها مكانتها فيمابقى بعد ذلك من جوانب ؛ وهى نظن - كما يبدو من لمحات عينها ومن فلتات لسانها - أن الداعر صالح ربما استطاع أن يكون هو الرجل الذى يقيم الميزان الصحيح بين قتلها فى ناحية وإحيائها فى ناحية ؛ لأنه كان وهو يتحدث إليها بكلمات مسموعة أحيانا وبوشوشة مهموسة أحيانا ، يلعب على الحبلين ، فتوقير فى اللفظ والمعاملة كأنه إمام المهذبين وبريق فى عينه المتأرجحة فى محجرها بيعث إليها الإشارات التى تكاد تنطق لها بما كان يستطيع فعله لو ظفر بها .

هكذا أراد الزواج تقسيا لأفراد تلك الجماعة ، وكانت الفطرة تريد لهم تقسيا آخر .

خاتمة

قل ماشئت عما بيننا نحن الثلاثة من تباين ، فإنه محال على المتعقب ألا يربط بيننا رباطا وثيقا ، يبرر له أن يجعل نفوسنا جوانب ثلاثة من نفس واحدة ؛ ومن ذا يزعم أن في نفوس الناس جميعا نفسا كانت خالصة في تجانسها مع ذاتها وفي نقائها من عوامل الخلاف بين أجزائها خلافا قد يصل بها إلى حد الصراع بين جزء وجزء ؟ وإذا كانت تلك هي طبيعة الإنسان فن حقا - توضيحا للرؤية وتيسيرا للفهم - أن نفرض بأننى أنا فوزى الراوى ، مع صاحبي الآخرين : رياض عطا وإبراهيم الخولى ، بمثابة نفس واحدة لإنسان واحد ، انقسمت على ذاتها ثلاثة جوانب ، وكان حظى أنا من هذه القسمة أن أقف موقف الشاهد على العضوين الآخرين ، فأرقيهما وهما يتباعدان ويتقاربان ، وفي الوقت نفسه أحدد موضعى منها معا .

وقصة النفس التى رويتها فيما أسلفته من صفحات ، هي قصة ذلك الثالث مأخوذا فرادى ومجتمعا ، ولست أزعم بأننى ذكرت فى قصتى كل ما قد عاشه الثالث وانطبع به وتأثر بحيث اعوجّ هنا واستقام هناك ، فذلك التقصى فوق مستطاع البشر . وإلا وقعنا فيما وقع فيه ، « ترسترام شاندى » من تناقض ، وذلك حين أراد أن يكتب عن حياته كتابه مفصلة يخصص لكل يوم منها كاملا ، فحياة الثالث الذى يعنينا هنا تيار دافق الموج ، وليس فى مستطاعنا إلا أن نلقف منه فى جريانه قطرات من هنا ؛ وقطرات من هناك والآن - وقد بلغنا الخاتمة - نسأل : ماذا - ياترى - كانت أهم معالم تلك « النفس » التى رويينا عن حياتها ما رويينا ؟ ثم إلى أى حد يمكن اتخاذها شاهداً على عصرها وظروفه ؟

إذ منها يكن من أمرها ، فهي ربيبة والدين كان للوالد فيها مزاج وللوالدة مزاج ؛ ثم هي صنعة خط معين من الدراسة ومن القراءة وهي آخر الأمر محصلة مؤثرات أحاطت بها تفاعلت مع فطرة خلقت عليها فأنجج التفاعل ما أنتج . إن أول ما يلتفت نظرى من تلك النفس أنها فى خصومة دائمة مع نفسها ، وقلم وجدت من حياتها لحظة تصالحت فيها مع ذاتها ؛ وحسبنا فى هذا الصدد أن نتذكر بأنها نفس مثثلة الأركان لكل ركن منها طبيعة تتنافر مع طبيعة الركنين الآخرين : فهناك من أعضاء مجتمعتها « الأحذب » الذى جاءت حياته انعزالاً مجسداً لا يعرف كيف يستجيب للعوامل المحيطة به فى روية هادئة ، ولقد فقد بسبب اندفاعه الأهوج كثيراً جداً من احترام الناس وتقديرهم ؛ وهنالك إلى جانبه فى ذلك المجتمع الصغير عضو آخر يقع معه على طرفى نقيض . وذلك هو إبراهيم الخولى الذى غلب عليه العقل ببرودته وهذونه وموضوعيته ؛ والذى كان من أجل ذلك يفضل العيش مع « الأفكار » عن العيش مع « الناس » ؛ وأما العضو الثالث - الذى تجسد فى شخصى أنا - فهو الذى يساير الناس فيما تواضعوا عليه ، وهو الذى ينتمى إلى أسرة وإلى أصدقاء وإلى وطن .

إنه إذا جاز لى أن أضع تلك الأنفس الثلاثة التى منها يتألف الثالوث ، تحت الرموس الثلاثة التى ورد ذكرها فى الكتاب الكريم ، لقلت إن النفس « الأمانة » هى رياض عطا (الأحذب) لأنه يندفع مع وجدانه ولا يلبى ، وإن النفس « اللوامة » هى إبراهيم الخولى ، لأنه ممسك فى يده بميزان العقل - ومثله الأعلى هو سقراط - وميزان العقل بطبيعته لا يميل مع الهوى ، وأما النفس « المطمئنة » التى أسلمت ذاتها لله تعالى وللمجتمع فيما نزل من شريعة يجب لها أن تراعى ، ومن تقاليد وقوانين يجب لها أن تطاع عن قبول ورضى ، أقول أن

هذه النفس المطمئنة قد تمثلت في شخصي أنا دون الزميلين الآخرين ، وهو نعيم أحمد الله عليه حمدا كثيرا .

ثم لو جاز لي أن أتحدث عن هذه الأنفس الثلاثة باللغة الفرويدية ، لقلت إن صاحبنا رياض عطا هو الفطرة في بكارتها . أو ما يسمى في مصطلح فرويد « الهو » ، وأما إبراهيم الخولى فهو النقيض الذى يعارضه ويلجمه ، والذى يسمى في ذلك المصطلح « الأنا » ، ويأتى فوقها « الأنا الأعلى » الذى يهدأ فيه الصراع ويسكن القلق .

لكننى وقد وقع على كاهلى عبء الشهادة ، لأكون شهيدا على نفسى وعلى الرفيقين الآخرين ، اللذين ارتبطت بهما بتلك الخيوط السحرية الغامضة ، التى تراها البصائر وإن خفيت على الأبصار أشهد بأنه - رغم هذا التقييم لنفوسنا فقد كانت الغلبة الطاغية لزميلنا الأحذب ، فهو الذى انعكست حرارته على المجموعة كلها ، فأكسبتها الصفة العامة كما يتلقاها الناس ، ومن هنا كانت مجموعتنا في أعين المشاهدين ، أدخل في باب السخط والقلق والتزوة التى تنقل صاحبها من فلك إلى فلك بغير موجب ظاهر .

وكان من أبرز الصفات التى تميز بها الأحذب ، فأنخلعت على الثالوث كله في أعين المشاهدين ، ذلك الانطواء الشديد الذى هو أقرب إلى الفرار من دنيا الناس العامة إلى حيث تحيط به جدران بيته . وحتى هذه الجدران كثيرا ما تبدو له وكأنها العراء فيأوى منها إلى ركن في غرفة مقفلة النوافذ ، وعندئذ تهدأ أنفاسه وتطمئن نفسه ، ولقد سألت الأحذب مرة : متى بدأت عندك هذه الرغبة في الانطواء على هذه الدرجة التى لا يألؤها الناس ، فأجابنى بأنه لا يدري على وجه الدقة متى كانت ولماذا ؟ لكنه كلما دفع ذاكرته إلى الوراء ، وقع على مواقف من

حياته فيها هذا التخلي عن الناس ، فضلا عن أحلامه التي يراها في نومه أو في يقظته على السواء ، فما أكثر ما يغفو لتسرح خواطره كيفما شاءت ، فإذا تلك الخواطر تظل تتقاطر خاطراً في إثر خاطر ، حتى ترسوبه في مكان منعزل هناك بعيداً في الفلاة أو على جبل غير مأهول ، أو في جزيرة لم تطأها أقدام البشر ؛ وروى لي الأحذب في هذا السياق ، أنه ما سافر مرة في قطار ، ووقع بصره على كوخ قائم وحده إلا وتمنى أن تكون حياته في ذلك الكوخ وحيداً ، لا يريد من الدنيا إلا مقدار طعامه وشرابه وما يرتديه من الثياب .

ولئن كنا نحن - أنا وإبراهيم - لانشارك صاحبنا الأحذب في هذا الفرار العجيب ، بالفعل أو بالغمي - فنحن بغير شك نشاركه في نتيجة تربت عليه ، ألا وهي الزهد في بهرج الدنيا وبذخها ، فكلانا - إبراهيم وأنا - يسعد غاية السعادة أمام مائدة عليها أبسط الطعام وأقله ، مادام كافياً لإطعامه من جوع ؛ وكثيراً جداً ماسمعنا الناس ونحن ننسب إلى أنفسنا الغنى . مستدركين بأنه غنى قوامه قلة الرغبات لا كثرة المال .

ولا أترك جانب الانطواء والفرار والتخلي ، دون أن أكملها بما يلحق بها عند الأحذب وإبراهيم معا ، وعند الأحذب بصفة خاصة ، وذلك أنها معاً قد يوصفان بالجين في الحياة العامة وفي زحمة الناس ، لكن انظر إليهما فيما يكتبانه وينشرانه تجد الجرأة والشجاعة والعلانية الصريحة كل منهما في ميدانه ؟ فكأنهما وهما يلودان بمأمن البيت ، فما ذلك إلا ليزداد شجاعة على الورق . |
وملمح رئيسي ثالث في النفس - بأضلاعها الثلاثة - التي نروى قصتها ، هو سرعة الانتقال من البشر والبشاشة إلى الجهماء والعبوس ؛ فما هي إلا لحظة خاطفة ، حتى ترى الأحذب - بصفة خاصة - قد وثب من عالم الضحك

والفكاهة إلى دنيا الصرامة والجد ؛ أ يكون ذلك طابع المصرى من حيث هو مصرى ، دون أن يكون الأمر مقصوراً على الأحذب وجده ، أو حتى على الثالث كله ؟ يجوز ، والبيئة تعمل على ذلك ، فلا يفصل الصحراء الجدداء عن الوادى الأخضر إلا خطوة واحدة تخطوها ، فإذا بك فى جذب بعد إثمار أو فى إثمار بعد جذب ، وإن ذلك الخط الرفيع نفسه هو الفاصل عند المصرى بين الحياة والموت ثم بين الموت والبعث ، فليس غريباً - إذن - أن ينعكس ذلك فى سرعة الانتقال ابان الحياة من البشر إلى العبوس ؛ وعلى أية حال فذلك هى حالة الأحذب الذى - كما قلت عنه - أبرز أشخاصنا الثلاثة تلويها وتأثيراً .

إن من لا يعرف من الناس ثالوثنا فى تباينه تبايناً تتكامل فيه الأجزاء ، يدعشه أن يرى تلك النفس جادة غاية الجدد بعد أن رآها عابثة كل العبث ، أو أن يراها عابثة بعد أن رآها جادة : يدعشه أن يراها وكأنها قلب كلها لا تعرف إلا حرارة العاطفة وقوة نبضها بعد أن كان رآها فخيلى إليه أنها عقل ولاشئ فيها إلا العقل الذى لا يلين مع الحب ولا يضعف مع الميل .

اللهم إذا كانت « المراهقة » بمثل هذا الوثوب السريع من فلك إلى فلك ، فتلك النفس الذى نروى قصتها قد امتدت بها المراهقة منذ مرحلتها العمرية حتى شاخ صاحبها وأبيض شعره ووهن عظمه وعرجت ساقه وعميت له عين وعشيت الأخرى .

وسمة رابعة تتميز بها نحن الثلاثة جميعاً ، لافرق فيها بين رياض عطا ، وإبراهيم الخولى ، وبينى ، وهى شدة التواضع الذى كثيراً ما يسرف فى حق نفسه فيبدو للآخرين ضعة لا تواضعاً ، ومن ثم تسرع المخالب إلى نهشه والأنياب إلى تضريسه ؛ هو تواضع ورثته « النفس » عن الوالدة لا عن الوالد ، فقد كانت

هى التى أورثتها معظم أخلاقها ، وأما الوالد فلم يكن متواضعا ، وجاءت هذه « النفس » لا لتأخذ عنه بل لتهيل إلى اجتناب ما كان يتميز به .

لكن تواضع « النفس » التى نتابع سيرتها ، لم يكن تواضعا غير مشروط . بل كان مقيدا بظروفه ، فهو تواضع بلا حدود أمام الضعفاء غير الأدياء ، وأما إن صادفتها شخصية معتدية ، لجأت إلى الانسحاب حتى لاتضعف أمامها فتؤكل ، وقلما لجأت إلى مواجهة اعتداء باعتداء ، وقد لا يكون ذلك عن عفة بقدر ما يكون عن شعور بالنقص والعجز .

إنه لو ترك لشهر زاد حبل الكلام لما سكنت معها صاحبة الديكة فى أذنيها لتذكرها بإصباح الصباح ، ولماذا تسكت و « النفس » التى تتحدث عنها تغرى بالمضى فى الحديث الذى ينشر عنها ما انطوى ويفصح عما استتر ، ففيها قوة وضعف وفيها عقل وقلب ، وفيها علم وأدب وفن ، وفيها الخير والشر والفجور والتقوى .. (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) « صدق الله العظيم » .



Bibliotheca Alexandrina



0678575